كتاب

الوافي

في المسئلة الشرقية ومتعلقاتها

وتاريخ الحرب الاخيرة بين الروس والعثمانيين

سنة ١٨٧٧ ـ ١٢٩٤

ويشتمل

على كتابين في ستة اجزاء

لامين بن ابرهيم شميل

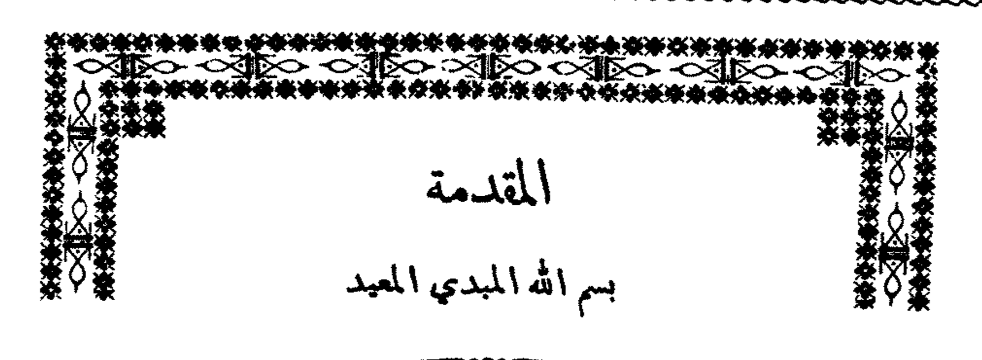
اعتنى

بمراجعتهِ وطبعهِ سليم بن خليل نقلا

صاحب جريدة الاهرام

طبع بمطبعة الاهرام باسكندرية مصر

سنة ١٨٧٩ ـ ١٢٩٦



المقدمة

بسم الله المبدي المعيد

الحمد لله المبدع بكلمة قدرتهِ كل شيء من مشهودٍ وغير مشهود · والمويد بروحهِ الرسل والانبياء شهودًا بالحق على المعدوم والموجود · والمطلق والمحدود · حمدًا يزلفنا اليهِ ويعصمنا بهِ فانهُ مصدر الرحمة والجود · والصلوة والسلام على رجالهِ العظام · واصفيائهِ الكرام · منارة الهدى · وملاذ الغنى · وملجا الصواب · ومحجة الكمال والثواب

وبعد فلما كان التاريخ من الذ ما تالفهُ النفوس الطُلَعة وتانسهُ الخواطر · وتلهى بهِ الحيرة وترسم بهِ صور الماضي والحاضر · فهو خزانة آثار الادهار · ومرآة الاعصار والاثار · وموعظة العاقل الفاكر · وعبرة الباحث الناظر · وقدوة الحكيم الفاضل · ومدرسة الغافل الجاهل · انصرفت لذلك الى اتقانهِ في كل عصر همم الرجال · وتسابقت الى قيد اوابدهِ واوانسهِ اولو الفضل والكمال · فحق لهُ الانضام في سلسلة العلوم الادبية والاندراج ما بين فنون التهذيب الاكمالية · فلم تخلُ مدرسة موسسة على الاصول المرغوبة من انوار ضيائهِ · ولا كمل انسان في محاسن الاخلاق والاعمال بدون ورود مناهلهِ واجتراع مائهِ · وقد ظهر في كل امة ودهر اناس صرفوا جل عنايتهم لجمع ماجرياتهِ من غث وسمين · حتى عادت خزائنهُ بما بذلوهُ من الجهد تزهو بكل جليل وثمين · فلم تكن العرب ومن حذا حذوهم وراء غيرهم فقد امتاز منهم نحو الف وخمسمائة مورخ في كل معنى · وساروا على قدم التعقيب والتدقيق في جمع متفرقاتهِ بكل مبنى ومغنى · لا سيا خلال الاجيال الوسطى عندما كانت اوربا وجوارها غافلة عن كل فائدة علمية · نائمة عن كل منفعة امية

ثم لما كانت الحرب الاخيرة بين دولتي آل عثمان والروس من اهم ما جرى في هذا القرن لما فيها من المعاقل السياسية والمادية · وجمعت من المنافع والاضرار الدينية والدنيوية · وانطوت عليهِ من العلل الاصلية والفرعية · وامتازت بهِ من العناصر الداخلية والاجنبية · استحقت ان يرقم حوادثها وماجرياتها كل مورخ متحرٍ مدقق · وان تكون غاية مهمة لكل كاتب متامل محقق · فيبقى ذلك اثرًا بعد عين ودليلاً لما سيكون مما كان · وعبرة لما رقمهُ قلم الحاضر على صحائف الزمان والمكان ·

ولولا ان النفس مطماع وثوق خواضة الاخطار · لكان ذلك حجة علينا ان لا نتعرض لمثله فنعرضها للتنديد والانكار · فانى لنا فرص اللباقة التي كانت لسلفائنا في اعصار اشرقت شموس فضلها في الآفاق العميمة · وحظيت مساعي اهتمامهم فيها بحماية الملوك والامراء العظيمة · اوكيف لنا وسائل اهل العصر من الافرنج في نوالهم خزائن من الكتب النفيسة هي تحت امرهم كيفما توجهوا ومتى ارادوا · وتسابق اهل وطنهم الى الحصول على مولفاتهم فيجازوا اعمالهم بالشكر والمال عما اجادوا به وافادوا · ان نحن الا متطفلون على صناعة الاداب · ومجازفون في توهم سرابنا ماء ولاماء في السراب · فرحم الله من تامل وعذر · وعرف ما في ذلك من الصعوبات واعتبر · هذا ولما كانت طوارىء الحرب المذكورة من النوادر الغنية · نظرًا الى ما تنطوي عليه من الصوالح والعناصر المتنوعة الكلية · لم يكن رقم حوادثها كافيًا لمن اراد الاطلاع على الاسباب المختلفة · اذ ليست هي كبقية الحروب والمبارزات الجارية المؤتلفة · بل هي حلقة من سلسلة ما يدعوه اهل السياسة في عهدنا هذا بالمسالة الشرقية · المندرجة في سلاسل الطوارىء العالمية · وهي المسالة التي عاشت القرون الطويلة فلم يكن ما يفنيها · لها السلم كالسيف وما يميتها يحييها فلو تتبعنا التاريخ من اول ما اشتغل به الناس لما وجدنا مدة تميزت بكثارة الدول والحروب نظير المدة الاخيرة من لدن ما ولد بني الامة العربية · وافرغت دولتا الروم والفرس الى الدولة الاسلامية

قالوا انه منذ البدء انقسم ملك العالم الى دولة دينية ودنيوية فكانت الاولى قبل الطوفان في شيث و بنيه الى نوح · ثم قامت بعد الطوفان دولة الاولياء من نوح الى موسى وكانت الدول الدنيوية في المشرق دولة الفراعنة والاشوريين واهل بابل ومادي · ثم افرغت دولة الاولياء الى دولة قضاة اليهود · وهذه الى دولة ملوكهم · وافرغت هذه الى الكلدانيين · وامتزج الملك الديني حينئذٍ بالدنيوي الا ما كان في ايدي الاحبار وافرغ الكلدانيون الى الفرس · والفرس الى المجوس · والمجوس الى الاسكندر ملك الاغريق · والاسكندر الى قوادهِ البطالسة والاناطخة والاذارنة · وهولاء الى الرومان · وانقسم الرومان الى شرقي وغربي فالشرقي مملكة الروم وهذه افرغت الى العرب · والعرب افرغوا الى المغول · والمغول الى الاتراك فعليه تكون الدولة العثمانية المالكة الان الدولة الثانية عشرة المفرغ اليها الملك في المشرق من لدن الطوفان وقد ظهر واختفى منذ افراغ الروم الى العرب نحو ستون دولة اسلامية ما بين صغيرة وكبيرة كلها انقرضت وانتهت اليها · فهي من الدول العظام القديمة التي ملكت المشرق من القرن السابع للهجرة

والمسالة الشرقية لم تظهر الا بعد ان ظهر المشرق شارعًا دينيًا ودان المغرب بدين النصرانية وامتدت التعاليم المسيحية في كل نادٍ من العالم لما في مبادئها من الحرية والاخوّة والاسوة ومحبة

القريب ما يوافق العابد في صومعتهِ والمالك في مملكتهِ والرعية في رعايتهم ونحو ذلك · ومن ذاك الوقت يورخ الحبل بالمسالة المذكورة

ولما تمكنت النصرانية من العقول ظهر وسط الخطة العربية نبي جديد ينتمي الى نسل الاولياء اتى بشريعة صدّق بها شريعتي سالفيهِ موسى وعيسى الا انها في ظاهرها وسياستها مخالفة لها ولشريعة المجوس فهبت ريح الاختلافات الماجعة على اوقيانوس المطامع البشرية فصدمت امواج الامة الجديدة وطلائعها حدود مملكتي الروم والعجم فانهالت امامها ضعفًا وثبت قدم الاسلام بسرعة غريبة في بسيطها حتى امتطى سراة اعظم دائرتها في مدة قصيرة · فانتفضت اعصاب المغرب من هذه الصدمة العنيفة وافاق من غفلتهِ ووقف ثابتًا امام قوة عدوهِ فاوقفها بعد ان تمكنت في بسيط الممالك الرومانية وعاد القتال بين الفريقين سجالاً الى يومنا هذا فالمسالة المذكورة ولدت في ولادة رسول العرب وترعرعت وشبت وتكهلت في عهد خلفائهِ للان · وهي على ما يرى نظير فصول السنة اذا بلغت نهايتها القصوى تجددت فلا يكاد يرى لها اخر فانها بنت الدين والدنيا والسياسة وتدوم بدوامها

ولاجل هذه الاسباب كان تاريخ هذه الحرب مما يقتضي النظر في تواريخ كثيرة لاسيما تاريخ الاسلام في العرب اولاً ثم في الاتراك كما بيناهُ في النبذ التاريخية الاتية · و قسمنا مولفنا هذا الى كتابين (الاول) يختص بالمسالة الشرقية من لدن الاسلام ويشتمل على ثلثة اجزاء احدها من اول الاسلام الى اخر الربع الاول من القرن الرابع عند نهاية خلافة الراضي وهو العشرون من العباسيين وفيهِ اخبار الفتوحات والامتداد الاسلامي شرقًا وغربًا ووصول القوة العربية الى معظمها ثم ظهور الضعف والانقسام وتقوي العنصر الاجنبي في احكامها · فانهينا كل ذلك بخلاصة جامعة ابنا فيها خطا الاراء السياسية والخروج عن محجة الصواب حتى نشا ما نشا عن ذلك من البلابل والشرور

والجزء الثاني ياخذ من اول الربع الثاني من القرن الرابع الى خراب بغداد وانتهاء الدولة العباسية (سنة ٦٥٦ــ١٢٥٨) وفيهِ نذكر الفرعين الاسلاميين الاسيوي والافريقي وجميع الدول الظاهرة في المملكة الاسلامية وتواريخها من الدولة المروانية (سنة ١٣٩) في الاندلس الى الدولة العثمانية (سنة ٦٣٠) في اسيا الصغرى وتاريخ حروب التتار والافرنج المعروفة بحروب الصليب في الجيل الحادي عشر للنصرانية وتتبع التاريخ العباسي الى اخرهِ · وهي مدة مهمة في امر هذه المسالة

والجزء الثالث يبتدئ من الدولة العثمانية وتغلبها على تلك الدول الاسلامية الباقية والتتار الى بداية الحرب المذكورة (سنة ١٨٧٧) وفيهِ ذكر تاريخ العثمانيين والروس وشرح بعض الامم البائدة وما كان من الحروب بين آل عثمان وروسيا الى ابتداء الخلاف الاخير في الهرسك والبوسنه ثم حرب الجبل الاسود والسرب وموتمر القسطنطينية والمداولات الدولية وتوضيح البغض والحقد الموسسين بين

الروس والترك بنوع لا يمكن زوالها وعنها يتجمع من وقت الى اخر مواد كافية لاحداث حروب وسفك دما كما جرى قبلاً . فان هذا القرن وحدهُ قد شاهد ثلاث حروب غيرها ولم يكمل بعد وهذه مدة طويلة نحو ستمائة وعشرين سنة اي من خراب بغداد (سنة ١٢٥٨ الى ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧) وهو يوم شهرت روسيا الحرب علي الدولة العثمانية . وقد سلكنا في ذلك على ارباع قرون اي ذكرما حدث في كل ربع منها ضمن الاجزاء الثلثة المذكورة

(والكتاب الثاني) من التاريخ المذكور يختص بالحرب المرقومة وقد جعلناه ثلثة اجزاء ايضًا الاول من اول الحرب الى اخذ بلونة والثاني من اخذها الى التئام برلين والثالث من الالتئام الى ختام (سنة ١٨٧٨) مع خلاصة تاريخية عامة

وقد اضفنا الى كل من هذه الاجزاء الستة الصور اللازمة من مشاهير ملوك وقواد ومدن ومواقع حربية ونحوها نحو مائة رسم من الرسوم المختارة في غاية ما يكون من الاتقان ما يشخص للقاري حقائق الامور واوضاع رجالها

وقد اعتمدنا من التآليف ما تيسر لنا من التواريخ الشهيرة العربية والتركية والافرنجية مثل ابي الفدا وابي الفرج الملطي وابن العميد وابن الاثير وابن الوردي وابن خلدون وابن سعيد والمقري وابن عرب شاه وراغب باشا والادريسي وافريدون بك وفون هامر ورصل و بزنكور ولمرتين وكرامدي وانسكلو بذيات مختلفة وكرافرين وكوكص وكاسل وماأصو ومراسلات الديلي نيوز والهرالد والتمس والديباه والنورد وعدة مذكرات تلغرافية وجرنالية وغيرها

فلم نترك جهداً الا بذلناهُ في تحري المواد ورقم ما ثبت منها . ولم ندع للميل سلطانًا علينا وقد سلكنا الطريق العادل في اختيار اللغة فلم نهبط الى حضيض المعاني بغية الارتقاء الى اوج الالفاظ الخالصة السبب الرنانة ولا سقطنا الى حضيض اللهجة المنكرة طلبًا للحصول على معانٍ سامية فعالة بل اجتهدنا بان يكون مولفنا هذا مع سهولة فهمهِ صحيح الوضع جلي العبارة حسن الاعراب . خاليًا من التعقيد والاغراب . فالتزمنا في بعض الاماكن الى استخدام الفاظ اثبتها الاستعمال رغمًا بالتفضيل على ما يرادفها من الالفاظ القديمة المجهولة الان للعامة اولانهُ لا يوجد لها مثل في اللغة فاقتضى تعريبها ضرورةً

ولقد ساء عملنا هذا البعض ممن الفوا التنديد فرجموا واخترعوا لنا ما لا اصل لهُ من العيوب . وبذلك وبما افسدوهُ من صريح العبارة اقاموا علينا الحجة الساقطة فكانوا بعملهم هذا بانين ما ارادوا هدمهُ . وناشرين فضل ما قصدوا ذمهُ .

وإذا اراد الله نشر فضيلةٍ طويت اتاح لها لسان حسودِ

وقد اخترنا كذلك اسقاط الجمل الانشائية التي استعملها اكثر الكتاب لاسيما من المسلمة الافاضل عندما يراد ذكر الانبياء وغيرهم من اهل الفضل والشان مثل صلى الله عليه وسلم . وعليه السلام . وقدس الله روحه . ورضي عنه . وعفى عنه . ورحمه الله . واشباهها لا لاننا ننكر استحقاق من انشئت لاجلهم بل لاختلافنا رايًا عنهم نظرًا الى لياقة الجمل المستعملة فيه فانها في راينا حرية بان تدرج في الكتب الدينية والمعابد الخاصة لا في الكتب العلمية والتواريخ المولفة لعموم الناس . وذلك اولاً من كون البشر متفرقين في مذاهبهم ما بين مومن وملحد ومصلٍّ على هذا النبي ومترضٍ على ذاك الولي على خلاف بينهم فيخشى من ايراد هذه العبارات تعريض الانبياء والصلحاء للاحتقار لدى اناس تباينت اراوهم الدينية ولاسيما في هذا العصر الذي قد اخذ الكبر فيه كل ماخذ وسطت جيوش الكفر على جنود الايمان والحال ان الانبياء واهل الفضل في غنى عن كله بل ان في تركها احترامًا اعظم . فاسقطنا ذلك انشائيًا لا غير تاركين للقرّاء من كل مذهب ان ينشئوها بحسب اعتقادهم عند مرورها عليهم بالاصالة عن انفسهم والنيابة عنا ان ارادوا . ولا يحق لاحد ان ينكر علينا ذلك فقد جاء هذا الاسقاط في كلام الاولين مثل قول ابي بكر الصديق للانصار في اجتماع السقيفة على امر الخلافة بعد الرسول « نحن اولياء النبي وعشيرته واحق الناس بامره وانتم لكم حق السابقة فنحن الامراء وانتم الوزراء » وقول بشير بن سعد الخزرجي الانصاري وقتئذٍ « الا ان محمدًا من قريش وقومه احق واولى ونحن وان كنا اولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما اردنا بذلك الارضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضًا ولا نستطيل به على الناس » فانهما لم يستعملا شيئًا بعد ذكر الله تع والرسول وهما شاهدان عادلان على جوازه

ثانيًا فرارًا من التكرار والاسهاب فان هذه الجمل وما يتبعها تاخذ محلاً عظيمًا وتذهب احيانًا من طولها بالمعنى مع عدم افادتها الموضوع الصحيح شيئًا . ولهذا السبب ايضًا رقمنا التواريخ بالارقام لا بالالفاظ وجعلناها هجرية ومسيحية مستقلة ضمن هلالين بحيث ان قراءتها وعدمها لا تخل بالمعنى . وقد استخدمنا الهلالين المذكورين ايضًا مرة للاستفهام ومرة للتفسير واخرى للاشارة الى ما ذكر قبلاً تحت اسم مختلف ونحو ذلك وكلة يفهم من قرائن الاحوال . وقد ضمنا كل عبارة منقولة ما بين هاتين الاشارتين « — » وسلكنا مسلك المولفين الحدثاء في التنقيط والتبويب والتفصيل ونحو ذلك . وبالاجمال فاننا جعلنا كل اهتمامنا في تحرّي المواد قبل اثباتها فاذا جئنا بامر مشبوه او حادثة اختلافية كان ذلك بقصد ترك الحكم للقارئ وحفظًا للسياق التاريخي غير منقطع فان عدم اتفاق الفريق الواحد على صحة امر ما لا يكون دائمًا حجة على عدم صدقه . وكل غايتنا هي جعل هذا المولف جامعًا مفيدًا غير ممل منه يستغنى به عن المطولات والتواريخ القديمة والحديثة في هذا الشان

ويتضح منه الماضي والحاضر وتظهر المسالة الشرقية بمنافعها واضرارها . فاذا ذكرت لا يعجب السامع من انكماش اعصاب السياسة منها لانها بالحقيقة اعظم معقل للناس وبها تمام الاية « ما جئت لالقي سلامًا بل سيفًا »

فجاء بحوله تعالى جامعًا سير الاوائل والاواخر على نمط غريب . شافيًا وافيًا بكل
امر ومعنى عجيب . فدعوناهُ الوافي طالبين اليهِ تعالى ان يثيب بغناهُ
اتعابنا . ويعفو بفضله عن زلاتنا . ويفي بكرمه انتظارنا . فنقدمهُ
لكم ايها الاخوة الكرام ابناء الوطن الاعزاء . فتلقوهُ وقفًا منا
عليكم بحسن القبول وصدق المودة والاخاء . واسبلوا
بدون اختلاف جنس ومذهب ذيل المساهلة والكرم
على ما طغى بهِ القلم . وزلت بهِ القدم . لا زلتم
مقصد الفضل والفضائل وملجا
الجلل والجلائل . ما اشرق
القمران . واستقر
الدوران

م

الجزء الاول

من الكتاب الاول من الوافي

في

المسالة الشرقية

والحرب الاخيرة بين الروس والعثمانيين
سنة ١٨٧٧ ـ ١٢٩٤

لامين بن ابرهيم شميل

بسم الله الحي القيوم

نبذ تمهيدية

نبذة اولى

في بواعث الحرب

على نحو ٨٥٠ ك م من القسطنطينية عند ساحل بحر الادرياتيك توجد معاملة هي الهرسك (هرزكوين) في شمالي الجبل الاسود اكثر اهليها من الروم الارثوذكسيين وقد كانت قديمًا قسمًا من الخرواط وبعد ان تداولتها ايدي الفاتحين اضيفت الى البشناق (بوسنيا) التي كانت تابعة مملكة هنكاريا . ثم استولى عليها قهرًا آل عثمان (عام ١٣٨٩) ولبثت دائمًا شاقة عصا الطاعة تدافع عن حريتها الى ان ضمت بموجب عهدة كارلويتز (سنة ١٦٩٩) الى تركيا كما ضمت هنكاريا الى اوستريا . واذ كان ذلك على رغم منها كان يرجى والحالة هذه ممن فوّضت اليهم الحكومة المركزية ادارة امرها ان يكونوا قد اهتموا باستمالة قلوب الاهلين واصلاح ذات بينهم واقصاء اهل الشقاق على نحو ما تقتضيه السياسة الصادقة ولكنهم اهملوا ذلك . ولبثت الحال على هذا المنوال الى ان سنحت الفرصة فنبذت الطاعة ظهريًا وجاهرت بالعدوان (في اول تموز عام ١٨٧٥) وآل الامر بعد اضطراب وارتباك الى ايقاظ المسئلة الشرقية غب ان هجعت نحو عشرين سنة تخفق لها قلوب العالم خوفًا وماجت الممالك جزعًا . وبعد ان ثارت الحروب الاهلية واخذ الانتقام كل ماخذ وجرى من الامور المنكرة ما سوّد صحف التاريخ كما سنبينه مفصلاً انتهى الامر الى ايقاد هذه الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية التي نحن في صددها

ولما كان غرضنا في هذا المؤلف البحث ايضًا عما يدعوهُ اهل السياسة المسئلة الشرقية وكانت المسئلة الشرقية عبارة عن عناصر متنازعة نشات في احضان الدين والدنيا وربيت تحت اكناف السياسة مدة اجيال كان لا بد للحصول على الفائدة المرغوبة من النظر في تواريخ الاعصار الخالية ولذلك اردنا قبل الشروع في قيد الحوادث الحربية ان نستقرىء من تاريخ الامتين وغيرها ما يفي بالمقصود

نبذة ثانية

في منشا آل عثمان

على تلك الربى الواسعة من الكرة المعروفة بنجاد التتارية الكبرى بين تخوم الصين وجبال تبت الى بحر الخزر تنبسط مروج ذات اراض جميلة رحبة ومراع خضراء نضرة لم ينشا فيها من بدء العالم المعروف غير بشر وانعام . ولا وطئت قط اجمل منها قدم انسان . فكأنّ الطبيعة قد خصتها بالخصب والكثرة لتكون مذخرًا انسيًا عظيما محفوظًا لامور مهمة . فاعدّت له في درّ انعامها الغزير شرابًا . وفي سمنها ولحمها السمين غذاء . على سراة خيلها الجياد محملة . وفوق اقتاب ابلها النشاط ترفع مضاربه . وبصوف الضان وشعر الماعز تكسوهُ وتدفئة . في رياض اوريف نديّ ليس للاشجار فيه حظ فتقي بظلها وحشًا موذيًا . هنالك تربة عميقة لا صرار فيها كانها اغوار بحر ذات صلصال جيد ارتفعت وانحسر عنها الماء بفعل الخوارق الطبيعية . فلا ينبت فيها غير الكلاء مرتويًا من مستحلبات تلك الجبال العليا . ومحفوظًا من زمهرير شتائها الطويل ببسط من الثلج النقي . حيث تسخنه في زمن الربيع شمس لا يجللها سحاب . ويقيه نكاية الحر نسيم لطيف رطب . هنالك وجد الربيع له وطنًا منيعًا لا ينازعه فيه شجر او ثمر ولا تقلة منجل حصاد او تدوسه وحوش كاسرة ورُزقت السائمة خير مرعى وارحب ضيافة . هناك الحيوان يكتنز ويكتسي وينمو ويدرّ حيًا لسيده فاذا ما انقضى ترك له جلدهُ لاحتياجاته الاهلية هذه هي العيشة الرعيانية الطيبة حيث يكفي الانسان قوت حاصل الطبيعة فلا يهتم بزرع وحصاد يعتاض عن بيوت الحجر ببيوت الشعر وعن الاراضي المحرزة بارض الله الواسعة الفلا حرًا يستتبع ماشيته اين شاء وشاءت . يستنجع مناطق الروض مغيرًا وجه السماء بحسب الفصول . رافعًا مضاربه علي اكتاف الظعن وشادًا على ثيرانه مركبات ترفع بيوتًا متنقلة لعياله تلك عيشة عيشت بالهم فلم تستدع من الضرورات الا يسيرها

وملاهي تلك الشعوب ليست الا التصابي والتلذذ . واتجاه القلب احيانًا الى الخشوع في تلك الليالي الزاهيات . ومسامرة الكواكب ورعايتها . ومجاذبة اطراف الاناشيد . ونظم القريض على طيب الحيوة البدوية وقصص العشيرة ومفاخرها ونوادرها وقلما ساقت الحاجة وضرورات الرزق الى تجافي السلام طلبًا لسعة العيش والسلطة الابوية هي السلطة الوحيدة الموقرة عندهم ينقادون اليها عن طيب خاطر جيلاً بعد جيل . فاذا صارت العشيرة فصيلة والفصيلة فخذًا والفخذ بطنًا والبطن عمارة والعمارة قبيلة او سبطًا انتخبوا لهم اباء سياسيين يدعون عندهم خانات وهم كالمشايخ عند العرب . فاذا نمول الى قبائل عديدة انضموا الى شعب او امة وجرت حينئذٍ السلطة الابوية المتعلقة برؤساء الاسباط بموجب

العوائد الاهلية وبرأي الخانات · ومتى غزوا او احتلوا ارضاً فتحوها اخذوا في تغيير عوائدهم فتوسّس وقتشذ الممالك وتقدس الدول وتعتبر كانها الهة او ظل الله على الارض

هولاء هم التتار اهالي التتارية الكبرى التي خرج منها بالتوالي و بطارق مختلفة اربعة وعشرون شعباً تركياً هم في الولادة تتار · وفي العوائد عرب · وفي الديانة امم · وفي العيشة رعاة · وفي القلوب ابطال

ولنغض الان عمن حل منهم بالتركستان وحدود بحر الخزر والصين واودية الارمن ونحوها ونقتفِ اثر اولئك الذين بعد ان اختاروا الاسلام ديناً اجتازوا سورية واسيا الصغرى واسسوا المملكة العثمانية

نبذة ثالثة

في الاوغز او الغز الذين منهم آل عثمان وآراء المورخين

ولما كان لكل امة اخبار متوارثة وتواريخ خاصة اردنا ان نذكر شيئاً من ذلك قبل الشروع في ما صار عليه الاعتماد

جاء في الاخبار المتواترة ان اوغزخان بن قراخان من ذرية ترك جد الاتراك كلهم كان ملكاً عظيم الشان في عهد ابرهيم الخليل وكان يتولى امر التركستان وهي ما يسميها الفرس توران · وذكرت التواريخ القديمة ان المملكة انقسمت بعد اوغزخان الى خانيات · منها ثلث وتدعى (الاسهم الثلثة) كان نصيبها الاوغز الشرقي الى حدود الصين · ثم ثلث اخر تسمى (الحاطمة) احداها خانية الجبال وهي منشا الغز المتاخرين والتركمان · والثانية خانية البحر ومنها الترك السلاجقة سلاطين خراسان وقونية · والثالثة خانية السماء او القبة الزرقاء · ولعل المراد بذلك ما بين الجبال والبحر · ومنها سبط كايي الذي نشا عنه آل عثمان · وقد وفى الاوغز المذكورون حقوق الحرب مع العرب والعجم وفتحوا بخارى وسمرقند · ووسع بوغراخان هرون نطاق مملكته الى تخوم الصين · وفي الجيل الخامس للهجرة شبّت نيران الحروب الاهلية ففرقت لفيفهم المقرون وصيرت ذاك الشمل الجميع شتيتاً وتمزق قلب المملكة كل ممزّق فانقرضت وقام على اثارها الامراء السلجوقيون

وفي التواريخ المتاخرة ان في الربع الاول من الجيل السابع للهجرة (وقيل في الربع الثاني منه) في الجيل الثالث عشر للنصرانية عام ٦٢١ هجرية ايام قدم جنكيزخان سلطان المغل على خراسان نهض سليمان شاه بن كايي الب من سبط كايي المقدم ذكره وكان يقيم وقتئذٍ بماهان من البلاد المذكورة وهاجر في طليعة خمسين الفاً من قومه الى ارذنجان وخلاط من بلاد الارمن وان بعد ذلك بسبع سنين طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوهما فقفل سليمان شاه بقومه

الى موطنهِ . وبينما كان يجتاز الفرات عند جعبرمات غرقًا فاقام لهُ رجالهُ هناك مزارًا لا يزال الى يومنا هذا ويدعى ترك مزاري . وقد خلف اربعة بنين وهم سنقور زنكي وكونطغدي وارطغريل (ومعناهُ المستقيم) وكوندز . وبعد دفن سليمان شاه انقسم القوم فمنهم من اختاروا استقراء المسير الى بلادهم ومنهم من فضلوا البقاء بالبلاد الغربية فانضموا الى الامير ارطغريل واخيهِ الامير كوندز وكانوا نحو ٤٠٠ عشيرة فيها ٤٤٤ فارسًا شاكي السلاح . فقصدوا النواحي الغربية حتى وصلوا الى مكان فيهِ جيشان يستعدان للقتال وكان احدهما اقل من الثاني عددًا . فمال ارطغريل بك بقومهِ الى الجانب الضعيف وانخرط في سلكهم . واتفق ان هذا الجيش كان للسلطان علاء الدين السلجوقي من ذرية ملكشاه بن قلج ارسلان والثاني من المغول اعداء الاتراك الالدّاء فانتصب ميزان الحرب ويسر الله الظفر للسلاجقة بمساعدة ارطغريل بك وقومهِ . ولما انفض القتال استدعى السلطان علاء الدين رئيس اولئك الغرباء وبعد ان استقصى عن حقيقة امرهم خلع عليهِ وعلى اخيهِ واهلهما وقومهما بمراعي تومانية وارمينية وقيل بجبال قراجاطاغ عند انغره . وقام ارطغريل بمساعدة السلطان علاء الدين في اكثر حروبهِ ضد المغول والروم . فاقطعهُ اخيرًا معاملة في حدود مملكتهِ ومملكة الروم تدعى سلطانية او صرايجق من اعمال فريجيه . وفي اواخر الجيل السابع للهجرة توفي ارطغريل بك ودفن في منحنى كروم عند مدينة درولية الشهيرة في حروب الصليب على قرب من قرية (اتبورنو) حيث كان يقطن الشيخ اده بالي ابو الخاتون الجميلة التي سياتي ذكرها ودرولية هذه هي التي يذكرها ابو تمام في قصيدتهِ التي مطلعها « ما عهدنا كذا بكاء المشوقِ » بقولهِ

ثم القى على درولية البرك م محلاً باليمن والتوفيقِ

وقال بعضهم ولم يعين السنة ان سليمان شاه احد امراء السلاجقة ترك تركستان بخمسين الفًا من قومهِ ومن الغزسكان جهات نهر جيحون فرارًا من المغول الذين كانوا قد استولوا على الممالك العربية وبعد ان تجاوز ارض مادي ووصل الى حدود سورية توفي فذهب قسم من رجالهِ الى الجنوب وتوجه الباقي مع ولدهِ ارطغريل بك الى اسيا الصغرى ونزلوا عند سلطان قونية علاء الدين كيقباذ فرحب بارطغريل واكرمهُ رجاء ان يساعدهُ على المغول اعدائهِ . قال وبعد ان اخذ ارطغريل انقيره جزاء اتعابهِ امام علاء الدين وتملك قوطاهية من الروم (سنة ١٢٨١ — ٦٨٠) توفي (سنة ١٣٠٠ — ٦٩٩) موسسًا ملكًا جديدًا

واعتمد كاسل في تاريخهِ الحرب الاخيرة على ان سليمان شاه امير الغز نهض من خراسان بقومهِ (١٢٤٣) وقصد البلاد الغربية لمساعدة الاتراك الذين هناك على المغل فغرق بقطعهِ الفرات اما بذهابهِ او بايابهِ وان ارطغريل بك ولدهُ بقي في البلاد الغربية الى ان التقى بالعسكرين المذكورين وكان

من امره ما كان

وقال ادوردس فوكوك صاحب الترجمة اللاتينية على تاريخ ابي الفرج الملطي التي قدمها لكارلوس الثاني ملك بريطانية (سنة ١٦٤٨ ـ ١٠٥٨) ما معناهُ انهُ لا يوجد ما يعتمد عليهِ في امر سليمان شاه جد آل عثمان قال نقلوا انهُ نحو سنة ٦١١ هجرية ترك سليمان شاه بلاد ماهان من العجم هاربًا من جنكيزخان سلطان التتر الذي كان قد تغلب على اكثر البلاد وذهب بقومهِ قاصدًا دولة السلاجقة الشهيرة وانهُ غرق عند اجتيازهِ الفرات فانثان من بنيهِ الاربعة وهما سنقور زنكي وكونطغدي ذهبا ببعض القوم جنوبًا والاخران وهما ارطغريل بك وكوندز توجها بالباقي الى عاصمة السلطان علاء الدين صاحب قونية ووجدا نعمة لديهِ واحلهما في قره جبطاغ . قال وبقي ارطغريل بك هناك الى ان توفي (سنة ١٢٨٨ ـ ٦٨٧)

وذكر ابن خلدون في آخر كتابهِ الخامس ما ياتي « ولما ملك سليمان بن قطلومش قونية بعد ابيهِ وفتح انطاكية (سنة ٤٧٧) من يد الروم طالبهُ مسلم بن قريش بما كان لهُ على الروم فيها من الجزية فانف من ذلك وحدثت بينهما الفتنة وجمع قريش العرب والتركمان مع اميرهم (جق) وسار الى حرب سليمان بانطاكية فلما التقيا مال التركمان الى سليمان لعصبية الترك وانهزم مسلم بن قريش وقتل واقام اولئك التركمان ببلاد الروم ايام بني قطلومش موطنين بالجبال والسواحل ولما ملك التتر بلاد الروم وابقوا على بني قطلومش ملكهم وولوا ركن الدولة قلج ارسلان بعد ان غلب اخوهُ عز الدين كيكاوس وهرب الى القسطنطينية وكان امراء هولاء التركمان يومئذٍ محمد بك واخاه الياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج والظاهر انهم من بني (جق) فانتقضوا على ركن الدولة وبعثوا الى هولاكو بطاعتهم وتقرير الاثر عليهم وان يبعث اليهم باللواء على العادة وان يبعث شحنة من التتر يختص بهم فاسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يومئذٍ ملوك بها

ثم ارسل هولاكو الى محمد بك الامير يستدعيهِ فامتنع من المسير اليهِ واعتذر فاوعز هولاكو الى الشحنة الذي ببلاد الروم والى السلطان قلج ارسلان بحاربتهِ فساروا اليهِ وحاربوهُ ونزع عنهُ صهره علي بك ووفد على هولاكو فقدم مكان محمد صهرهِ ولقي محمد العساكر فانهزم وابعد في المفرّ ثم جاء الى قلج ارسلان مستأمنًا فامنهُ وسار معهُ الى قونية فقتلهُ واستقر صهره علي بك اميرًا على التركمان وفتحت عساكر التتر الى اسطنبول والظاهر ان بني عثمان ملوكهم لهذا العصر اعقاب علي بك او اقاربهُ يشهد بذلك اتصال هذه الامارة فيهم مدة هذه المائة سنة ولما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو (ارتنا) بسيواس واعمالها غلب هولاء التركمان على ما وراء الدروب الى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى اورخان بن عثمان جق

فاتخذها دارًا لملكهم ولم يفارق الخيام الى القصور وانما ينزل في خيامهِ في بسيطها وضواحيها وولي بعدهُ ابنهُ مراد بك وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج وافتتح بلادهم الى قريب من خليج البنادقة وجبل جنوه وصار اكثرهم ذمة ورعايا في بلاد الصقالبة بما لم يعهد لمن قبلهُ واحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من اعقاب لاسكري وطلب منهُ الذمة واعطاه الجزية ولم يزل على جهاد امم النصرانية وراءهُ الى ان قتلهُ الصقالبة في حروبهِ معهم (سنة ٧٩١) وولي بعدهُ ابنهُ ابو يزيد وهو ملكهم بهذا العهد انتهى »

وفي بعض التواريخ ان اصل الدولة العثمانية اشرع من ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة . وقد نقلوا ذلك عن المورخ جرجس فرانزس الرومي المولود بالقسطنطينية من عائلة كريمة بينها وبين ملوك الروم الباليولوغية نسب بالكلالة . وكان هذا المورخ مقلدًا اهم الوظائف السياسية نظرًا الى علوهِ وشهرتهِ . وقد اسرهُ الترك ايام فتحوا القسطنطينية ثم خلوا سبيلهُ . فرحل الى كورفو ودخل الرهبانية وفيها طلب اليهِ بعض خلانهِ ان يولف تاريخًا للدولة الباليولوغية المذكورة من عهد انجلوس كومينوس (عام ١١١٨) الى عهد قسطنطين الحادي عشر المعروف بدراغورس ويذكر فيهِ الحوادث الاخيرة المتعلقة بسقوط القسطنطينية . فاجابهُ الى ذلك وهذا ملخص ما قال في هذا الشان

في (سنة ١١٣٠) كان الامبراطور يوحنا كومينوس ومعهُ ابن اخيهِ اوغسطس اسقيدس المدعو يوحنا ايضًا يقاتل ملوك ايقونية والعجم (السلاجقة) عند نيوقيسارية وكان قد تغلب على كثير من حصونهم . قال . وبعد ان طالت الاقامة بتلك الاماكن الجرداء الباردة ونفدت الذخائر الا قليلاً ومات اكثر الخيل من قلة العلف . اختار الامبراطور ملافاة تلك المصائب بتوزيع ما تبقى من الخيل على اشد رجالهِ وآلى على نفسهِ الاّ يكل امرهُ الى سواهُ . فكان يفتقد الجند ويختار جياد الخيل ويسلمها لفرسان الروم والطليان لانهم كانوا فوق صهواتها امهر من سواهم في ملاعبة الاسنة والسيوف . وبينما كان يومًا يفعل هكذا وبجانبهِ ابن اخيهِ المذكور لاحت منهُ التفاتة فرأى فارسًا جديدًا من الطليان اعجبهُ منظرهُ . فامر ابن اخيهِ بالترجل عن جوادهِ وتسليمهِ للشاب المذكور . فشق الامر على يوحنا وابى . فكرّر عليهِ الامبراطور الامر فترجل وهو يشتعل غيظًا ووجه حرَّ وجههِ نحو ملك العجم فتلقاهُ بوجهٍ بشوش واكرمهُ ورفع منزلتهُ . ثم دان يوحنا بدين الاسلام فازوجهُ الملك بكاميرة بنتهِ وانعم عليهِ وعليها بعدة مدن وبلدان وبمبلغ من الذهب . ولقبهُ الشعب بالشلبي حملاً على رقة شمائلهِ وكان مهذبًا بالعلوم اليونانية ومحسنًا التكلم بالعربية غاية الاحسان كريمًا بشوشًا انيسًا لطيفًا كانّ على اخلاقهِ عهلاً . فامالت صفاتهُ هذه اليهِ افئدة الجميع واعلت مكانتهُ واذاعت اسمهُ بين شعوب اسيا كلها . وقد استخرج من اليونانية الى العربية عدة تواريخ لملوك الروم

وعلم الاتراك شرائع اليونان (الاغريق) . وكان يقول دائمًا ان ما املكهُ تحت امر خلاني فكان يقسم عليهم ما عندهُ ويحسن الى من قصدهُ ويشارك اصحابهُ في افراحهم واتراحهم ويوفق بين المتخاصمين ونحو ذلك . فامتلك قلوب الجميع ونفذت كلمتهُ ووقَّرهُ الملك وبطانتهُ واشتهر في تلك الاطراف اشتهار النار على علم . ورزقهُ الله من كاميرة عرسو ابنًا سماهُ سليمان فهذبهُ في العلوم واللغتين العربية واليونانية . فترعرع سليمان وشب وقد احبتهُ الرعية واستولى على كل معاملة وبلدة قدم عليها . ولما راى ابقاع الطليان بالمملكة الرومية (الاغريقية) اغتنم الفرصة ايضًا واضاف الى مملكتهِ جميع البلاد المجاورة ووسع نطاقها بالتدريج . وكان يحب النصارى الذين ينقادون لكلمتهِ ويعاملهم بالرفق والاحسان ويوحنا هذا كان جد ارطغريل بك ابي الامير عثمان الاتي ذكرهُ

هذه هي جملة اراء المورخين في اصل الدولة العثمانية ولا ريب ان لكل منهم ملحوظات تاريخية يسند بها رايهُ ولذلك اخترنا ان نستتبع تاريخ تلك الايام القديمة علنا نلتقط من حوادثها ملخصًا معتمدًا لتوزيع هذه الاراء ونطلع على جراثيم المسالة الشرقية التي نحن في صددها واعلم ان تلك المدة كان فيها من الدول التي تستحق الذكر ما ياتي اولاً الدولة العباسية في بغداد وهي الدولة الاسلامية الاولى وفيها كانت الخلافة العربية . ثم الدولة الغورية التي تسلطت على الدولة الغزنية لآل سبكتكين وامتد ملكها في العجم الى السند والهند . ثم الدولة السلجوقية في الروم وهي فرع الدولة السلجوقية في ايران وكرمان والشام . ثم الدولة الخوارزمية التي قامت على اثار سلاجقة ايران . ثم الدولة الايوبية في مصر والشام . ثم دولة الاتابك زنكي اقسنقر في الموصل ونحوها . ثم الافرنج في بعض اماكن سورية وكان بين هولاء وبين غيرهم من الدول المذكورة عداوة في الدين والدنيا . ثم الدولة الفاليولوغية في القسطنطينية ومتعلقاتها . ثم بينا هذه الدول تتنازع المشرق من الصين الى مرمره ظهر جنكيزخان سلطان التتر ومدَّ فتوحاتهِ بسرعة غريبة وتملك الفرس وبعض الهند والصين وتقدم الى اسيا الصغرى وبحر الخزر والروس ونقوت ذريتهُ وقلبت الدولة العربية وخربت بغداد (سنة ١٢٥٨-٦٥٦) واضعفت او لاشت اكثر الدول المذكورة

ولما كان لكل من هذه الدول دور عظيم في هذه الطراغذية العالمية وقد اضافت كل واحدة اوراقًا عديدة مخضبة بالدماء والدمار الى المسالة الشرقية كان لا بد من تتبع تواريخها باختصار لائق بالمقام مبتدئين من الدولة العباسية

باب وتحته فصول

فصل

في الجاهلية الى الاسلام

يجب قبل الشروع في ذكر الدولة العباسية ان نورد خلاصة اخبار الامة العربية مع المسائل المهمة في تاريخها لاجل تمهيد ما نحن في صدده اذ الدولة العباسية ليست الا حلقة في سلسلة هذه الامة الغريبة التي مع قلة عددها وعدم انتظام قوتها وتباين قبائلها لعبت دورًا اوليًا في دائرة الامم الكبرى وتملكت اكثر المسكونة دينًا ودنيا   فنقول

تنقسم العرب الى بائدة . وباقية . فالبائدة كانت امما ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس من جرهم وعماليق وقد غربت عنا حقائق اخبارهم لوجودهم قبل العهد التاريخي وتقادم انقراضهم . قالوا ان شدادًا من قبيلة عاد هو الذي اختط مدينة عرم العظيمة التي تغزل الشعراء العربيون بذكر محاسنها ونعيم جناتها ويقولون انها لا تزال الى الان محجوبة عن اعين الناس فيما وراء القفار المقفرة

واما العرب الباقية فيقسمها المورخون الى عرب عرباء وعرب مستعربة ـ فالعرباء من قحطان ولعله (يقطان) المذكور في التوراة وكانوا يقطنون جنوبي العربية . اما المستعربة فمن عدنان ولد اسمعيل بن ابرهيم من هاجر وهم سكان الحجاز . فقحطان ولد يعرب ويعرب يشجب ويشجب عبد شمس او عامرًا الملقب بسبا لانه كان يكثر الغزو في اقطار البلاد وهو الذي بنا السد بارض مارب وفجر اليه سبعين نهرًا وساق اليه السيول من امد بعيد وعمل خليجًا تجري فيه المياه الى البحر وبنى مدينة مارب ودعيت مدينة سبا ومن ذلك السد كانت تسقى البساتين والحقول بمجارٍ واقنية مرتبة واصبحت ضواحي مارب كثيرة الخصب   ولسبا ابناء كثيرون منهم حمير وكهلان ولهذين فروع عديدة . ويظهر ان بني حمير ملكوا على قوم سبا مدة (٢٠٢٠ سنة) وكانوا يقيمون باليمن وهم الملوك التبابعة . وحمير كان على قول مورخي العرب اول ملك قحطاني لبس التاج وملك خمسين سنة وهو الذي طرد ثمود من اليمن الى الحجاز وقد اختلفوا في خليفته فقال بعضهم ولده وائل وقال البعض اخوه كهلان ولعل كليهما بان ملك الواحد في اليمن والاخر في حضرموت . وهذه الاختلافات بين المورخين الشرقيين كابي الفدى وابن الاثير وابي عيسى وابن سعد المغربي والنويري والطبري والمسعودي ونحوهم كثيرة في كل انساب ملوك العرب

ومن الملوك التابعين لحمير ذو رياش ثم النعمان بن يعفر الملقب بالمعفر لقوله

اذا انت عافرت الامور بقدرةٍ بلغت معالي الاقدمين المقاولِ

ومنهم شداد بن عاد بن الملطاط بن سبا ولهُ اجتمع الملك وغزا البلاد وبني المدائن والمصانع وابقى الآثار العظيمة . ومنهم حارث الرايش ويعرف باول فاتح في ملوك اليمن واول من لقب بتبع اي خليفة وصار ذلك ارثاً في بنيهِ . ثمَّ ذو القرنين وولده ذو المنار ابرهة واخوهُ ذو الاذعار . وقيل ان ذا المنار وذا الاذعار فتحا بلاداً في السودان وافريقيا . و بعد ذي الاذعار بملك واحد جاءت بلقيس ملكة سبا التي زارت سليمان بن داود كما جاء في ملوك اول وايام ثانٍ وقيل في ام ملوك الحبش من سليمان

و بعد بلقيس بعدة اجيال حدث امرٌ مهم في تاريخ العرب وهو ان اعمال السدّ المذكور كانت قد تعطلت مع الوقت حتى تلاشت وسقطت ونشا عن ذلك ما يدعوه العرب سيل العرم فغير كثيراً في هيئة العربية . وامر هذا السيل من الحوادث النادرة المذكورة في تاريخهم ولا يمكن تحديد مدتهِ الاَّ على سبيل التخمين فزعم المعلم دساسي ان حدوث ذلك كان في مبادىء القرن الثالث للنصرانية قالوا ان عمرو بن عامر الملقب بمزيقيا احد امراء البلاد ولعله رئيس بني كهلان اتاه النبا عن الخراب المزمع فباع ما لهُ وهاجر بعددٍ من احياء اليمن الى بلاد (علك) ما بين زبيد وزمع و بعد موتهِ تفرقت تلك القبائل فذهبت قبيلة جفنة بن عمرو الى بلاد الشام واستوطنت هناك الى الجنوب الشرقي ومنها الملوك الغسانية احدهم الحارث ملك دمشق المذكور في عهد بولس الرسول او هو من عرب سليح الذين كانوا قبل غسان ودان غسان بدين النصارى وصاروا تابعين لمملكة الروم الى ان صار ضمها في عهد عمر الفاروق الى ملك الاسلام واقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم فيما يقال خزاعة واما بنو عوص وخزرج من ثعلبة بن عمرو فذهبوا الى يثرب المدعوة المدينة واقام بعض بني ازد في عمان والبعض في الشام . ونزل مالك بن فهم في العراق واسس مملكة الحيرة التي قام عليها بالتتابع خمسة وعشرون ملكاً في مدة خمسمائة وسبع وتسعين سنة الى ان صارت تابعة للفرس ثمَّ ضمت الى ملك الاسلام . واما قبيلة طيء التى تركت اليمن فانها اقامت بنجد ما بين جبلي اجا وسلمى المعروفين بجبلي طي و يوجد من الارتباك في سلسلة ملوك حمير الذين ملكوا بعد سيل العرم ما يوجد في من حكموا قبله

وكان بئر زمزم والحجر الاسود الموجود في بيت مكة المسمى كعبة محترمين بين العرب من قديم الزمان

اما بنو جرهم الحدثاء الاتون عن جرهم بن قحطان فانهم قطنوا الحجاز مدة اقامة بني يعرب باليمن وكانوا حراس وسدنة البيت مدة اجيال الى ان اغتنم عمرو بن لحي من قبيلة خزاعة فرصة

الخصام بين الجراهمة والاسماعيلية وطرد بمساعدة مهاجري اليمن من (عك) وقبيلة بكر بني جرهم من مكة واستلم سدانة البيت . وقيل ان السدانة كانت في بني اسماعيل الى ان انتهى الامر الى نابت فصارت السدانة بعدهُ لجرهم وعليه قول عامر بن جرهم الحارثي

وكنا ولاة البيت من بعد نابت   نطوف بفناك البيت والامر ظاهرُ

الى قوله

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

بلى نحن كنا اهلها فابادنا   صروف الليالي والجدود العواثرُ

ولما رات قبيلة بكر انه قد اخرجها من حق السدانة غريب اغتاظت وتحالفت مع رجل يدعى قصيا من قريش فاحتال قصي على ابي غبشان من خزاعة واشترى منه المفاتيح بسكرة وزق خمر وعليه قوله

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت   بزق خمر فبئست صفقة البادي

باعت سدانتها بالنذر وانصرفت   عن المقام وظل البيتُ والنادي

ولكن قبيلة بكر لم يتم لها المراد فان قصيا سلم المفاتيح لبني قريش ولعل ذلك كان سنة ٤٦٤

ومن قصي هذا جاء هاشم الذي قيل انه اغاث اهل بلاده في القحط الشهير وتنتذ وقد شاع ذكر ولده عبد المطلب بانتصاره على ابرهة ملك الحبش واليمن المسيحي عند ما وكب بافياله على مكة بقصد تخريب الكعبة قيل انه بمعجزة خاصة تلاشت قوة ابرهة وسلمت الكعبة ويدعى تلك السنة سنة الفيل اشارة الى الفيل الذي كان ابرهة يركبه وقد ابي التقدم عند ما رأى توجه العساكر الى جهة المدينة المقدسة وكان ذلك (سنة ٥٧١) وهي السنة التي ولد فيها محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم نبي الامة العربية

والعرب جميعًا قبل الاسلام يعرفون بعرب الجاهلية وحالتهم مشهورة عند الامم بما لهم من العز والمنعة وكانوا طبقتين اهل مدر واهل وبر فاهل المدر هم الحواضر وسكان القرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والضرب في الارض للتجارة والماشية واما اهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها متجعين منابت الكلا مرتادين مواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يرتحلون في طلب العشب والمياه وكان ذلك دابهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى ارياف العراق واطراف الشام فشتوا هنالك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش

ومما جاء في قصة عنتر وغيرها من الشعراء القدماء عن عوائدهم ومعيشتهم لم يزل تتجهما حقيقيًا

لم في حالتهم الحاضرة كما يذكر السياح الحدثاء ولم يغير بساطة تلك العوائد مرور الزمان بل ان الحذق والنباهة والضيافة والفروسة والفصاحة التي كانت لهم قديمًا ونظم الاشعار والخطابة الى غير ذلك مما يتعلق بلغتهم الواسعة لاتزال لديهم قصارى افتخارهم · واديان العرب كانت مختلفة منها عبادة الكواكب (فحمير) عبدوا الشمس (وكنانة) القمر (وطي) سهيلاً (وقيس) الشعرى العبور (وميسم) الدبران (واسد) عطارد وكان لاهل سبا عاصمة اليمن هيكل للزهرة وكان بيت مكة كما يقال لزحل وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد ان من نحرت ناقتهُ على قبرهِ حشد راكبًا ومن لم تنحر حشد ماشيًا وكان لهم خلا الكواكب اصنام · فاللات كان لثقيف وكان لها هيكل في نخلة هدم في وقعة تبوك في التاسعة من الهجرة · والعزّى لقريش وكنانة وصورتها صورة شجرة · واساف ونائلة بصورتي رجل وامراة وخمسة اخرى بصورة حيوانات وبشر لقريش ايضًا · ومناة لهذيل وخزاعة ما عدا الالهة الصغار المختصة بالاحيا ثم دخلت عبادة النار بين تميم في خليج العجم · وبعد خراب اورشليم قصد اليهود العربية بكثرة وتشيع لهم عدة قبائل لاسيما كنانة وكندة وصار لهم سلطة قوية في شبه الجزيرة وفي نحو الجيل الخامس دان ذو نواس ملك اليمن من حمير باليهودية فكان يهوديًا غيورًا يضطهد كل من لا يتهود وكانت النصرانية ايضًا قد انتشرت في العربية ودان بها قبائل حمير وغسان وربيعة وتغلب وتنوخ وطي وقضاعة والحيرة ونجران وانتصر لهم ملك الحبش عند ما اضطهدهم ذونواس وركب عليهِ وفتح اليمن والقى ذا نواس في البحر

والعرب كلهم كانوا يعتقدون بالجن ذكورًا واناثًا وقالوا في البخت واشتغلوا بالتنجيم والسحر وتاويل الاحلام · هذه كانت حال العرب في اوائل القرن السابع

وكانت بعض الجهات الجنوبية في جوار الشام وفلسطين ومصر قد خضعت للروم · والتي في حدود الفرات للفرس وكان الحبش متولين على بعض الجنوب على ان اكثر العربية كانت حرة ومجهولة لدى الاجانب الاَّ ان تلك القبائل لم تكن الى ذلك الوقت مع كل شجاعتها قد اتحدت تحت لواء واحد بل كانت اسباطها التائهة منقطعي العلاقات متفرقين في كل ناد يغزون بعضهم بعضًا ولم يبتدىء اجتماعهم كافة ولا انتظمت تلك الامة كحلقة في سلسلة الحوادث التاريخية الاَّ بعد انذار ابي القاسم محمد بن عبدالله الهاشمي بالاسلام فان ما كان يتوقد في صدر النبي وخلفائهِ من الالهام والايمان الوطيد في حقيقة الدين الجديد والجراءة العربية وميل العرب الطبيعي الى القتال وركوب الاخطار ومبادىء القرآن المقررة وجوب نشر الاسلام والجهاد ضد غير المومنين وانحطاط الممالك المجاورة الى غير ذلك هو الذي مدَّ في اقل من جيل واحد سلطة العرب وايمانهم ولغتهم من المحيط الاتلنتيكي الى السند ومن البحر الهندي وقفار افريقية الى فرنسا وبحر الروم واسيا الصغرى وبحر الخزر

ومحمد ولد في مكة لعشرٍ خلونَ من شهر تشرين الثاني (سنة ٥٧١) ولما ناهز العشرين من عمره ذهب مع رفقائه ضد لصوص العرب الذين كانوا يوقعون بالحجاج القادمين لزيارة البيت و بعد ذلك بخمس سنين ذهب الى دمشق في خدمة احدى الارامل الغنيات المدعوة خديجة التي تزوجها بعدهُ . وفي سنة الاربعين من عمرهِ (عام ٦١٠) في ليلة القدر وهي ليلة الدعوة الالهية كما يعتقد المسلمون راى محمد في نومهِ الملك جبريل يدعوهُ الى الرسالة فقص هذا الحلم على خديجة زوجتهِ وعلى ورقة ابن عمهِ وابي بكر حميهِ فامنوا بكلامهِ و بعد ذلك بثنتي عشرة سنة ثار المكيون ضدهُ وعادت حياتهُ في خطر فهاجرها الى يثرب وصار ١٦ تموز (سنة ٦٢٢) وهي السنة الثانية والخمسون من عمرهِ تاريخًا للهجرة . وفي السنة نفسها حدث خلاف عظيم انتهى الى قتال على الدين الجديد وانجلى بالانتصار على مكة ومعرفة بعض القبائل له مؤمنين بان لا اله الا الله وبان محمدًا نبيهُ ورسولهُ ثم اعلن محمد لزوم نشر الاسلام في كل مكان وجمع المذاهب المتفرقة الى واحد في العالم كلهِ وتوفي في المدينة ثامن حزيران (سنة ٦٣٢) وعمرهُ ثلث وستون سنة

وكانت المملكة البظنطية قد فتحت حربًا وقتئذٍ على الفرس وكان استبداد حكامها والثورات العديدة والحروب الدائمة لردع اعداء المملكة وفروغ الخزينة من النقود وكثرة المظالم واختلاف الاراء الدينية وما شاكل ذلك قد اضعفت قوتها . وكانت المملكة الفارسية قد سقطت تحت ذلك ولم تكن تعاليم زرادشت القديمة ذات فعلٍ كالعادة فلم يكن تباعهُ يبالون بظهور دين وامةٍ جديدين فهذه الحالة الردية في المملكتين ساعدت على سرعة امتداد الفتوحات العربية وكان من اسلم يحسب من الامة وقد اذن للنصارى واليهود فقط بالبقاء على دينهم بشرط دفع الخراج واما من دان بغير اديان فلم يكن له غير الاسلام او الموت وعادت الامامة الكبرى والامارة العليا متحدتين في شخص واحد يدعى خليفة

فصل

في السياسة الاسلامية الاولى

يراد بالسياسة استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق المنجي ويمكن قسمتها الى ثلثة اقسام . الهية وهي سياسة الخالق لمخلوقاتهِ اجمالاً . ودينية وهي ما استعملها الانبياء والشارعون في سياسة شرائعهم . ودنيوية وهي ما استخدمها الفاتحون والمتسلطون في تدبير فتوحاتهم وممالكهم . فالمسيح قبل الرسول العربي بخمسمائة وسبعين سنة جعل سياسته الرفق وسلحها بالبرهان فارسل حواريهُ واوصاهم بان لا يقاوموا الشر وبان يحبوا اعداهم قائلاً „ اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن „ الا انهُ لما كان لا بد من موازرة القوة للسياسة في كل شيء

لم تكن رسالتهُ لتنتهي بسلام وقد تنبا هو نفسهُ عنها اذ قال « لا تظنوا اني جئت لالقي سلامًا على الارض ما جئت لالقي سلامًا بل سيفًا »

اما محمد فقدجعل سياستهُ الاولى السلام وبعد ان جمع (سنة ٦١٥) للميلاد اربعين نفرًا من اعيان بني قريش وعرض عليهم ما في نفسهِ قائلاً « ما اعلم انسانًا في العرب جاء قومهُ بافضل مما جئتكم بهِ بخير الدنيا والاخرة وقد امرني الله تعالى ان ادعوكم اليهِ فايكم يوازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصي وخليفتي » وبعد ان وعظ وجاهد ولم يحصل على [illegible] - التزم اخيرًا بالفرار الى يثرب من وجه اعدائهِ قال لاصحابهِ حينئذٍ « ان كل وسائل الاقناع [illegible] استعملتها وقد فات وقت الصبر فانا مامور ان الاشي الاصنام وانشر شريعة الله ولو بالسيف » ومن ذلك الوقت جعل سياستهُ مسلحة بالقوة فارسل عبيدة في مطاردة بني قريش وارسل حمزة ضد ابي سفيان وباشر بنفسهِ عدة غزوات كغزوة الابواء . ثم غزوة بواط . ثم العشيرة . ثم بدر الاولى . ثم غزوة بدر العظمى . وغزوة الكدر . وغزوة السويق . وغزوة بني قينقاع . وغزوة حمراء الاسد . وغزوة احد . وغزوة بئر معونة . وغزوة بني النضير . وغزوة ذات الرقاع . وغزوة بدر الموعد . وغزوة دومة الجندل . وغزوة الخندق . وغزوة بني قريظه . وغزوة بني المصطلق . وغزوة الغابة . وغزوة خيبر . وغزوة جيش الامراء . وغزوة حنين . واخيرًا غزوة تبوك في التاسعة من الهجرة وكان قد اخذ مكة وكتب الى هرقل ملك الروم وكسرى ملك العجم والناخوش ملك الحبشة والمقوقس حاكم مصر كما ياتي

الى قيصر ملك الروم

بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله الى قيصر ملك الروم

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسولهِ ويشهد ان لا اله الاَّ الله وحدهُ لا شريك لهُ لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا وان محمدًا عبدهُ ورسولهُ وادعوك بدعاء الله فاسلم تسلم فاني رسول الله على الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك بهِ شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهد بانا مسلمون فان ابيت فعليك اثم الكافرين

والى كسرى ملك العجم — بعد البسملة

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسولهِ وشهد ان لا اله الا الله وحدهُ لا شريك لهُ وان محمدًا عبدهُ ورسولهُ ادعوك فاني رسول الله للناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين اسلم تسلم وان توليت فعليك اثم المجوس

والى النجاشي ملك الحبشة   بعد البسملة

من محمد رسول الله الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة

سلام عليك فاني أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه واني ادعوك الى الله وحدهُ لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعني وتومن بي وبالذي جاءني فاني رسول الله وقد بعثت اليكم ابن عمي جعفرًا ومعهُ نفر من المسلمين فاذا جاؤوك فاقرهم ودع التجبر واني ادعوك وجنودك الى الله فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى

والى المقوقس عظيم القبط   بعد البسملة

من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يوتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون

وبعث سليط بن عمر الى هوذه بن علي صاحب اليمامة وبعث العلاء ابن الحضرمي الى المنذر بن ساوي صاحب البحرين وبعث عمرو بن العاص الى جيفر صاحب عمان وبعث الشجاع بن وهب الى الحارث بن شمرّ الغساني صاحب دمشق وكتب معهُ « السلام على من اتبع الهدى وآمن به ادعوك الى ان تومن بالله وحدهُ لا شريك له يبقى لك ملكك » . فملك العجم تعجب من هذا الخطاب وثق الكتاب وطرد الرسول قائلاً كيف يجترىء عبد ان يخاطب سيده هكذا . والملوك الاخرون منهم من اجاب بالرفق ومنهم من لم يجب . واما العرب فاكثرهم اطاع ومن لم يطع منهم ركب عليهم خالد بن الوليد وطيعهم وكان من نية الرسول ان يركب على الشام فاتته المنية قبل ذلك وكان قد كتب كتابًا يأمن به النصارى الى المسلمين جاعلاً سياسته الرفق وهو

بسم الله الرحمن الرحيم   هذا كتابٌ كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين رسولهُ مبشرًا ونذيرًا ومؤتمنًا علي وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيما . كتبه لاهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها جعل لهم عهدًا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما امرهُ كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا وللعنته مستوجبًا سلطانًا كان ام غيرهُ من المسلمين

وان احتمى راهب او سائح في جبل او وادٍ او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيعة فانا اكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسي واعواني واهلي وملتي واتباعي لانهم رعيتي واهل ذمتي وانا اعزل عنهم الاذى في المؤن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الاَّ ما طابت له نفوسهم وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك · ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم فمن فعل شيئًا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة وانا احفظ ذمتهم اينما كانوا من برّ او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة ولا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ولا يعاونون عند ادراك الغلة ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية · ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهما بالجملة في كل عام ولا يكلف احدٌ منهم شططًا ولا يجادلون الاَّ بالتي هي احسن ويحفظونهم تحت جناح الرحمة يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا حيثما حلوا

وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها وتمكينها من الصلاة في بيعها ولا يحال بينها وبين هوى دينها ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ويعاونوا على مرمة بيعهم ومواضعهم وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذموا عنهم ولا يخالف هذا العهد ابدًا الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا انتهى
(مراسلات افريدون بك)

وكان قد امر اصحابه والمومنين « ان انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله اذ قد زويت لي الارض فرايت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوي لي منها »

هذه كانت سياسة الرسول التي قررها اخيرًا في نشر شريعته وعليها جرى خلفاؤه من بعده فابو بكر في مبتدا خلافته عند ما اراد بعوث الشام ونحوها كان يوصي كل من عقد له راية من اولئك الامراء بالرفق والمعاملة الجيدة ومن جملة وصاياهُ قوله « اوصيكم بعشر فاحفظوها ولا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المراة ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوهُ ولا تقطعوا شجرًا ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا الاَّ للاكل واذا مررتم بقوم فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا انفسهم له · واذا لقيتم اقوامًا فحصوا اواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصاب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه »

وخيارة الواقدي ». وستمرون على قوم في الصوامع رهبان يزعمون انهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قومًا اخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا اوساط رؤوسهم حتى كانها افاحيص القطا فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام او يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون»

وعمر الفاروق لما قام من المدينة الى بيت المقدس مرّ بطريقهِ على حي من بني مرة فاذا بقومٍ منهم يعذبون في الشمس . فقال لهم عمر ما بال هولاء يعذبون . فقيل عليهم خراج . قال فما يقولون قالوا يقولون ما نجد ما نؤدي . فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله (صلعم) يقول « لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة » وعند وصول عمر الى القدس جلس في خيمتهِ وكتب شروط الصلح التي مفادها ان السكان احرار في مالهم ودينهم وان الملك للمسلمين . ثم دخل المدينة وكلم البطريرك صفرونيوس بكل بشاشة ولين جانب وزار القيامة وجلس على الارض ولم يقبل ما قربوا اليهِ من البسط ثم تنحى الى بعيد وصلى وبعد ان اكمل صلاتهُ قال للبطريرك « لم ارد الصلوة داخلاً لاني لو صليت هناك لاخذ المسلمون يومًا الكنيسة وان تكن الشروط بالخلاف بحجة ان عمر صلى فيها مرة وهذا مخالف لمرادي وانتظارك »

فصل

في حوادث الربع الاول من القرن الاول

سبق ان الرسول دعا اعيان بني قريش وعرض عليهم ما في نيتهِ وطلب الموازرة منهم على ان من يجيبهُ الى ذلك يكون اخاهُ ووصيهُ وخليفتهُ ولما لم يلبِّ دعوتهُ وقتئذٍ الاَّ علي ابن عمهِ وهو الذي يقول سبقتكم الى الاسلام طرًّا غلامًا ما بلغت اوان حلمي

فكان من المسلم بهِ طبعًا ان ينتظر عليٌّ الخلافة الا ان الاختلاف بين الصحابة والانصار والامة انجلى اخيرًا عن اقامة ابي بكر خليفة في السنة الحادية عشرة من الهجرة (سنة ٦٣٢) وبايعتهُ مكة وكبار الامة الاَّ بنو هاشم واستبد عليٌّ بالامر في بيتهِ ستة اشهر واشهد على عدم قبولهِ لهُ وقد قال عتبة بن ابي لهب

ما كنت احسب ان الامر منصرف عن هاشمٍ ثم منهم عن ابي حسنِ
عن اول الناس ايمانًا وسابقةً واعلم الناس بالقرآن والسننِ
وآخر الناس عهدًا بالنبي ومن جبريل عون لهُ في الغسل والكفنِ
من فيهِ ما فيهم لا يمترون بهِ وليس في القوم ما فيهِ من الحسنِ

ثم وقع الوفاق وبايع عليٌّ ابا بكر واخذ المسلمون يمتدون في العراق والشام . وكان في اليمامة

ما بين الحجاز وخليج العجم رجل يدعى مسيلمة قد ادعى النبوة ومال اليهِ بنو حنيفة وقد كان عرض مسيلمة على الرسول قسمة الارض بينهما والرسول اجابهُ هزوءًا · فجهز ابو بكر عليهِ اربعين الفًا من العرب وولى امرهم لخالد بن الوليد فحاربهُ وقتلهُ وقتل عشرين الفًا من اتباعهِ وتفرق الباقي · ثم تقدم خالد المدعو سيف الله وهول الكفار الى سواحل الفرات وقلب تخت ملوك الحيرة الذين كانوا من ستة اجيال يحكمون بالتابعية لملوك الفرس وقتل ملكهم واسر والدهُ وارسلهُ الى المدينة والقى عليهم جزية كل سنة سبعين الف دينار ومن هنالك امر بالذهاب الى الشام · وبعد ان القى ابو بكر السلام بين العرب انتدبهم اليهِ فاجتمعوا في جوار المدينة واجمع رايهم على ارسال عسكر لفتح الشام وقلد ابو بكر امرهم الى ابي عبيدة · وكان خالد في طريقهِ قد فتح عدة اماكن وحارب الروم وتملك البصرة ونهض قاصدًا دمشق فالتقى بسبعين الفًا من عساكر الروم ولم يكن بقي معهُ الا عشرون الفًا فالتزم بالرجوع الى اجنادين ثم تقدم امام قومهِ قائلاً « ان الرسول لم يدعني سيف الله عبثًا فمن منكم يخشى ان يحارب اعداء الله والرسول » فتشجع القوم بكلامهِ وصدموا عساكر الروم وبعد قتال شديد انهزم الروم وقيل انهُ قتل منهم يومئذٍ اربعون الفًا وغنم منهم المسلمون اموالاً كثيرة واخذوا اركه وحوران وثنية العقاب ودير خالد وتدمر والسخنة · وتقدمت عساكر خالد الى دمشق والقى عليها الحصار وكانت قد وصلت عساكر الحجاز مع ابي عبيدة · ولما راى الروم عدم امكانهم عقدوا صلحًا مع ابي عبيدة على ان من يريد الاقامة بالشام يدفع الخراج ومن لا يريد يرحل بمالهِ وعيالهِ · واتفق ان في وقت دخول ابي عبيدة بالامان من الجهة الواحدة دخل خالد من جهة اخرى والسيف في يدهِ صارخًا لا محل ولا امان لاعداء الله وامر اصحابهُ بالقتل حتى جرى الدم في اسواق المدينة واخيرًا التقى ابو عبيدة وامامهُ اعيان البلدة والقسان وهم في امانهِ بخالد وجماعتهِ يقتلون عن عرض فصرخ ابو عبيدة بخالد ان اغمد السيف لانهُ كان قد اعطى الامان · فابى خالد وانكر ذلك الامان قائلاً اني دخلتها بالسيف وبعد المجادلات مرة والتهددات والتوسلات اخرى الى غير ذلك توقف خالد عن القتل وعند دخول الاسلام الى دمشق نزح كثير من الاهالي رجالٌ ونساءٌ واولادٌ وكهنة باموالهم صحبة البطريق توما وكان ذلك ضد ارادة خالد الذي نبههم بان لا امان عليهم منهُ بعد ان يكون مضى على ذهابهم ثلثة ايام · وقد اجرى ذلك بالفعل فان شابًا شاميًا اسمهُ يونس من اعيان دمشق كان يحب بنتًا اسمها يودوصيه هرب بحبيبتهِ ليلاً لتاخير اهلها الزفاف للحوادث الكائنة وخرج بها من باب المدينة فالتقيا ببعض عساكر خالد فاخذ يونس وفرّت يودوصيه وجيء بهِ الى خالد وهدد بالموت فاسلم وكان ذلك قبل فتح البلد · فبعد فتحها دخلت يودوصيه الدير فذهب يونس اليها فازدرت بهِ ولم تلتفت اليهِ لانهُ كان قد اسلم وذهبت مع الذين تركوا المدينة

اما يونس فاخذ يحسن لخالد و يحرضهُ على اتباع القوم رجاء ان يجد حبيبتهُ فاجابهُ خالد الى طلبهِ واخذ معهُ خيل الزحف وسار وبعد سير طويل ومشقات كثيرة لحقوا عن بعدٍ في احدى الوديان خيام الروم فقسم خالد عسكرهُ اربعة اقسام وضربهم من اربعة جوانب واعمل السيف فيهم فقتل أكثرهم وتشتت الباقي ولكن يونس لم يستفد شيئًا لان يودوصيه عند ما نظرتهُ اخذت خنجرًا وطعنت بهِ نفسها قدامهُ وماتت

وفي اليوم الذي اخذت فيهِ الشام وهو الخامس والعشرون من آب (سنة ٦٣٤ــ ١٣) توفي ابو بكر وكان عمرهُ ثلاثًا وستين سنة وكان رجلاً تقيًا · وبعد موتهِ اخذت البيعة لعمر بن الخطاب ودعي امير المومنين فرارًا من قولهم خليفة خليفة النبي وهو الذي امر فاقيمت قبة على قبر النبي ثم جدد الحرب على الفرس وكان فرخزاد خسرو قد قتل · وانتقل الملك الى يزدجرد بن شهريار بن برويز بن هرمز بن انوشروان كسرى ولهُ من العمر خمس عشرة سنة وكان يزدجرد قد خلع نفسهُ لرستم فركب سعد من طرف عمر امير المومنين وصحبتهُ ثلاثون الفًا وحل بسهول القادسية واقتتل مع العجم قتالاً شديدًا ودعي اليوم الاول يوم الاغواث · لذهاب الف من الشام لنجدتهم · واليوم الثاني يوم غماس · والثالث ليلة الهرير لوقوع الحرب ليلاً وكانت اصوات الفرسان كهرير الوحوش الضارية وفي الصباح صدم المسلمون عساكر رستم وكانت الريح شديدة فغشي الغبار على اعين الفرس وانتصر المسلمون وقبضوا على رستم وقطعوا راسهُ ودعي ذلك اليوم يوم الانقراض · ومات من العجم نحو اربعين الفًا ومن العرب ثمانية الاف وجرح مثلهم · وبعد حرب القادسية صارت العراق كلها اي ارض الاشوريين في يد العرب واقاموا هنالك مدينة البصرة عند ملتقى النهرين · وادرك بعض المسلمين بغلاً وقع في الماء وعليهِ تاج كسرى والمنطقة والدرع وغير ذلك مكللاً بالجوهر · وكان لكسرى بساط طولهُ ستون ذراعًا وكذا عرضهُ وكان على هيئة روضة رسمت عليهِ الزهور بالجوهر على قضبان من الذهب فاستوهب سعد ما يخص اصحابهُ منهُ وبعث بهِ الى عمر فقطعهُ عمر ووهبهُ للمسلمين فاصاب علي بن ابي طالب قطعة فباعها بعشرين الف درهم · ثم قطع سعد الفرات وتملك المدائن وارسل جيشًا الى جلولا وكان يزدجرد بجلولان فسار عنها واخذها المسلمون وبقي تائهًا الى ان قتلهُ بعض اصحابهِ وانتهت بهِ عائلتهُ (سنة ٦٥٢ــ ٣٢) وفتح المسلمون تكريت والموصل ثم ماسندن وقرقيسيا ثم دخلت السنة (١٧) وفيها خطت الكوفة وفتح المسلمون الاهواز ورام هرمس وتستر وحاصروا الهرمسان

وفي المدائن عاصمة الاكاسرة وجدت الخزائن والتحف وغنم العرب ما لا يحصى من الخيرات قال ابن خلدون « وكان في بيت المال ثلاثة الاف الف الف الف مكررة ثلاث مرات تكون جملتها ثلاثة الاف قنطار من الدنانير »

وبعد خراب ملك العجم عاد الفاصل بين العرب والاتراك نهر جيحون. فقطع العرب النهر وفتحوا ما وراءهُ وقصد بعض قوادهم الهند واخضعوا سواحلها وكان عقبة بن غزوان يحارب. تلك الاماكن الكائنة بين جيحون وخط العرب عند ملتقى الفراتين ودخلت بخارى وسمرقند ونحوها في دين الاسلام وخضعت لامير المومنين

وكانت عساكر المسلمين تنتصر بالشام على تلك الجنود المدعوة شامية لبلادهم ويونانية لدينهم ورومية لملكهم لان ملوك القسطنطينية ابقوا هذه التسمية اشارة الى اصلهم الروماني ... وبعد ان اخذ المسلمون دمشق ركبوا على اليوبولس عاصمة بعلبك وعلى حمص عاصمة البلاد التي بين حلب ودمشق وفتحوا حمص وشيزر واللاذقية وجبلة وانطرطوس(سنة ٦٣٦ـ١٥) واذ كانوا تحت اسوار حمص سمع ابن عم خالد ينادي قائلاً « اني ارى الحور ينظرن اليّ ولو ظهرت منهن واحدة لاخذت بعقول العالمين . هذا ارى احداهن وفي يدها منديل من حرير اخضر وتاج من حجار كريمة تشير اليّ وتدعوني » وبعد ان قال ذلك رمى بنفسهِ في وسط الاعداء وقاتل حتى قتل

وكان لما راى هرقل ملك الروم تقدم العرب افاق من غفلتهِ وسير ثمانين الفًا الى انطاكية وقيسارية وامدوا بار بعين الفًا من عرب غسان النصارى ونهض جم غفير من اهل الشام للمدافعة عن الدين والملك فابو عبيدة ارتاى لزوم مكانهِ والدفاع واما خالد فاقنعهُ بالتقهقر قليلاً الى جهة فلسطين قرب العربية وانتظار الاسعاف من طرف امير المومنين . فقامت عساكر المسلمين الى اليرموك ونزلوا عند بحيرة طبرية وهناك اتاهم ثمانية الاف من قبل عمر وفيهِ حصل بينهم وبين عساكر الروم موقعة عظيمة وكان ابو عبيدة في موخرة العسكر وخالد في مقدمتهم وكان كثير من النساء ممن رافقن النبي في غزواتهِ حاضرات يحاربن وكن يحسن ملاعبة الاسنة ورشق السهام وكان خطاب القائدين الاسلاميين قاطعًا « الفردوس امامكم والشيطان ونار جهنم وراءكم » وحارب المسلمون في ذلك اليوم كالاسود حتى ان ابنة عتبة لما رات ابا سفيان يرتجع بنفره انتزعت عمودًا وضربت بهِ راس جواده فارتد الى الامام. قالوا وقتل من الروم واسر في ذلك اليوم نحو مائة الف ومن المسلمين نحو ثلثين الفًا وقتل القائد عما نوئيل وانهزم جبلة امير بني غسان وذلك (سنة ٦٣٦ـ١٥) في اواخر تشرين الاول ومنهم من جعل هذه الموقعة قبل ذلك

وبعد هذه الموقعة يئس الروم من استرجاع سورية وامر عمر بان تتقدم العساكر الى بيت المقدس فذهبوا وحاصروها اربعة اشهر وبعدها طلب البطريرك صفرونيوس من جهة القائد من عن السور ولما حضر قال لهُ « الا تعلمون ان من يقدم الى الارض المقدسة بنية الحرب يحل عليهِ غضب الله » فاجابهُ ابو عبيدة « نحن نعلم ان القدس مدينة شريفة ولذا اتينا لاخضاعها لانها احق بها

من النصارى لانها مولد الانبياء ومدفنهم ومحل هيكل الله ومنها ارتفع نبينا الى السماء ليلاً وحظي بالدنو منهُ تعالى ولذلك امرنا الخليفة بان نفتحها . فلما سمع البطريرك تسدد الجواب عقد معهُ شروط المهادنة وطلب حضور عمر نفسهِ لتوقيعها فالخليفة بعد ان اخذ راي مجلس المدينة حضر راكبًا على بعير احمر بسذاجة وتواضع لم يسبق اليها وكان كلما جلس للطعام دعا الخدام لياكلوا معهُ وقال لهُ بعض جلسائهِ ان بساطة ثوبهِ لا تناسب علو مقامهِ ومقام الامة التي هو اميرها فاجاب « ان الاسلام الذي نحن ذاهبون لنعرضهُ على الامم الغريبة هو اجمل ثوب واعظم زينة واشرف حلي واتم سعادة لمن لهُ فيهِ نصيب » ولما نظر اورشليم عن بعد كبر بصوت عال وقال « الحمد لله اللهمَّ يسر لنا هذا النصر » وبعد وصولهِ جلس في خيمتهِ وكتب شروط الصلح . ومفادها ان الاهالي احرار في مالهم ودينهم وان الحكم والاراضي المتاخمة للمسلمين . ثم دخل المدينة وتكلم مع البطريرك واستخبرهُ عما عندهُ من قديم وزار القيامة ولما وصل اليها جلس على الارض ولم يرغب ان يجلس على البساط الذي وضع لهُ قائلاً للبطريرك « ان هذا القليل من الارض الذي اعده الله للانسان ليجلس عليهِ انما هو اجمل بساط واغناه » وفي العشرة الايام التي اقامها هناك القى اساس جامع على اثار هيكل سليمان واكملهُ خلفاؤهُ ثم رتب العساكر وسافر الى المدينة لان غيابهُ كان قد ارعج افكار اهلها مخافة ان يمنعهُ عن الرجوع اليهم قداسة اورشليم او محاسن دمشق ونعيمها

ثم انقسمت عساكر العرب الى قسمين فالواحد بقي في فلسطين صحبة عمرو ويزيد . والاخر وهو الاكبر ذهب الى انطاكية وحلب صحبة ابي عبيدة وخالد . وبوصولهم الى حلب عرضوا على اميرها والاهالي الصلح بان يكونوا احرارًا في مالهم ودينهم فلم يقبلوا فالقوا عليها الحصار . وكان فيها البطريق يوحنا (او يوقنا) وهو رجل ذو بأس واقدام ومقام عالٍ في الدولة الرومية وقد قتل اخاه يوحنا الراهب لاشارتهِ بالصلح وبعد حصار نحو خمسة اشهر اخذوا المدينة دون القلعة فلم ينل العرب من ذلك خيرًا وقد تحملوا اهوالاً لا تحد ولا تقدر وفكر ابو عبيدة بتركها وكتب بذلك الى عمر . وكان قد حضر ركب من حضرموت واقاصي اليمن من همدان ومدان وسبا ومارب الى عمر يسالونهُ انفاذهم الى الشام فقال لهم عمر « كم انتم بارك الله فيكم » قالوا نحن زهاء اربعمائة فارس وثلاثمائة مطية مردفين ومعنا اناس يمشون على اقدامهم لا ركاب لهم فان كان عند امير المومنين ما يحملهم عليهِ حتى نصل الى عدونا » وكان الرجالة المذكورون اربعين ومائة رجل فامر عمر فاتوهم بسبعين راحلة وساروا وكتب عمر الى ابي عبيدة هكذا « اما بعد فقد ورد عليَّ كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على اعدائكم ومن قتل من الشهداء واما ما ذكرتهُ من انصرافك الى البلاد التي بين حلب وانطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا راي غير صواب . تترك رجلاً قد دنوت من

دياره وملكت مدينته ثم ترحل فيبلغ ذلك الى جميع النواحي انك لم تقدر عليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترئ عليك اجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع اليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في امرك فاياك ان تبرح من مجاهدته حتى يقتله الله او يسلم اليك ان شاء الله تعالى او يحكم الله وهو خير الحاكمين . وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة واكناف الجبال والاودية وبين المغارات الى حدود الغارات ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين وقد انفذت كتابي اليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم واهل مشائخ اليمن ممن وهب نفسه لله تع ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموالٍ وفرسان ورجال والمدد ياتيك متواترًا انشاء الله تع والسلام «وختم الكتاب وسلمه لعبد الله بن قرط واخذوا جميعًا يجدون في السير وكان ابن قرط يحدثهم عما تحمل الاسلام في حرب يوقنا وعن بسالته وقوته الى غير ذلك . وكان ممن يسمع كلامه هذا مولى من موالي بني ظريف من ملوك كندة يقال له دامس ابو الاهوال وكان شديد السواد فارسًا شجاعًا قويًا له ذكر عظيم في بلاد كندة واودية حضرموت وجبال مهرة وارض الشحرة وقد اخاف البادية ونهب اموال الحاضرة وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة واذا امتطى الفرس العالي تخط رجلاه بالارض . فلما سمع دامس بذكر يوقنا وما فعل بالعرب كاد يتميز غيظًا وحنقًا . وقال لعبد الله ابشر يا اخا العرب فاني ساجعله عبرة لمن اعتبر ولما وصلوا الى حلب وراى دامس ما راى من الروم تحرك بالنخوة العربية واخذ يطاردهم وحده ومرفوقًا وكان دائمًا يردد

انا ابو الهول واسمي دامس اكر في جمعهم مداعس

ثم لما طال الامر ولم يقدر العرب على شيء وقد خاب دامس في كثير من حيله واقدامه طلب ان يعطى له ثلثون رجلاً يسمعون كلامه في كل ما يامر وهو يصدم القلعة فوافقه خالد واوصى ابو عبيدة الرجال بان لا يزدروا به وانه لو كان ممكنًا له لترك الامور العامة ورافقه بنفسه . وكان الراي ان يظهر المسلمون تخبيهم ودامس مع اصحابه يختفون في جوانب القلعة الى الليل ويدبرون امرهم . فتخفى المسلمون . ولما اقبل الليل ذهب دامس واصحابه الى القلعة وهناك طلب اليهم ان يصعدوا على ظهره فوق بعضهم بعضًا ويتسلقوا السور فصعد سبعة منهم الواحد على الاخر الى ان وصل الاخير الى فوق فخرج وتبعه غيره وقتلوا الحرس . ثم رفعوا الباقين منهم بعمائمهم وذهب دامس ليحمي الجسر الممكن رفعه الذي يؤتى به الى القلعة الى ان يكون وصل خالد بالعساكر . وفي الصباح حضر خالد وخلصه من ضيقه واكمل الفوز واسلم يوقنا بعد كل تلك العداوة قبل الجميع وكانوا قد فتحوا منبج ودلوك وسرمين وتنزين وعزاز ومرعش وقنسرين كرسي المملكة المنسوبة الى حلب . ثم ركبوا على انطاكية وقطعوا

الجسر الحديدي على العاصي بدون مقاومة من حامية القلعتين اللتين على جانبيهِ واقتتلوا مع عساكر انطاكية الخارجة لملاقاتهم وهزموهم (في ١٩ اب سنة ٦٣٨ - ١٨) ثم سلمت انطاكية دون قتال وعقدوا فيما بينهم وبينها شروط الصلح على نحو شروط بيت المقدس وكانت قيمة ما صالحت عليهِ انطاكية ثلثمائة الف مثقال من الذهب وكان يوقنا صاحب حلب اقوى المساعدين للمسلمين للاستيلاء عليها واضحت انطاكية احدى ولايات الاسلام من الصف الثاني بعد ان كانت تحت خلفاء الاسكندر والملك الروماني في المشرق وكانت تدعى المدينة الحرة المقدسة وسكانها داخل الاسوار سبعمائة الف

ولما راى هرقل الملك كل ذلك البطش والباس فكر ان العرب لا ينغلبون وترك سورية عن فكرهِ وكان ابنهُ قسطنطين ومعهُ اربعون الفًا في قيسارية ام ولايات فلسطين الثلاث ففر منها الى القسطنطينية واما العرب فبعد ان تملكوا لبنان تسلموا طرابلس وصور بسهولة ووجدوا في مرساها خمسين سفينة وكثيرًا من الذخائر . ثم سلمت قيسارية وحينئذٍ سلم ما بقي دون مقاومة وصارت الرملة وبطوليمة اي عكا ونابلوس اي شخيم وغزة وعسقلون وصيدا وبيروت وجبيل وفاميه وسرابولس ونحوها في يد المسلمين . وخضعت سورية كلها لامر الخليفة بعد ان كان قد اخذها بومبيوس الروماني من السلوقيين قبل ذلك بسبعة اجيال

ومن تامل فتح المسلمين بلاد الشام في ست سنوات اخذهُ العجب في ذلك غير ان المسلمين كانوا يحاربون لنوال الشهادة والذهاب الى الجنة اكثر من حطام الدنيا فلم يكونوا يخافون الموت ولا العدو . ونقلوا ان بعض الشبان قال لوالدتهِ واختهِ عند ما ودعها ذاهبًا الى الجهاد « اني لم اهب نفسي لله طمعًا في التمتعات الشامية ولذات الدنيا الفانية ولكن لاكتساب رضى الله ورسولهِ فاني سمعت احد اصحاب النبي يقول ان انفس الشهدا تذهب الى حوصلات الطيور الخضر التي تغتذي بثمار الجنة وتشرب من انهارها العذبة . استودعكما الله سنلتقي في الجنة عند الينابيع التي اعدها الله لمختاريهِ » هذه كانت صفات تلك الامة في جهادها

بشبان يرون القتل مجدًا وشيب في الحروب مجربينا

ثم لاعتقاد ابي عبيدة ان ليس الا النفر والتعب يحفظان المسلمين في جراءتهم ودينهم منع عنهم الارتياح الى الحيوة الرافهة والتمتعات الانطاكية ونحاهم عنها . واما عمر فمع قساوة مباديهِ كتب الى ابي عبيدة بعد ان مدح غيرتهُ ما ياتي « من عبدالله عمر الى عاملهِ بالشام ابي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيهِ واشكرهُ على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفًا معينًا . واما قولك لم تقم بانطاكية لطيبها فان الله

عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال « يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » وقال « يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله » (الآية) فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون ابدانهم من نصب القتال ممن كفر بالله وأما قولك انك منتظر امري فالذي آمرك به ان تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وانا الغائب وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وانت بحضرة عدوك وعيونك تاتيك بالاخبار . فان رايت ان دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث بهم بالسرايا وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك . ومن طلب منك الصلح فصالح ووف لهم بما تقدر . واما قولك ان العرب ابصرت نساء الروم فرغبت في التزوج فمن احب ذلك فدعه ان لم يكن له اهل بالحجاز ومن اراد ان يشتري الاماء فدعه فان ذلك اصون لفروجهم واغنى لنفوسهم وما يحتاج ان اوصيك في امر فلطانوس صاحب رومية اوسع عليه في النفقة وعلى من معه فانه قد فارق اهله وملكه وامره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين »

ثم حدث طاعون عمواس فمات من العرب خمسة وعشرون الفاً ومات ابو عبيدة (سنة ١٨ه) من الهجرة . وكان خالد قد ركب على منبج وبراعة وباليس واتي برجالهم واموالهم ومثله قلعة نجم وصالحهم بعد رد اموالهم على مائة الف وخمسين الف دينار وتوفي خالد بعد ابي عبيدة بثلاث سنين وكان يظن ان الموت لا يقدر عليه وان العناية كانت مهتمة به ما دام لابساً ذاك الرداء الذي كان قد باركه النبي فانه بعد أن صدم وقتل في الشام احد ابطال الروم تجرد جبار آخر منهم لمبارزته فقال له صرار ارتح قليلاً ودعني اذهب اليه عنك فاجابه اني سارتاح في الاخرة من يتعب اليوم يرتح غداً ونزل اليه وقتله فتعجب منه عساكر الاعدا

ولم يقنع الاسلام باخذ الشام فقط بل تقدموا واخذوا قيليقية وطرسوس ومدوا دينهم وقوتهم الى البحر الاسود قرب القسطنطينية وكان جبل لبنان يمدهم بالاخشاب لبناء المراكب وفينيقية بالملاحين العظام . وطردوا بالف وسبعمائة سفينة عمارة الروم من بحر بمفيلية الى بحر سنيد المتصل ببحر مرمرة وتسلطوا على بحر الروم كله وغزوا قبرص ورودس ونحوها وفي رودس وجدوا تمثال ابولس العظيم علوه ستون ذراعاً مكعباً وكان من اجمل اعمال اليونان وقد سقط على الارض بزلزلة وبقي ثمانية اجيال فجمع العرب قطعه المعدودة من عجائب الدنيا وباعوها من رجل يهودي من أدسة وفي اورفه ما بين النهرين فاخرج منها نحاساً حمل تسعمائة بعير . ولا شك ان في ذلك مبالغة وعلى انه اشتمل على المائة تمثال العظيمة والالف صنم الموجودة في مدينة الشمس في رومة وغيرها

هذا ما كان من امر سعد في العجم وابي عبيدة وخالد في سورية. ولننظر ما كان من امر عمرو في فلسطين . . فعمرو كان ابن امراة يتردد عليها خمسة من بني قريش وقد نسب الى العاص بن وائل السهمي لانه كان اشبه به من غيره . وكان يهزأ اولاً بمحمد ودينه ثم اسلم وحارب سورية في خلافة ابي بكر وعمر . وكان احسن اهل عصره قائدًا واشجعهم محاربًا حتى ان عمر لما كان يسمع عنه من الغرائب ارسل اليه يطلب سيفه ليراه فارسله فتامله عمر واحتقره ورده اليه قائلاً اني لم ارَ في سيفك ما يا لقول لي عنه. فاجابه عمرو اني ارسلت لك سيفي ولم ارسل لك ذراعي وانت تعلم ان السيف يقطع بضاربه وقيل ان ذلك جرى مع عمرو بن معدي كرب

وبينما كان عمرو هذا يحارب بفلسطين خطر له ان يركب على مصر. وبعد حصوله على الاذن سافر في الحال وسافر معه يزيد ابن ابي سفيان وعامر بن ربيعة ويوقنا صاحب حلب. بأربعة الاف من رجاله وغيرهم . ولكنه ندم عندما راى ما امامه من مشقات السفر والخطر وكيف ان الروم لا يسلمون بسهولة انبار ملكهم فضلاً عن المصريين انفسهم ومقاومتهم الغريبة . وكانت يرونه في عقله عظمة الفراعنة ملوكهم القدماء المملوء من ذكرهم القرآن الى غير ذلك غير انه لبث سائرًا على تيسير الله . وبعدما تجاوز غزة حضره رسول من عند عمر بكتاب يقول فيه „ ان كنت لم تجاوز حدود الشام بوصول كتابي هذا اليك فارجع والاَّ اذا كنت في حدود مصر فتقدم ولا تكن الا واثقًا بالله وبمساعدة اخوتك „ اما عمرو اما لعلمه عدم ثبوت الحكام على راي او لتنبيه سري فلم يفتح الكتاب وبقي سائرًا الى ان دخل حدود مصر وهنالك فض ختم الكتاب وتلاهُ على القواد والمسلمين . ثم سال اين نحن الان فقيل له في حدود مصر . فاجاب جدوا بنا الان طوعًا لامر امير المومنين . وبدا بحصار فرمه (بلبيس البون) واخذها بعد ثلثين يومًا ومن هنالك تقدم الى اليوبوليس قرب القاهرة الجديدة . وبعد ان وصل الى خراب منف وتامل تلك الاطلال الفائقة تذكر وفتنذ قوة الفراعنة وشاهد النيل الذي يمتد عرضه هنالك نحو ميل جانبيه متحدين بجسرين من سفائن فوق الماء تسندها جزيرة تنيس (روضة) المملوة من البساتين والبيوت . وفي الجانب الشرقي من الجسر كانت بابل او مصر القديمة وكان هنالك قلعه فيها ثماني الروم تحافظ على النهر فصدم العرب تلك القلعة وحاصروها نحو سبعة اشهر تحت خطر غرقهم بماء النيل واخيرًا تجاوزوا ذلك الخندق المملوء من السلاسل الحديدية وصعدوا بالسلالم الى القلعة صارخين الله اكبر وطردوا منها العسكر . ولما نظر عمرو ان ذلك المكان كان انسب للمواصلات بينه وبين العربية من منف نزل به واقام هنالك جلستًا وقدموا فيه صلواتهم بحضر ثمانين من الصحابة . وصادفت مضارب العرب بيوتًا والقلعة مدينة واضيف عليها مدينة بابل ودعيت الفسطاط. ولما تامل عمرو خيرات مصر واراضيها كتب لامير المومنين ما معناهُ

« تامل لك برًّا بين قفرين وبين جبلين شبيهين بسنام البعير او بطن الفرس المستسقي فان الغلال الوافرة الكثيرة الناتجة من منف واصوان انما في عن النهر العظيم الجاري في وسط الوادي الفسيح وهو يفيض ويجري بكل دقة وقياس كسير الشمس والقمر. فانه في فصل معلوم من السنة كل الينابيع تودي الى رئيس الانهر هذا جزيتها السنوية المفروضة عليها من العناية فيرتفع ماؤهُ ويتجاوز حديهِ ويغطي كل ارض مصر وتبقى المواصلات بين المدن والقرى بسفن صغار كعدد الخوص فاذا وبت الارض رجع ماء هذا النهر المبارك الى مكانهِ المعين له بالطبع . وحينئذٍ هذا الشعب المحروس من الله والشبيه بالنحل التي تتعب ولا تجني لنفسها يشقون وجه الارض ويلقون فيها الزرع منتظرين نموهُ من ذلك الذي كل ينبت وينمو به فيفرخ الزرع ويعلو الساق وينضج الحب بقوة الندى الغزير القائم مقام المطر في حفظ رطوبة الارض . ثم يعقب الحصاد فحل . وعلى هذا النحو يا امير المومنين لا تزال هذه البلاد تتقلب بالتوالي ما بين قفار مقفرة وسهول مائعة وحقول لزجة ورياض خضراء متموجة وجنان مزهرة وحقول مملوءة حبًّا يانعًا »

ولو لم يساعد العرب على اخذ مصر اهاليها كما كانوا قد فعلوا قبلاً مع الرومان لما قدروا على فتحها لان القبط اصحاب المشية الواحدة القاطنين فوق منف وتحتها نظروا اتحادهم مع العرب خيرًا لم لحفظ معتقدهم منه مع الروم . فالمقوقس بن داعيل رئيسهم وكبير اغنيائهم الذي كان يعرف الرسول واله معه مكاتبات سلم نفسه لعمرو بغضا بهرقل ملك الروم لاضطهادهِ اخوته الاقباط . وقال لعمرو « اعلم يا امير اني انا واخوتي قد عزمنا ان نحيا ونموت علي دين عيسى بموجب شريعة الانجيل ولا نقدر ان نحتضن دين نبيك لكن نريد الامان وندفع الخراج ونطيع امر الخلفاء » فاجابه عمرو الى طلبهِ ورتب علي كل رجل دينارين خلا الرهبان والمشائخ ومن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمرهِ وهكذا سلموا مدينة مصر والقلعة المار ذكرها . وهذه عهدة مصر المضاة من عمر بن الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء من ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب . وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف . وعليهِ ممن جنى نصرتهم . فان ابي احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم وذمتنا ممن ابي برية . وان نقص نهرهم من غايتهِ اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليهِ ما عليهم . ومن ابي واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مامنه ويخرج من سلطاننا . وعليهم ما علينا اثلاثًا وكل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المومنين وذمم المومنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا راسا

وكذا وكذا فرسا على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر (طبري)

وكان عدد الاقباط على قول بعض المؤرخين ستة ملايين كلهم من اهل مصر القدماء وبامتزاج لغتهم القديمة مع لغة الاغريق نشأت اللغة القبطية وقد تغلب الدول على هذا الشعب من قديم الزمان فانتقل الى حكم الفرس والمقدونيين والرومان واليونان او الروم ثم الى الاسلام من عرب ثم اتراك

وبعد ان سالم العرب الاهالي اطمأن خاطرهم واظهر عمرو ثقته الكاملة بالقبط عند سفره الى الاسكندرية فكانوا يفتحون له الطرق والجسور ويأتونه بالاخبار الى غير ذلك . واما اخذ مدينة الاسكندرية فقد اتعب العرب تعبًا لا مزيد عليه . فان هذه المدينة من جهة انها كانت يوما مركز المتجر المسكوني والعلوم كلها كانت محصنة جدًا وممتدة امتدادًا طويلاً اشبه بضلع قائم الزاوية ومحاطة من كلا جانبيها بالبحر وبحيرة مريوط . ولم يكن يرى منها من البر اكثر من ١٢٥٠ خطوة (نحو ميل) وكان العرب على قول يوتيخوس المورخ يظهرون في حصارها جراءة الاسود ويصدمون العدو بقوة عظيمة كلما خرج اليهم وكانوا يهجمون على السور والقلاع هجوما غريبا حتى ان عمرًا عرّض بجراءته نفسه وعساكرهُ للخطر الكلي وذلك انه دخل المدينة في احدى هجماته عليها دون ان يعلم كيف يخرج وقد رجعت العساكر غير عالمة بما اصاب قائدها ولم يبق معهُ الا رجل من اصحابه وخادم . فقبض عليه وأُخذ الى الوالي ولم يكن يفتكر مع ذلك بشيء بل كان يظهر سمة السيادة والجسارة في خطابه وجوابه حتى كاد يعرف وهو محاط بالعساكر والسيوف مسلولة لكي يقتلوهُ متى صدر الامر على ان ذكاء خادمه خاصة من تلك الحالة فانه صفعه بشدة وانتهرهُ قائلاً „ قف باحترام امام الرؤساء „ فانخدع الحاكم الرومي من هذا العمل وظنهم جميعا عبيدًا وامر باطلاقهم غير عالم من يكونون . فرجعوا من ساعتهم الى العساكر العربية وقامت الافراح برجوع عمرو . وبعد حصار اربعة عشر شهرًا وفقدان ثلاثة وعشرين الف نفس منهم استلموا المدينة (في ٢٢ كانون الاول سنة ٦٤٠ــ ٢٠) وقيل (في ١٩ شباط سنة ٦٤١ــ٢١) والاصح الاول و(في سنة ٦٤١ ــ ٢١) كانت وقعة نهاوند مع الاعجام . فاجتمع مائة وخمسون الفا من الفرس وعليهم الفيرزان وبعد مقاتل عديدة انتصر الاسلام وفر الفيرزان فقتله القعقاع راجلاً . وفيها فتحت الدينور والدميره وهمذان واصفهان وتوفي خالد ودفن في حمص وقيل في المدينة . و(في سنة ٦٤٢ــ٢٢) فتحت اذربيجان والري وجرجان وقزوين وزنجان وطبرستان

وبعد اخذ الاسكندرية حرر عمرو بن العاصي الى عمر يقول „ لقد فتحت مدينة المغرب العظيمة ولا اقدر على تعداد ما فيها من الغنى والتحف وبالاختصار فانها تحتوي على اربعة الاف

قصر واربعة الاف حمام واربعمائة ملهى واثني عشر الف دكان واربعين الف يهودي يؤدون الخراج والمدينة اخذت عنوة دون شروط وعهود ويرغب المؤمنون ان يجنوا ثمار تعبهم . اما عمر فحرر اليه بمنع النهب وبان يحفظ غناها لبيت المال وينشر الاسلام وبان توخذ الجزية من السكان ومن ثم صار يردع اليعاقبة ولا يأذن للروم الملكية باستعمال معابدهم سرًا . وبعد هذا بقليل توفي هرقل الملك وقيل غمًا على اخذ الاسكندرية ،

ثم هاج شعب القسطنطينية من انقطاع الغلال عنهم وحكم المجلس بتجديد الحرب على العرب لاسترجاع الاسكندرية فارسلوا عسكرًا غفيرًا وعمارة قوية ولكنهم طردوا مرتين في مدة اربع سنين . وفي المرة الاخيرة حلف عمرو لغيظه مما تحمله انه اذا جاءوا ثالثة عمد الى احراق المدينة والقاها الكلها في البحر . وهدم وقتئذ بعض السور والقلاع ثم هجع غضبه واقام جامع الحلم ومعاهد الامان والسلام

ولنذكر هنا نبذة عن احتراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة بعد ان فتحها عمرو . قالوا ان عمرًا كان يحب العلوم ومذاكرة العلماء وكان قد احب رجلاً عالمًا يدعى يحيي المعروف بالغراماطيقي لانه كان منكبًا على درس النحو والفلسفة حتى لقب ايضًا بفيلوبونس . فيوحنا هذا سأل عمرًا ان يهبه المكتبة المذكورة لعدم انتفاعهم بها فانصاع عمرو ولكن اراد ان يستشير الخليفة عن ذلك فكتب اليه فاجابه بما معناه . ان وافقت كتب اليونان النصوص القرانية فلا حاجة للاسلام بها وان خالفتها يجب احراقها لانها مضرة . فلما وصل الجواب امر عمرو بتوزيع جميع الكتب على الاربعة الاف حمام وقيل انها كفتها ستة اشهر . هذا ما جاء في ابي الفرج في الجيل السابع من الهجرة وابي الفدا في القرن الثامن منها على ان المؤرخين نظير بوتيخوس وغيره من المعاصرين لم يذكروه . والظاهر لي ان في ذلك مبالغة فلو فرضنا ان كل حمام امكنه احراق عشرين مجلدًا كل يوم لنتج انه كان فيها نحو اربعة عشر مليون مجلد واربعمائة الف مجلد . والحال ان مكتبة اسكندرية كانت قد احترقت اولاً في عهد القيصر الروماني . وبعد جمع ما بقي واضافة مكتبة فرغامه اليها لم تسلم من النصارى الذين كانوا يجتهدون في ملاشاة المعتقدات الاخر فاحرقوا منها في زمان تيودوسيوس الملك مجلدات عديدة حتى لم يبقَ الا نحو اربعمائة الف مجلد من الكتاب اللهم اذا لم يكونوا هم انفسهم زادوا عليها في المسيحية الاجيال الاولى من مؤلفاتهم عند انشقاقهم الى احزاب عديدة مثل نساطرة ويعاقبة واريوسية وملكية ونحوهم وبذلك يكون المسلمون عملوا خيرًا باحراقها واراحة الناس من مؤلفات لا فائدة منها الا بلبلة الافكار الرائقة

واجرى عمرو في مصر حكمًا عادلاً محمودًا كما يظهر مما حرره للخليفة اذ عرض

عليه ثلثة امور تعود بالنفع لمصر . اولاً عدم ازدياد الضرائب . ثانيا حفظ جزء من الدخل العام لاقامة الجداول والجسور والمصانع وترميمها . ثالثا تقسيم المال على الاراضي بحسب غلالها . ومصر هي التي كفت العربية قحطا ونحوه في المجاعة التي حدثت (سنة ٦٤٢ ـ ٢٢) ولهذا امر عمر عمرًا بان يفتح خليجا بين النيل وبحر الحجاز لكي يتسهل نقل الغلة ودعي نهر امير المومنين . وبحر الحجاز هو بحر القلزم نسبة الى مدينة قلزم الشهيرة بين العرب يوما وقد اقيمت الان على خرابها السويس ولذلك يدعى بحر السويس ايضا وهو البحر الاحمر

وأمر عمرو اذ كان في مصر فسار الى برقة فصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة (سنة ٦٤٢ـ٢٢) . وفيها غزا الاحنف بن قيس خراسان وحارب يزدجرد وفتح هراة عنوة ثم سار الى مرورروز

و بعد ان شاهد عمر كل هذه الفتوحات اتاهُ موته عن يد عبد يدعى ابا لولوة فيروز وهو عبد المغيرة بن شعبه وذلك ان هذا الرقيق جاء يتشكى يوما الى عمر من سيده لانه كان ياخذ منه درهمين كل يوم وهو كل مايكسبه . فسأله عمر عن حرفته فاجابه العمارة والنجارة والنجارة . فقال له الخليفة هذا القدر ليس بفاحش على من يحسن ثلاث حرف . والحال ان سيده لو اراد لامكنه ان ياخذ منه اكثر من ذلك . ثم هدّ خاطره ووعده بانه سيشغله في بناء الطواحين فغضب العبد من الجواب وصرخ قائلاً « لك ابني طاحونا تشتغل فيها الى يوم القيامة » فاغتاظ عمر من كلامه وطردهُ . ثم انطلق الى الجامع لصلوة الظهر فلما دخل الرواق اذا بالعبد قد هجم عليهِ وطعنه بخنجر ثلاثا وذلك بسرعة لم تتمكن الحاشية من منعهِ و بعد ان تحاربت العبد مع الحاضرين ضرب نفسه بالخنجر ومات . ولما نظر عمر خطر امره وكان اصحابه يطلبون اليهِ ان يعهد لولده من بعده . قال حسب قومي وجود من يقوم بحمل ثقيل كهذا دون ان يخلفهم غيرهم . وعهد بالخلافة الى علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بعد ان عرضها على عبد الرحمن بن عوف فابى وتوفي سلخ ذي الحجة (سنة ٦٤٣ ـ ٢٣) ودفن هلال محرم (سنة ٦٤٤ ـ ٢٤)

والحاصل ان العرب في عهد عمر سفكوا من الدما انهرًا وعلى قول بعض المورخين فتحوا ستة وثلاثين الف مكان ما بين مدن وقلاع وقرى ونحوها وهدموا اربعة الاف هيكل واقاموا الف ومائتي جامع . وبقدر ما كان حكم عمر ملاشيا في الخارج كان مرتبا ومشيدًا في الداخل وكان بخيلاً على نفسهِ لا ياكل غير خبز الشعير ولا يشرب غير الماء ولكنه كريم على غيره . قيل انه اعطى يومًا لاحد الفقراء ستة الاف درهم فلامه بعض خلانهِ على تفضيلهِ الغريب على اولادهِ . فاجابه بما معناهُ . ان لابنيَّ ابًا يطعمه ويكسوهُ ويهتم بهِ بخلاف هذا الغريب فان ليس له شيء ولا من ينظر اليه

وكان بين عمر وهرقل ملك الروم مكاتبات منها عند فتح الجزيرة سنة ١٩ فانه بلغ عمر وقتئذٍ دخول اياد الى بلاد الروم . فكتب الى هرقل « بلغني ان حيا من احياء العرب تركوا دارنا واتوا دارك فوالله لتخرجنهم او لنخرجنّ النصارى اليك » فاخرجهم هرقل وتفرق منهم اربعة الاف فيما يلي الشام (ابن خلدون)

ومنها عندما اسر عبد الله بن حذافة فانه كتب اليه كما ياتي

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

من عمر بن الخطاب امير المومنين الى هرقل طاغية الروم

و بعدُ فاذا وصل اليك كتابي هذا تبعث لي الاسير الذي عندك وهو عبد الله ابن حذافة فان فعلت ذلك رجوت لك الهدى وان ابيت بعثت اليك رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والسلام على من اتبع الهدى (مراسلات افريدون بك)

وكان عمر من اهل النباهة واحكم رجال السياسة وله الفضل الاول في تقدم العرب والاسلام ومن وصاياهُ على المسلمين الجهاد لاجل الايمان وفي وقت السلام اتباع احدى الحرف الثلاث الزراعة والتجارة والصناعة

و بعد موت عمر اجتمع اهل الشورى وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر للتداول في خليفة جديد وبعد الاختلاف ونحوه انتهى الامر باقامة عثمان بن عفان . فانهم كانوا تركوا الحكم في الاختلاف الى عبد الرحمان وهذا بدسائس عائشة سعى بعثمان لانها كانت تكره عليًا ثم مد كل واحد منهم يدهُ وبايع عثمان الا علي . فقال له عبد الرحمن يا ابن ابي طالب من لا يقم بقوله كان اول من كابد غائلته . فمد علي يدهُ وبايع عثمان وقرّ السلام

وافتتح عثمان خلافته بعزل عمرو بن العاص الذي كان قد فتح اكثر سورية وكل مصر وبعض اماكن الفرس والاعتياض عنه بعبد الله بن سعد بن ابي سرح العامري اخي عثمان رضاعًا . وكان عبد الله هذا اولاً كاتب الرسول وفرض عليهِ حفظ القران فاراد ان يحرف المتن فعرف الرسول ذلك وطردهُ فذهب الى مكة واخذ يتكلم عليهِ . ولكنه حضر عند ما استولى محمد على مكة وانطرح على قدميهِ وطلب منهُ العفو فناله ولبث مسلمًا غيورًا ويعد من اعظم فرسان بني قريش

فصل

في الربع الثاني من القرن الاول

ثم جهز عثمان عبد الله بن سعد المقدم ذكرهُ باربعين الفًا وذهب الى مصر وتقدم من هناك بعسكرهِ الى جهات المغرب لفتح الاماكن التي من النيل الى البحر في افريقية فسار في قفر البلقاء

العظيم وبعد مشقات عظيمة وصل الى نواحي طرابلس (سنة ٦٤٦ـ ٢٦) وكانت قد اجتمعت الى هناك شعوب البلاد باموالهم ونازل عساكر الروم وظفر بهم على الساحل . ثم قدم البطريق غريغوريوس (جرجير) الذي كان واليًا على تلك الاقطار التي بين طرابلس وطنجه من طرف هرقل ملك الروم ومعهُ ماية الى ماية وعشرين الفا وعدد غفير من الاهالي وتجدد القتال ودام اياماً متواليا كل يوم من الصباح الى الظهر اذ ينكفئون عند اشتداد الحر . وكان لغريغوريوس المذكور بنت ذات جمال بارع وجراءة عظيمة وكانت تصحب اباها الى الحرب وقد تعلمت من صغرها رشق السهام وركوب الخيل وضرب السيف وكانت تتميز عن غيرها لباسا وسلاحا . فكان ابوها قد وعد بان من ياتيهِ براس القائد العربي يزوجهُ بها ويعطيهِ ماية الف ذهب فعادت شبان افريقية تترامى على الموت للحصول على المرغوب ولم يكن يصدهم عن ذلك الا حلول الاجل . فالتزم عبد الله بالتخفي وترك امرة الجنود لغيرهِ وذلت طلاب حور الجنان امام طلاب حور المكان

ولما طال امر الحرب امر عثمان عبدالله بن الزبير افرس اهل زمانهِ وهو الذي شاع صيتهُ في فتح مصر فذهب باثني عشر الفا وجاز ارض الاعدا ووصل اخيرًا الى العساكر الاسلامية وكانوا يحاربون دون قائدهم عبدالله فصرخ بهم قائلاً . ياقوم اين اميركم . فقالوا في الخيام . فقال ابليق بقائد المسلمين ان يكون في خيمتهِ وقت القتال . فسمع عبدالله ذلك فخرج والتقاهُ خجلاً وقص عليهِ امرتحالف العدو على قتلهِ . فاجابهُ ابن الزبير ضاحكًا الست انت بقادر على تدارك نفس الحيلة بان تعد هذا الوعد الدني منادِيًا على رجالك ان من ياتي براس جرجير فلهُ بنته ومائة الف ذهب . فقال ابن سعد دبر انت ما بدا لك . ففعل ابن الزبير وكان النصر عن يده . فانهُ امر في اليوم الثاني فخرج قسم من عساكر المسلمين للقتال وشغلوا العدو الى الظهر ثم صار الانفصال كالعادة ورفعت لجم الخيل ونزعت الملابس الحربية . وبينا عساكر الروم تاخذ راحتها اذا بابن الزبير امر برفع الوية القتال فخرجت الجنود المستريحة وصدمت العدو على غفلة صدمة قوية فهزمت بها عساكر غريغوريوس وأُخذت راسه واسرت بنتهُ الجميلة وهربت رجالهُ شتيتًا الى سبيطله وهي مدينة على جانب منحدر في وسطها جدول ماء وعلى جوانبها اشجار اللبان وبها من الآثار ما يدل على عظمة الرومانيين وتبعد عن قرطاجنة نحو مائة وخمسين ميلا . وحاصر ابن ابي السرح سبيطله ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة الاف دينار وسهم الرجل الفا . وبث جيوشهُ في البلاد الى قفصة فسبوا وغنموا وبعث عسكرًا الى حصن الاجم وقد اجتمع بهِ اهل البلاد فحاصرهُ وفتحهُ بالامان

وقرطاجنه هي مدينة بناها اهل فينيقية فنجحت حتى كانت اول مدينة بحرية واغنى مدن العالم وكانت نقيضة رومه العظمى مدة مائة سنة الى ان احرقها شيبيون القائد الروماني . ولقهر الرومانيين

منها بسبب ما سفك بها من دماء رجالهم حلفوا على ابقائها خربة ولعنوا كل من اقام بها حجرًا على حجر ثم اعادوا بناءها هم انفسهم . ثم فتحها (الوندل) . ثم الروم . ثم العرب . ثم خربت اصالة الى الان ولم يبق منها الا آثار قليلة لا تذكر . والسياح مع كل بحثهم لم يجدوا اثرًا بقرب تونس لتلك الاسوار المثلثة والقلاع العالية والقشل الفسيحة والاسطبلات العظيمة التي كان ياوى اليها مائة الف فارس وثلاثمائة فيل . حتى ولا لذلك السور العجيب المحيط بالمينا الداخل حيث كانت ترسو السفن العديدة فانه في سفر اميلاقريس الى حرب سيراكوسه سار منها الفا سفينة حربية وثلاثة الاف للموسق وكانت كما ذكر المورخون تشتمل على ستمائة الف من السكان . و بعد فتح العرب حصن الاجم عاد الافريقيون يتواردون من كل المعاملة فبعضهم لطلب الامان ودفع الجزية و بعضهم للدخول في الاسلام

ومنع العرب من التقدم الى قرطاجنة موت كثير منهم بالحرب والتعب والمرض فقفلوا الى مصر بالغنائم والاموال والاسارى بعد ان غابوا عنها خمسة عشر شهرًا . وكانوا قد صالحوا اهل افريقية على مليونين ونصف مليون دينار وبعد ان رفعوا الخمس لبيت المال فرقوا الباقي على العسكر كل ذلك وقاتل غريغوريوس لم يحضر لياخذ جزاءهُ مائة الف ذهب فظن انه قتل لولم يتبينه عويل البنت فاذا بهِ ابن الزبير نفسه فعرضوا عليهِ الجزاء وزواج البنت فابى قائلاً اني وقفت سيفي لخدمة الدين منتظرًا جزاء اعظم من المال ومن جمال امراة فارسلوهُ حينئذٍ بشيرًا الى عثمان بنصرهم وارسلوا معهُ المال خمس مئة الف دينار

ولما فتحت افريقية امر عثمان عبد الله بن نافع بن الحسين بان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهات وعاد الى افريقية فاقام بها من طرف عثمان ورجع عبد الله بن سعد الى مصر

واستاذن معاوية (سنة ٦٤٧ ــ ٢٧) عثمان بن عفان ان يغزو البحر فاذن له فسير معاوية جيشًا الى قبرس وسار اليها ايضًا عبد الله بن سعد من مصر واجتمعوا وقاتلوا اهلها ثم صولحوا على جزية قيمتها سبعة الاف دينار كل سنة . وفي سنة (٦٥٠ ــ ٣٠) امر عثمان باعتماد القران الذي كتب في عهد ابي بكر واحراق ما سواهُ من النسخ وكان مودعًا عند حفصة زوج الرسول . . . وفيها سقط خاتم النبي من يد عثمان في بئر يسمى بئراريس وكان من الفضة من ثلاثة سطور «محمد» ثم «رسول» ثم «الله» وكان يختم بهِ ويختم الكتب التي كان يرسلها الى الملوك . ثم ختم بهِ بعدهُ ابو بكر ثم عمر ثم عثمان . . . (وفي سنة ٦٥٢ ــ ٣٢) عصت خراسان فركب عليها المسلمون وفتحوها ثانية

هذا وعثمان اصبح ممقوتًا من المسلمين وكثرت اضدادهُ اولاً لانه كان يبدد اموال بيت مال

الامة ويصرفها لاصحابه واقربائه ولما وصل مالى افريقية وهبه لمروان بن الحكم كاتبه وقد انكروا ذلك عليه . قال ابن خلدون « الناس يقولون اعطاه اياه ولا يصح وانما اعطى ابن ابي السرح خمس الخمس من الغزوة الاولى » قلت وقد يحصل من ذلك تهمة ثانية لعثمان . ثانيا لاجل ادخاله الاسراف في عيشته نظير ملوك الفرس . وقيل لانه كان يتناول المسكرات . ثم لاجل عزله اهل الاستحقاق من الولاة واقامة غيرهم ممن لا استحقاق لهم من مقربيه وقد اتهموه بالخديعة في امر ابن ابي السرح عندما عزله وولى محمد بن ابي بكر وذلك انه لما اضطر عثمان الى عزل المذكور عن مصر وتولية محمد عليها ذهب محمد ومعه عدة من المهاجرين والانصار الى مصر فالتقوا في طريقهم بعبد على هجين يجدّهُ فسالوهُ الى اين فقال الى العامل بمصر فقالوا له عامل مصر هنا واشاروا الى محمد فقال العبد بل العامل الاخر ففتشوهُ ووجدوا معه كتابا الى ابن ابي السرح مختوما بختم عثمان يقول فيه « اذا جاءك محمد بن ابي بكر ومن معه بانك معزول فلا تقبل واحتل بقتلهم وابطل كتابهم » فرجع محمد ومن معه الى المدينة واطلعوا اصحابهم على الكتاب فسالوا عثمان فاقر بان الختم ختمه والخط خط كاتبه مروان فطلبوا منه ان يسلمهم الكاتب فابى فنهضوا عليه وحاصروهُ في قصره وكان كل ذلك بعلم عائشة لانها كانت ترغب اقامة غيره من اصدقائها الاّ ان عليا والزبير وطلحة ارسلوا اولادهم للذب عنه وذهب علي نفسه الى داره ودافع عنه وهزم اعداءهُ ثم عاد فعادوا ودخلوا دار عثمان ونهبوها وهو في الغرفة الاخيرة ثم قبض عليه محمد اخو عائشة وتناوله بلحيته وطعنه بخنجر في صدره فركضت هند زوجته لتدافع عنه فجاءها ضربة قطعت لها اصبعين . وتوفي عثمان (سنة ٦٥٥ ـ ٣٥) وهو يتلو المصحف صائمًا وعمرهُ من خمس وسبعين الى اثنتين وثمانين سنة وخلافته ثنتا عشرة سنة

وبعد موت عثمان تجدد النزاع على الخلافة فكان عرب المغرب يريدون الزبير وعرب الشام معاوية بن ابي سفيان والمكيون محمدًا اخا عائشة وبعضهم طلحة صديقها ولكن الحزب الاقوى كانوا يريدون علي بن ابي طالب فلبس علي رداء من قطن رفيع واعتم حاملاً نعليه في اليد الواحدة وقوسه في الاخرى وذهب الى المسجد الجامع وبايعه الجميع وبايعه طلحة والزبير . وقد لاحظ العرب ان الزبير لما مدّ يدهُ لبيعة علي لم يعطها كاملة فقالوا رضاهُ كان كيده ناقصًا

ثم شرع طلحة والزبير في التحزب ضد عليّ وذهبا الى مكة ثم الى البصرة وعصيا عليه وتسلطا على العراق وكانت عائشة من حزبهما واتهمت عليًا بانه قتل عثمان وقد كانت في السبب في ذلك ثم لحقت بالزبير وطلحة واخذت لها حزبًا لانها امّ المومنين قال بعض الحكماء اذا اردت ان تعلم

الى اي حد يتوصل الانتقام البشري فعليك بفحص قلب المرأة

ولما راى عليّ ذلك نهض واخذ صحبتهُ عشرين الفًا من حزبهِ وتسعة الاف من الكوفة ومضى في طلب العصاة والتقى بهم عند البصرة واقتتلوا شديدًا فظفر عليّ عليهم مع وفرة عددهم وقتل طلحة وهذا بعث الى عليّ قبل موتهِ رسولاً يقول لهُ « ثق فاني اموت موقنًا ببراءة شانك » ولما اخبر الرسول عليا بذلك صرخ قائلاً « ان الله لم يشا ان يدعو طلحة اليهِ الاّ بعد العفو عن ذنبهِ » اما عائشة فلم تزل تصرخ وتشدد العساكر وهي راكبة على جمل وحولها سبعون نفرًا تسوسهُ وايدٍ عديدة قطعت على خطام الجمل . ثم امرهم عليّ بعقرهِ فقطعوا وبقيت عائشة في هودجها الى الليل فادخلها اخوها محمد البصرة وطاف عليّ على القتلى من اصحاب الجمل وصلى عليهم ودفنهم ولما راى طلحة قتيلاً قال والله اني كنت أكره ان ارى قريشًا صرعى وانت والله كما قال الشاعر

فتىً كان يدنيهِ الغنى عن صديقهِ اذا ما هو استغنى ويبعدهُ الفقرُ

اما الزبير ففرَّ طالبًا المدينة فقتلهُ عمرو بن جرموز واتى براسهِ الى عليّ ثم أُرسلت عائشة الى المدينة لتصرف باقي حياتها في جوار قبر الرسول ودعي ذلك اليوم يوم الجمل

واما معاوية بن ابي سفيان فلم يقنعهُ ذلك وبقي يحزب العرب على عليّ وشيع بانهُ هو الذي قتل عثمان وامر يومًا وهو في جامع دمشق الاكبر بحضر غفير من المسلمين فجاءوا بقميص عثمان مخضبًا بدمهِ واصبعي هند زوجتهِ واخذ يقول « انظروا يامومنون افعال عليّ بن ابي طالب فاي مسلم لا ينهض لاخذ ثارهِ » وبمثل هذا كان يهيج عرب الشام فنهضوا لاخذ الثار والتقى العسكران في صفين (وهي بلدة ما بين دمشق والعراق على جانب الفرات الغربي) واستمر القتال مائة وعشرين يومًا وكان عمرو بن العاص من جانب معاوية املاً في ان يردهُ واليًا على مصر . واراد معاوية ان يستجلب اليهِ نفيس بن سعد العامل من قبل عليّ على مصر وقتئذٍ فابى فزوَّر عن لسانهِ كتابًا يخدع بهِ اهل الشام فيشددهم في مضادة عليّ وقيل انهُ جرى بينهم تسعون موقعة وقتل من الفريقين نحو سبعين الفًا وكان عليّ كما قال عنهُ ابن عباس شجاعًا لكن ليس بصاحب راي فكان يمتاز عن معاوية جراءة وانسانية واوصى عسكرهُ بان يحترموا قتلى اخوتهم ويعفوا ما امكنهم العفو وفي الموقعة الاخيرة امتطى عليّ جوادهُ وتقدم امام العسكر واستل سيفهُ ذا الفقار الشهير في تاريخ العرب وشق عساكر الشام وكان كما قيل كلما قتل رجلاً كبر وقد سمع لتكبيرهِ نحو اربعمائة مرة قلت لعل في ذلك مبالغة ولا شك انهُ يوجد من المبالغات في كل تاريخ القدماء ما يجعلنا احيانًا نشك في اصل الاخبار ذاتها . فهمَّ وقتئذٍ معاوية ان يفر ولكنهُ تبعًا لراي عمرو بن العاص فزع الى استعمال الحيل وخلص نفسهُ بنشر المصاحف في مقدمة الجيش اشارة الى طلب المهادنة . فكفَّ عليّ عن القتال وعقد المهدنة ومن هناك عاد الى

الكوفة ظافرًا بالحرب ولكنه صريع السياسة ولبث معاوية يحرك العجم واليمن ومصر ضد عليّ

وبينما تحادث المسلمون يومًا في ما هو جارٍ من الشقاق والدمار في الامة حكموا ان لا راحة الاّ بقتل عليّ ومعاوية وعمرو وكان من جملة الحاضرين بعض الخارجية فتجرد منهم ثلثة وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي وعمرو بن بكر والبرك بن عبد الله التميميان من شيعة كانت قد ظهرت من ثلاث سنوات ضد الخلافة مبادئها الحرية . وذهب كل منهم لواحد من الثلثة المذكورين فالذي تجرد لقتل عمرو بن العاص قتل نائبه الجالس عنه يومئذٍ . وقاصد معاوية جرحه فقط جرحًا خفيفًا اما الثالث وهو قاصد عليّ فقتله وعمرهُ اذ ذاك ثلاث وستون سنة وهي السنة الار بعون من الهجرة والستماية والستون من الميلاد . ولما مات عليّ اخرجوا ابن ملجم من الحبس وقطعوا يديه ثم رجليه ثم كحلوا عينيه بمسار محمى وقطعوا لسانه ثم أُحرق . وقد رثى عمران بن حطان الخارجي ابن ملجم المذكور والمسلمون يلعنون الاثنين قال

لله درّ المرادي الذي فتكت كفاهُ مهجة شر الخلق انسانا

ياضربةً من وليٍّ ما اراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

اني لاذكرهُ يومًا فاحسبهُ اوفى الخليقة عند الله ميزانا

وهذه الشيعة من الخوارج كانوا اشبه بكمون فرنسا الاخير وعليّ كان من الشعراء المفلقين والابطال الفائقين والعلماء المفلحين وهو اول من اهتم بوضع روابط للغة فامر ابا الاسود ففعل ودعي ذلك نحوًا اي قصدًا اشارة الى قصد امير المومنين عليّ

وذو الفقار هو احد السيوف الخمسة الشهيرة عند العرب المهداة على زعمهم من بلقيس الى الملك سليمان بن داود وهي ذو الفقار . وذو النون . والمخذم . والرسوب . والصمصامة . فذو الفقار كان عند الرسول اخذهُ من منبه بن حجاج في غزوة بدر . وذو النون والصمصامة انتقلا الى عمرو بن معدي كرب . والمخذم والرسوب الى الحارث بن جبلة بن الايهم الغساني . وذكر ابو عبيدة ان الصمصامة انتقل الى خالد بن سعيد بن العاص وذلك لما اغار خالد بن الوليد بني زبيد وكان ابن سعيد من جملة الامراء مع خالد وقد اسر حينئذٍ ريحانة اخت عمرو بن معدي كرب فكان فداها الصمصامة ثم ضاع في اليوم المعروف بيوم الدار وهو اليوم الذي فيه قتل عثمان في دارهِ ثم وجد وبقي في ايدي بني العاص الى ان جلس المهدي ابو هرون الرشيد على تخت الخلافة فكتب الى بني العاص يطلبه فاجابوهُ انهُ محفوظ عندهم لاجل الجهاد في سبيل الله فارسل اليهم المهدي كتابًا ثانيًا في طلبه وخمسين سيفًا عوضه قائلاً ان الجهاد بخمسين سيفًا اولى من واحد فبعثوهُ اليهِ . ولما نهض موسى الهادي اخو هارون اخرج السيف من الخزنة وامر الشعراء بوصفه ففعلوا ومن ذلك قول بعضهم

حاز صمصامة الزبيدي عمرو　　من جميع الانام موسى الامينُ

ما يبالي من انتضاهُ لضربٍ　　اشمالٌ سطت بهِ ام يمينُ

ولم يزل الصمصامة ينتقل من خليفة الى اخر في بني العباس الى عهد المتوكل وهذا اعطاهُ الى غلام تركي وهو الذي قتله بهِ فيما بعدومن ثم تداولته ايدي سبا ولا يعلم ما حل بهِ بعد ان صار تركيًا واما بقية السيوف فلا خبر عنها سوى ان ذا الفقار المار ذكرهُ كان عند علي بن ابي طالب

وعمرو بن معدي كرب بن عبد الله الزبيدي المكنى بابي ثور له غارات كثيرة ووقائع وافرة واسلم عن يد الرسول وهو راجع من غزوة تبوك وعاش الى دهر عثمان وكان علة لانتصار الاسلام في غزوات كثيرة منها وقعة القادسية ووقعة يرموك . ونقل المدايني ان عمرًا في بعض غزواتهِ مع سليمان بن ربيعة امير الجيش قال له سليمان وقد نظر فرسهُ يا عمرو ان هذا الفرس هجين فقال عمرو لا بل عتيق فأراد سليمان بن ربيعة اثبات هجنتهِ فاتى بزردية وملاها ماء وعرضها على بعض العتاق فشربت بلا توقف فعرضها على فرس عمرو فرفع يدهُ وضرب بها الارض ثم شرب فقال سليمان يا عمرو هذه علامة الفرس الهجين فانفعل عمرو وقال والله لا يعلم الهجين الا الهجين . فتكدر سليمان من جوابهِ ووصل الخبر الى عمر بن الخطاب فامر ان يكتب لعمرو على هذا المعنى « لقد بلغني تطاولك على امير جيوش الاسلام واغترارك بسيفك الصمصامة فاعلم ان سيفي مويد من لدن الله تع ان جعلتهُ على فرق راسك قطعك نصفين الى وسطك فان اردت ان تعلم حقيقة ذلك فاعد ما قد قلتهُ »(والهجين من الخيل ما كان في نسبهِ هجنة اي عيب والعتيق الخالص النسب الخالي من العيب والنقص)

وقُتل علي في جامع الكوفة ولهذا يظن انه دفن هنالك فاخفي قبرهُ عن بني امية وحينئذٍ ولم يظهر الاّ فيما بعد بمدة طويلة فاقيم على خراب الكوفة حجرة وجامع وبلدة تدعى مشهد علي والبها يحج اتباعهُ من العجم قائلين بانهُ خليفة الله ويعتبرون الحج الى مشهدهِ كالحج الى الحرمين . ومن هذا جاء الاختلاف بين السنية والشيعية فان الشيعية لا يسلمون الاّ بخلافة علي ويلعنون الخلفاء الثلثة الاولين ويقولون بكرامة قاتل عمر ويرفضون ما نقلوهُ عن الرسول وما اوصوا بهِ المومنين وهي السنة اما السنية فيقولون بصحة خلافة الجميع دون فرق ويعتقدون بضرورة السنة وهي الحديث النبوي والمنقول عن الرسول منة اوائل وهم عائشة ام المومنين زوج النبي بنت ابي بكر وابو هريرة صديقه الخاص وابن عباس عمه وعمر امير المومنين وجعفر بن عبد الله وانس بن مالك وقد جمع ذلك كلهُ الزهري في المئة من الهجرة في كتاب يدعى المخلص وكان يقطن دمشق وجملة المنقول

عن النبي ما اجمع الجميع على صدقهِ خمسة الاف وستة وستون حديثاً

وبعد موت علي بن ابي طالب خلفهُ ابنهُ الحسن ولقب بالامين لتفضيلهِ الامان في المسلمين على خير نفسهِ . وقد كان يميل اولاً الى اخذ الثار من معاوية وعزلهِ عن دمشق لولا تذمر العساكر من طول الحرب والشقاق في الامة حتى ان احدهم جرحهُ بيدهِ اليسار لكي يعدل عن ذلك فخلع نفسهُ عن الخلافة منفضلاً السكنى بقرب قبر الرسول على الاقامة بصروح الكوفة ومن بعد ذلك دامت الخلافة لبني امية اعني لبني ابي سفيان الذي كان يحارب النبي وعادت ارثية فيهم غب ان كانت شورويّة

وكان الحسن تقيًا عادلاً صفوحًا حتى انهُ عفا عن الذي سقاه السم بامر معاوية ولم يحب فضيحتهُ مع الحاح حزبه عليهِ لينتقموا منهُ . فكان يقول لهم يا اخوتي الحيوة الدنيا فانية فدعوا الخائن يستريح قليلاً فاننا سوف نلتقي في حضرة الله تعالى وهناك يجازى على عملهِ . والحسن تزوج نساء كثيرة . وكان مطلاقا وقد سقتهُ السم زوجتهُ جعدة بنت الاشعث باغراء معاوية وقيل ولده يزيد فانهُ وعدها بانهُ يتزوج بها ففعلت ولم يفعل ومات سنة ٤٩

ثم انفذ معاوية الولاة والعمال فبعث الى الكوفة المغيره بن شعبه وهذا استعمل كثير بن شهاب على الري وكان يغزو الديلم وولى على البصرة بسر بن ارطاة ثم عزلهُ وولى ابن عامر وجعل اليهِ معها خراسان وسجستان سنة ٤١

وكان قد ولى على خراسان قيس بن هيثم السلمي وكان اهل بلخ وباذغيس وهراة وبوشنج قد نهضوا فسار الى بلخ وحاصرها حتى استامنوا ثم قدم قيس على ابن عامر فضربهُ وسجنهُ وولى عوضهُ عبد الله بن حازم وولى على المدينة سنة ٤٢ مروان ابن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام وكان زياد بن سمية بفارس فامتنع ولم يخضع لمعاوية فصالح بينهما المغيرة وعاملهُ معاوية بالرفق وحاسبهُ على مال البلاد بموجب قولهِ وقيل انهُ صالحهُ على الفي الف درهم

واستعمل ابن عامر على الثغور فجعل عبد الرحمن بن سمرة على سجستان وكانوا قد رجعوا عن الاسلام فحاربها وفتح اكثرها حتى بلغ كابل وحاصرها اشهرًا وركب عليها المجنيقات وثلم ثغورها ودخلها عنوةً . ثم الى «نسف» فملكها عنوةً ثم الى «حسك» فصالحوهُ ثم الى «الرخج» ففتحها ثم الى زابلستان وهي «غزنه» وإعمالها ففتحها ثم عاد الى كابل وقد نكث اهلها ففتحها واستعمل على الهند عبد الله بن سوار العبدي فغزا «القيقان» وغنم واهدى معاوية من خيولها ثم غزاهم ثانيةً واستنجد بالترك فقتل ثم اقام عوض بن هيثم عبد الله بن حازم فخاف قيساً فبعث رجلاً من «يشكر» وقيل اسلم بن زرعة الكناني ثم بعث عبد الله بن حازم

ثم وُجد ابن عامر ليناً على السفها فعزل وولى مكانه الحارث بن عبد الله الازدي . ولما استلحق معاوية زياداً سنة ٤٤ ولاهُ على البصرة وخراسان وسجستان ونحوها وولى زياد خراسان لاربعة فاقام امين بن احمد اليشكري على مرو . وخليد بن عبد الله الحنفي على نيسابور . وقيس بن الهيثم على مروروز والفاريات والطالقات . ونافع بن خالد الطاحي على هراة وباذغيس وبوشنج

وبعد ان استوثق الملك لمعاوية هم على اكمال فتح افريقية والركوب على القسطنطينية وكان الافريقيون انفسهم قد دعوه اليهم لما كانوا يحملون من جور بطريرك قرطاجنة وكان يسوسهم في الزمنيات ايضاً واول قائد توجه من طرف معاوية الى افريقية هزم عسكراً من ثلاثين الفاً من الروم واسر منهم ومن الاهالي ثمانين الفاً واغنى عساكر الشام ومصر من المكسب . اما لقب فاتح افريقية فقد حق لعقبة بن نافع فان هذا الامير ترك الشام بعشرة الاف وبعد ان جمع الوفاً من الافريقيين انفسهم سار نحو البحر المتوسط ولا يعلم اي طريق اتخذ وقاد بهِ عساكرهُ ولعلهُ طريق طنجه وهي التي كانت العرب تقول عنها لغناها ان اسوارها من حديد واعالي ابنيتها الشامخة من الذهب والفضة وانهُ تقدم من هنالك قاطعاً القفار حيث اقام خلفاؤهُ بعدهُ مدينتي فاس ومراكش ووصل الى ساحل المحيط (سنة ٤٥ — ٦٦٥) وقابل هنالك بجوادهِ تلك الامواج المتلطمة صارخاً بصوت عال « والله العظيم لولا هذا البحر الواسع المظلم لسرت الى ممالك المغرب وناديت بوحدة الله القدوس وقتلت بحد السيف العصاة التي تسجد لغيرهِ تع » لكنهُ مع كل هذا الادعاء لم يقدر على ضبط عساكرهِ في الاماكن التي فتحها وتركتهُ السودان والامم التي كانت قد انضمت اليهِ ووجد نفسهُ اخيراً محاطاً بقوم خائنين وجرع كاس المنية مكرهاً واخر موقعة في حياتهِ كانت نموذجاً شريفاً لكرم طباع العرب وذلك انهُ كان قد قبض على احد القواد الذي كان ينازع عقبة على الامارة وجيء بهِ الى عقبة فظن العصاة من الجنود ان القائد المذكور لبغضهِ عقبة يوافقهم لا ريب على قتلهِ ففاتحوهُ بذلك اما هو فغضب ورفض طلبهم واعلم بهِ خصمهُ فامر عقبة ان يحل من قيودهِ في الحال ويترك سبيلهُ اما ذلك الامير فابى الذهاب مفضلاً ان يموت معهُ وحينئذٍ تصافحا وتلاثما وودع احدهما الاخر وانتضيا سيفيهما واوقعا بالعصاة المخالفين وبعد ان اتخناهم وقعا مجندلين وقام بعد عقبة ابن الزبير وهو اخذ بثار سالفهِ ثم لاقى ما لاقاهُ لان السودان كانوا يتفقون مع العرب ويدينون بدينهم ما وجدوا لهم ربحاً فاذا لم يجدوا رجعوا الى عوائدهم ودينهم وغدروا بالمسلمين

وعقبة هو الذي بنى القيروان (سنة ٦٧٠ — ٥٠) في اواسط افريقية نحو خمسين ميلاً عن زويله وبرقه واقام لها سوراً من الآجر دائرهُ ثلاثة الاف وستمائة خطوة ونمت في خمس سنوات نمواً عظيماً واقيم بها جامع كبير على خمسمائة عمود من الكرانيت وصارت كرسي الملك والعلوم وفي الان

بعد انحطاطها تعتبر المدينة الثانية في امارة تونس

وولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع جيحون الى سمرقند والصغد وهزم الترك وسار الى ترمذ وفتحها بالامان ومعهُ قتل قثم بن عباس ودفن بسمرقند ومات اخوهُ عبدالله بن عباس فدفن بالطائف واخوهما الفضل بالشام ومعبد بافريقية فضرب المثل ببعد مدافن هذه الاخوة الاربعة

ودخل المسلمون (سنة ٤٣) الى بلاد الروم فهزموهم وقتلوا جماعة من البطارقة ثم دخل بسر بن ارطاة ارضهم (سنة ٤٣) وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبدالله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحرًا ثم دخل اليها عبد الرحمن السبيعي (سنة ٤٦) فشتي بها وشتى ابو على انطاكية ثم دخلوا (سنة ٤٨ فشتى عبد الرحمن بانطاكية ودخل عبدالله بن قيس الفزاري في تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة اليشكري في البحر وعقبة بن عامر الجهني في البحر ايضًا باهل مصر واهل المدينة ثم دخل مالك بن هبيرة (سنة ٤٩) فشتى بارض الروم ودخل عبدالله بن كرز الجبلي بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوي في بلاد الروم باهل الشام في البحر وعقبة بن نافع باهل مصر كذلك

ولما نظر المسلمون امتداد قوتهم وان لاشي يقدر على مقاومتهم سير معاوية (سنة ٦٦٨-٤٨) وقيل (سنة ٦٧٠ - ٥٠) جيشًا كثيفًا الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف فاوغلوا في بلاد الروم واتوا الحصار على المدينة وكان في الجيش ابن عباس وعمرو بن الزبير وابو ايوب الانصاري الذي شهد بدرًا واُحد وحروب صفين وتوفي مدة الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية وبعد ان صدموا المدينة عدة مرات لم يقدروا على شي بل هزمهم الروم بجراءة وعربست النار الاغريقية حركاتهم فكانت تحرق من فوق ومن تحت الما وكان معهم يزيد بن معاوية وقد اصابهم الجوع والمرض فانشد في ذلك وبلغ معاوية

ما ان ابالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن شوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقًا بدير مرّان عندي ام كلثوم

وام كلثوم امرأتهُ بنت عبدالله بن عامر ثم رجع يزيد والعساكر الى الشام

والنار الاغريقية التي فقدت الان قيل ان الذي اخترعها كان كالينيكوس من اليابولس الشامية لا المصرية فان هذا الرجل خدم في دار القياصرة وكان من المهندسين والكيمويين المعتبرين ودعيت الاغريقية لان الاغريق اول من استعملوها ولم يبيحوا بها لاحد بل حفظوا كل ذلك سرًّا عميقًا ولا كتبوا عنها فعادوا يخمنون عليها فيما بعد قالوا ان النفط احد اجزائها لكنهُ لا يعلم مقدار ما يوضع

منة مع الكبريت والقطران

وكان يخرج من هذا المركب دخان كثيف ولهيب محرق يستقر مدة ولم تكن ترتفع على خط مستقيم فقط بل كانت تحرق على الجوانب والاسافل وكان الماء يزيدها اشتعالاً عوضاً ان يطفيها وكان الروم يدعونها النار المائعة والبحرية ويستعملونها برًّا وبحرًا في الطراد وفي الحصار يرمونها من فوق السور بالخلاقين والحجار وقطع الحديد والحربات ونحوها ملفوفة بالكتان المغمس بالزيت وكانوا يضعونها احيانًا في قوارب حديد ويشعلونها ثم يطلقون تلك القوارب فتسير وتحرق اماكن عديدة وكانوا احيانًا يرشقونها بمكعبات حديدية مركزة جاعلين افواه تلك المكعبات كرؤوس تنانين ووحوش ضارية تقذف من اجوافها نارًا وكانت موادها محفوظة بكل صرامة في القسطنطينية لا غير ولما كان الروم يقدمون عساكرهم للرومان لم يكونوا يبيحون بسرها وعند ما سئل قسطنطين فورفرغنيطوس عن ذلك اجاب ان ملاكًا اعلن ذلك السر لرئيس النصارى فلا يقدرون ان يعلموا به احدًا ولبثت محفوظة هكذا اربعة اجيال الى ان ذاقها رجال معاوية وقيل تعلموها واستعملوها وبقيت هذه النار مستعملة الى الجيل الرابع عشر عند ما اكتشف على البارود المركب عن النطرون والكبريت والفحم وعلى ذلك فيكون اختراعها في الجيل الثالث للنصرانية ولكن لا برهان صريح على اكتشاف العرب لها واستعمالها في حروبهم الا ان يكون ذلك بعد ركوبهم على القسطنطينية وانهم كانوا يستعملونها قليلاً وعلى خفاء ولعل فيما قد جاء من انهم استعملوا النفط وكانوا يحرقون به البلاد اشارة الى ذلك . وهذه اول مرة صادفت عساكر المسلمين صدًّا في تقدمهم مدة الخمسين سنة الاولى من حروبهم وقد اراقوا انهرًا من الدم وخربوا مئات من العواصم والمدن والوفًا من الدساكر والقرى وهزموا ربوات من الرجال ويتموا ورملوا ما لا يعد من البشر والقوا اساس ملك يتهدد العالم باسرهِ بالدمار لاجل الدين اولاً ثم لاجل الدنيا وعند ما دانت لهم الممالك وكثرت الغنائم وجزلت لهم الثروات وجدوا في مداومة الفتح افضل خير وسعة من سكون القنار . . .

فصل

في الربع الثالث من القرن الاول

ولما طرد العرب من امام القسطنطينية التزموا بعقد شروط المهادنة في مجلس دمشق في محضر الامراء الى ثلثين سنة على ان يقدم امير المومنين كل سنة خمسين نجيبًا وخمسين مملوكًا وثلاثة الاف ذهب . وبعد ذلك اراد معاوية ان يقضي بقية عمره بسلام لكنه لم يسلم من تعدي موارنة جبل لبنان مع ان العرب والعجم والهند وافريقية كانت ترتعد من ذكره فكانوا يصلون بغزواتهم الى

ابواب دمشق وصاروا سندًا قويًا لملوك الروم الى ان اساءوا معاملتهم ايام فاخذوا سلاحهم ونقلوهم الى مكان ثان

وتوفي معاوية (سنة ٦٨٠ ـ ٦٠) وعمره بين السبعين والخمس والسبعين وكان عندما ثقل مرضه وعاده الناس يظهر تجلده وقد قال

وتجلدي للشامتين اريهم اني لريب الدهر لا اتضعضع

واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفعُ

وكان معاوية ملكًا عادلاً حازمًا داهية عالما بسياسة الملك وكان اول من استعمله على الشام عمر بن الخطاب مدة اربع سنين واقره عثمان مدة خلافته اثنتي عشرة سنة ثم تغلب عليها محاربًا عليا فكان اميرًا وملكًا اربعين سنة وخلافته نحو تسع عشرة سنة وكان حلمه قاهرًا لغضبه وجوده غالبا منعه ومما نقل عنه في تاريخ القاضي جمال الدين بن واصل ان اروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة فقال لها معاوية مرحبا بك ياخالة كيف انت . فقالت بخير يا ابن اختي لقد كفرت النعمة واسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك واخذت غير حقك وكنا اهل البيت اعظم الناس في هذا الدين بلاء حتى قبض الله نبيه مشكورًا سعيه مرفوعًا منزلته فوثبت علينا بعدهُ تيم وعديّ وامية فابتزونا حقنا ووليتم علينا فكنا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون وكان علي بن ابي طالب بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى فقال لها عمرو بن العاص فاتح مصر « كفى ايتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك » فقالت « وانت يا ابن النابغة تتكلم وامك اشهر بغي بمكة وارخصهن اجرة وادعاك خمسة من قريش فسئلت امك عنهم فقالت كلهم اتاني فانظروا اشبههم به فالحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فالحقوك به » . . . فقال لها معاوية عفا الله عما سلف هاتي حاجتك . فقالت اريد الفي دينار لاشتري بها عينًا فوارة في ارض خرارة لتكون لفقراء بني الحارث بن عبد المطلب والفي دينار اخرى ازوج بها فقراء بني الحارث . والفي دينار استعين بها على شدة الزمان . فامر لها معاوية بستة آلاف دينار

ومعاوية اول من بايع ولده ووضع البريد وعمل المقصورة في المسجد وخطب جالسا قالوا ولما عهد لولده يزيد بايعه اهل الشام والعراق وكان مروان بن الحكم واليًا في الحجاز فاصعب مبايعته فامتنع الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وعبدالله بن الزبير في المدينة وامتنع الناس لامتناعهم فحضر معاوية بالف فارس وكلم عائشة في امرهم فبايعه الناس الا الاربعة

ومما آخذوا به معاوية استلحاقه زياد بن سمية جارية الحارث بن كلدة الثقفي التي كان قد زوجها

الحارث بعبد له رومي يسمى عبيدًا وولدت سمية زيادًا على فراشه فهو ولد عبيد شرعًا وقد الحقه معاوية بنسب بني امية (سنة ٤٤) وذلك لان ابا سفيان (ابا معاوية) كان قد سار في الجاهلية الى الطائف ونزل على خمار يدعى ابا مريم فاتى له ابو مريم بالجارية المذكورة وقيل انها علقت منه بزياد وولدته في اول سنة من الهجرة. ونشا زياد فصيحًا خطيبًا وحضر زياد يومًا بمحضر من الصحابة في عهد عمر الفاروق فقال عمرو ابن العاص لو كان ابو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه فقال سفيان لعلي بن ابي طالب اني اعرف من وضعه في رحم امه فاجابه علي فما يمنعك من استلحاقه قال اخاف من الاصلع اي عمر ثم وقعت الصحبة بين زياد المذكور وابي المغيرة ولما ولي علي استعمل زيادًا على فارس فقام بولايتها احسن قيام ولما سلم الحسن الامر الى معاوية امتنع زياد بفارس ولم يخضع لمعاوية واهم ذلك معاوية وخاف ان يدعو الى احد من بني هاشم ويعيد الحرب وكان معاوية قد ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة فاستمال المغيرة زيادًا واقنعه بالقدوم على معاوية ففعل وبايع معاوية فاستلحقه معاوية وخالف بذلك الشرع وقول الرسول «الولد للفراش وللعاهر الحجر»

واتى بشهود النسب من جملتهم ابو مريم الخمار ثم ولاهُ البصرة واضاف اليه خراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان وقدم زياد (سنة ٤٥) البصرة فسدد امر السلطنة واكد الملك لمعاوية وجرد السيف واخذ بالظنة وعاقب على الشبهة فخافه الناس خوفًا شديدًا ثم ولاهُ الكوفة عند موت المغيرة فترك البصرة وحضر اليها واستناب سمرة بن جنوب وكان سفاكًا نظيرهُ. فكان زياد يقيم نصف سنة في الواحدة ونصفًا في الاخرى وهو اول من سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ الحرس خمسماية لايفارقون مكانه. وقد ساء هذا الاستلحاق لزياد بني امية فان زياد بن عبيد الرومي صار من بني امية بن عبد شمس بن مناف بن قصي وقد قال عبد الرحمن بن الحكم في ذلك ابياتًا منها

الا ابلغ معاوية بن صخرٍ ... لقد ضاقت بما تاتي اليدانِ

اتغضب ان يقال ابوك عفٌّ ... وترضى ان يقال ابوك زاني

قال القاضي جمال الدين بن واصل «اربعة خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه الاّ واحدة لكانت موبقة وهي. اخذهُ الخلافة بالسيف واستخلافه ابنه يزيد وكان سكيرًا. وادعاوهُ زيادًا وقد قال الرسول صلعم الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقتله حجر بن عدي واصحابه» وكان حجر من اعظم الناس تعبدًا في الاسلام

ولما نهض يزيد بن معاوية على تخت الخلافة ظهر الحسين بن علي بعد رجوعهِ من جهاد بزنطية

بريد امارة المومنين هو ايضًا مستندًا على قائمة ارسلت له من الكوفة الى المدينة فيها مائة واربعون الف اسم اصحابها متجردون للقيام معه حالما يصل الى الفرات . فهو دون ... يذعن لمشورة اصحابه ركب وتجاوز القفار ولما وصل الى العراق عرف حينئذٍ سوء رايه وثقته بقوم خدعة وكتابات انذال الزمان اذ وجد نفسه متروكًا منهم وحوله خمسون الف فارس من الاعداء يسدون عليه المنافذ وقيل اربعة الاف فارس واذ راى نفسه في سهول كربلا مع اثنين وثلاثين فارسًا واربعين نفرًا من اصحابه طلب الى عمر بن سعد اما ان يمكّن من العود من حيث اتى واما ان يجهز الى يزيد بن معاوية او يترك لان يلحق بالثغور . فكتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد يسأله ان يجاوب الحسين الى احد هذه الامور فاغتاظ ابن زياد وارسل الى عمر بن سعد مع شمر بن ذي الجوشن يقول له . اما ان تقاتل الحسين وتقتله وتطا الخيل جثته او تعتزل ويكون الامر لشمر . فعول عمر بن سعد على قتاله وارسل اليه قائلاً تقدم خاضعا كاسير ومذنب او تحضر لما تكون عاقبة العصاة فاجابه الحسين اتظن انك تخوفني بكلامك ورجع يهتم تلك الليلة بترتيب اموره واسلم امرهُ لله تع وكان يعزي اخته فاطمة التي كانت تنوح على انقراض اهلها وتشتتهم بقوله « يجب ان نتكل على الله تع وحده فان كل ما في السماء والارض زائل راجع اليه فابي واخي وامي كانوا افضل مني وموت النبي يكفي للجميع مثلاً » ثم قال لرفاقه قد اذنت لكم فاذهبوا في هذا الليل وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم . فقال اخوهُ العباس لن نفعل ذلك لنبقى بعدك وفي الغد ركب الحسين على فرسه حاملاً باليد الواحدة القرآن وبالاخرى السيف وبعد ان حصن جماعته انفسهم ظهرًا وجانبًا وحفروا خندقًا عميقا واشعلوا فيه النار كعادة العرب ليثبوا مكانهم فتجرد البعض من عساكر عمر بن سعد لاسرهم واقتسام ما معهم فصدمهم رجال الحسين صدمة عظيمة فتكاثروا عليهم وسقطوا كلهم قتلى اما الحسين فانه من التعب وقع على مدخل خيمته وقيل اشتد به العطش فتقدم ليشرب فرمى بسهم فوقع في فمه . ثم احتز راسه سنان بن انس النخعي وقيل شمر بن ذي الجوشن ومات بين يديه ابنه وابن ابنه . وقيل عندما جرح في فمه رفع يديه الى السماء وطلب من اجل الاحياء والاموات وخرجت اخته من الخيمة في حالة الياس وتضرعت الى رئيس الجيش بان لا يدع اخاها يموت امامها . ثم سار الحسين نحوهم مسلمًا نفسه وكانت تنشق من امامه صفوف الابطال وكان القائد المذكور يعيره لذلك . والحال انه لم يمت الا بعد ثلاث وثلاثين طعنة رمح وسيف وروي انه قتل مع الحسين من اولاد علي اربعة هم العباس وجعفر ومحمد وابو بكر ومن اولاده اربعة ومن غيرهم ايضًا . وامر يزيد بان يوتى اليه بكل نسل علي الى دمشق وكان في نيته استئصالهم لكنه عفا عنهم وجهزهم الى المدينة نساء واطفالاً . ولما وصلوا اليها لقيتهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهنَّ ابنة عقيل بن ابي طالب وهي تبكي وتقول

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ماذا فعلتم وانتم اخر الامم
بعترتي و بدلف لا بعد مفتقدي منهم اساري وصرعى ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ولم يزالوا يتسلسلون الى الثاني عشر منهم وهو المهدي وهم المدعوون ائمة ويوقرهم الفرس وجميع المسلمين وكانوا محسودين من الخلفاء والمهدي اخرهم كان منفردًا في مكان قريب بغداد ولم يعلم زمان موته ولا مكانه ويقول اتباعهُ انه لم يمت وانه سياتي قبل يوم الحساب

وكل من اصحاب الدعوى وحب الشرف كانوا يدعون بالقربى منه فاخر حكام اسبانيا من المسلمين كانوا يحكمون باسم مهدية وحكام مصر والشام باسم فاطمية وحكام اليمن سلطانية والعجم صوفية . اما معز الدين احد خلفاء مصر فكان يقول ان سيفه اصله وما له عساكرهُ وآله اولاده . ولم يكن يكترث بهذه القرابة و(في سنة ٦٨٣—٦٤) توفي يزيد وهو من الملعونين عند المسلمين لانه امر بنهب المدينة مرة وكان قليل الدين والايمان ويشرب الخمر واول من ادخل المماليك في خدمته وكان ذلك مكروهًا في اول الامر لدى المسلمين وكان يعز الكلاب

وعلى يزيد تخلف معاوية الثاني ولدهُ ولكنه خلع نفسه لعدم قدرته على تحمل مشقة الخلافة . وابى ان يسمي له عوضا حسب طلب الامة بقوله من كوني لم اتمتع بنعيم الخلافة فمن الظلم ان احمل ما هو كريه منها فاذا كان ابو بكر عمل بخلاف ذلك فانه كان له عمر بتخبه والان لا وجود لمثل عمر بين العرب فدعوني لا اثقل ذمتي واترك لكم الاختيار والحكم على ذلك على اني اقدر ان اقفي عمر فاقيم لكم ستة اشخاص ليتخبوا لكم خليفة . وهكذا جرى واقام المختارون مروان بن طريد (سنة ٦٨٣—٦٤) اما في مكة فانهم بايعوا عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذٍ بالمدينة فقصد المسير الى عبدالله ومبايعته ثم توجه مع من توجه من بني امية الى الشام . . وبايع لابن الزبير اهل البصرة واجتمعت له اهل الحجاز واليمن وبعث الى مصر فبايعه اهلها وبايع له في الشام سرًّا الضحاك ابن قيس وبحمص النعمان بن بشير الانصاري وبقنسرين زفر بن الحارث . ولو صانع ابن الزبير بني امية قليلاً لاستقر له الامر وكان ابن الزبير شجاعًا كثير العبادة . هذا من جهة الزبير . اما من جهة بني اميه فلم يتهاملوا بل وكان مروان كما تقدم بالشام فاجتمع اليه بنو امية وافترق اهل الشام الى يمانية مع مروان والى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت امور يطول شرحها واقتتلوا اخيرًا بمرج راهط وانهزم الضحاك وحزبه اقبح هزيمة وقتل فرسان كثيرون من قيس ودخل مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وتحزب له زفر بن الحارث واستوسق الشام ومصر لمروان والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير . وفي السنة نفسها هدم ابن الزبير الكعبة وحفر اساسها وادخل الحجر

فيها واعادها على ما كانت عليهِ . وامر مروان رعاياهُ بان لا يحجوا الى هنالك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبني فاطمة ولكن مروان لاشى الحزب الفاطمي ونهض لحرب الشيعية من العجم وبددهم في سهول عين ورد . وبعد حلول السلام بايع مروان ولدهُ عبد الملك وقد كان قبلاً حلف بانهُ يعهد لخالد بن يزيد . فتعتب عليهِ خالد فغضب وسماه ابن زانية وكان مروان مزوجا بام خالد المذكور وهي عند سماعها ذلك اغتاظت ورجحت الوالدية على الزوجية وقتلت مروان بوضعها على وجههِ رداء مشربا بالسم وفوق الردا مخادًّا ثم جلست فوقها فنطس وكان عمره ثلاثا وستين سنة ومدة خلافتهُ تسعة اشهر وذلك (سنة ٦٨٤ـ٦٥)

ثم نهض عبد الملك بن مروان بن الحكم المتخلف على معاوية بن يزيد بن معاوية وهو الخامس من بني امية والحادي عشر من بعد النبي واستثبت لهُ الامر بالشام ومصر وقيل انهُ لما اتتهُ الخلافة كان قاعدًا والمصحف في حجرهِ فاطبقهُ وقال هذا اخر العهد بك

(وفي سنة ٦٨٥ـ٦٦) خرج المختار من العلوية بالكوفة طالبًا بثار الحسين وبايعهُ الناس واجتمع اليهِ خلق كثير واستولى على الكوفة واراد الاخذ بدم اهل البيت وطلب شمر بن ذي الجوشن وظفر بهِ وقتلهُ واحاط بدار خولي الاصبحي صاحب راس الحسين وقتلهُ واحرقهُ بالنار ثم قتل عمر بن سعد بن ابي وقاص صاحب الجيش الذي قتلوا الحسين وقتل حفص بن عمر المذكور وبعث براسيهما الى محمد بن الحنيفة بالحجاز واتخذ المختار كرسيًا وادعى ان فيهِ سرًّا نظير تابوت عهد بني اسرائيل وارسل المختار عسكرًا لقتال عبد الله بن زياد بن ابي سفيان المار الذكر وكان عبد الله واليًا على البصرة فولاهُ يزيد على الكوفة فقدم اليها ليرى ما كان الناس عليهِ وهو الذي قتل مسلم بن عقيل بن ابي طالب الذي كان الحسين قد ارسلهُ الى الكوفة لياخذ لهُ البيعة وكان المختار قد استولى على الموصل لما ارسل لقتال عبد الله وقدم على الجيش ابرهيم ابن الاشتر فاقتتلوا شديدًا وانهزم اصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل لهُ ابرهيم المذكور في الموقعة واخذ راسهُ ثم احرقوا جثتهُ ورُميت بالزاب ثم ولى ابن الزبير اخاهُ مصعبًا على البصرة فاستدعي مصعب المهلب بن ابي صفرة من خراسان فاتاهُ بمال ورجال عديدة وسارا الى قتال المختار وحصراهُ في قصر الامارة بالكوفة وقتل المختار واصحابهُ سبعة الاف نفس وذلك (سنة ٦٨٦ـ ٦٧

ثم تجهز (سنة ٦٩٠ ـ ٧١) عبد الملك وسار الى العراق لقتال مصعب بن الزبير والتقى الجمعان واقتتلا وكان اهل العراق قد كاتبوا عبد الملك فتخلوا عن مصعب وقتل مصعب وابنهُ بدير الجاثليق عند نهر دجيل وعمرهُ ست وثلاثون سنة وكان مصعب صديق عبد الملك قبل خلافتهِ ودخل عبد الملك الكوفة وبايعهُ الناس واستوثق ملك العراقين

وجهز عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي (سنة ٦٩١ ـ ٧٢) في جيش الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير فسار الحجاج وحاربهُ وفي اخر الامر حاصرهُ بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق ودام الحصار (الى سنة ٦٩٢ ـ ٧٣) وقتل ابن الزبير في جمادي الاخرى بعد قتال سبعة اشهر وكان عمرهُ زها ثلاث وسبعين سنة ومدة خلافتهِ تسع سنين وبعد قتلهِ بايع الناس في الحجاز واليمن لعبد الملك ثم هدم الحجاج الكعبة (سنة ٦٩٣ ـ ٧٤) واخرج الحجر عن البيت وبناهُ على ما كان عليهِ في عهد النبي وانتصب الحجاج اميرًا على الحجاز الى ان ولاّهُ عبد الملك على العراق (سنة ٦٩٤ ـ ٧٥)

وكانت الصوائف قد تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية · والصوائف هي الجيوش التي كانت تجهز زمان الصيف لسد الثغور وضرب العدو ودام ذلك من اول الاسلام الى اخر الدولة العباسية فاجتمعت الروم في زمان عبد الملك واستجاشوا على اهل الشام فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على ان يحمل اليهِ كل نهار جمعة الف دينار وذلك (سنة ٧٠) ولما قتل مصعب بن الزبير وسكنت الفتن بعث عبد الملك الجيوش (سنة ٧١) في الصائفة فدخلت الروم وفتحت قيسارية وولى على الجزيرة وارمينية اخاهُ محمد بن مروان (سنة ٧٣) فدخل في الصائفة الى بلاد الروم وهزمهم ودخل عثمان بن الوليد من ناحية ارمينية في اربعة الاف ولقيهُ الروم فهزمهم · ثم غزا محمد بن مروان (سنة ٧٤) فبلغ انسوايه وغزا سنة ٧٥ في الصائفة عن طريق مرعش فدوخ بلادهم وغنم

فصل

في الربع الرابع من القرن الاول

وبعد ان ولى عبد الملك الحجاج على العراق حدثت حروب كثيرة بين الحجاج والازارقة وشبيب الخارجي وعبد الرحمن بن الاشعث لا محل لذكرها هنا وكان النصر فيها للحجاج واقام الحجاج مدينة واسط (سنة ٦٨٣ ـ ٧٠٣) وفيها او في التي قبلها توفي خالد بن يزيد بن معاوية وكان من المعدودين بالسخاء والعقل والفصاحة ومن فحول العلماء واهل الكيمياء ولهُ اشعار جميلة في الغاز الحجر الكريم وكيفية استخراجه وكان يذهب الى صدق الكيمياء الذهبية ولم تزل مولفاتهُ للان

واقام عبد الملك مستشفيات للمرضى وخانات للغرباء بدمشق واخذت بعد ذلك تمتد هذه الابنية في كل بلاد المسلمين وتوفي عبد الملك سنة ٧٠٤ ـ ٨٥) وخلفهُ الوليد ابنهُ

وفي عهد الوليد اكمل العرب فتح افريقية ولاشوا مملكة الغوط في اسبانيا وتغلغل الحجاج بن يوسف في بلاد الترك وقتيبة فيما وراء النهر ففتح الطالقان وسمرقند وغزا كش ونسف والشاش وفرغانه وفتح محمد الثقفي بلاد الهند وولى الوليد ابن عمهِ عمر بن عبد العزيز المدينة فاختار عبد العزيز

عشرة من فقهائها لا يقضي امرًا بدون اخذ رايهم اولاً وكان عبد الملك ابو الوليد قد امر حسنًا والي مصر بتجديد حرب افريقية وهذا غب ان اخذ قرطاجنة ونهبها عاد الى القيروان لما قدم يوحنا قائد جيش الروم بعسكر غفير من القسطنطينية وقدم له مراكب وعسكر من صقلية واسبانيا كانت قد ارسلت بعد تركه دار القياصرة ثم رجع العرب وحاربوا الروم وظفروا بهم واحرقوا قرطاجنة تمامًا ولم تزل خربة الى اول الفاطميين فاقاموا منها قسمًا حقيرًا . . واستمرت الصوائف في عهده ففي (سنة ٧٦) خرج الروم الى العقيق فغزاهم محمد بن مروان من جهة مرعش ثم غزاهم من ناحية ملطية ودخل في الصائفة الوليد بن عبد الملك فاثخن في الروم ورجع وجاء الروم (سنة ٧٧) فحاصروا انطاكية وانهزموا وارسل عبد الملك ابنه عبد الله (سنة ٨١) بالعسكر ففتح قاليقلا وغزا محمد بن مروان (سنة ٨٢) ارمينية وهزمهم فسالوا الصلح فصالحهم وولى عليهم ابا شيخ ابن عبد الله فغدروهُ وقتلوهُ فغزاهم (سنة ٨٥) وصاف وشتى

ثم غزا مسلمة ارض الروم ودوخها ورجع وفعل ذلك (سنة ٨٧) فاثخن فيهم ناحية المصيصة وفتح حصونًا كثيرة منها حصن بولق والاحزم و بولس وقفيم . ثم غزاهم (سنة ٨٩) مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد وفتح مسلمة حصن سورية والعباس اردوليه وقيل ان مسلمة قصد عموريه وهزم جمعًا من الروم هناك وفتح هرقله وقموليه وغزا العباس الصائفة من ناحية البلديدون

وغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان وفتح حصونًا ومدائن ثم غزا (سنة ٩٠) وفتح الحصون الخمسة التي بسورية وغزا العباس حتى بلغ اردن وسورية و(سنة ٩١) غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك وكان الوليد قد ولى مسلمة على الجزيرة وارمينية وعزل عمهُ محمد بن مروان فغزا الترك من ناحية اذربيجان حتى الباب وفتح مدائن وحصونًا ثم غزا (سنة ٩٢) وفتح ثلثة حصون وجلا اهل سرمنه الى بلاد الروم ثم غزا العباس (سنة ٩٣) وفتح سبيطله وغزا مروان بن الوليد فبلغ صنجرة وغزا مسلمة ففتح ماشيه وحصن الحديد وغزالة من ناحية ملطيه وفتح العباس بن الوليد (سنة ٩٤) انطاكية وفتح عبد العزيز غزالة و بلغ الوليد بن هشام مروج الحمام ويزيد بن كبشه ارض سورية (وسنة ٩٥) غزا العباس ففتح هرقله (وسنة ٩٧) غزا مسلمة ارض الرضاضية وفتح حصن الرصاع وغزا عمر بن هبيرة الروم بحرًا وشتى بها (ابن خلدون)

و بعد انهزام الروم وتولي المسلمين في افريقية نهض السودان وتجمعوا الى ملكتهم داميه واقتتلوا مع العرب قتالاً عنيدًا التزم به المسلمون بالتخي وترك ما كانوا قد ملكوهُ مدة جيل واحد وبقي قائد المسلمين في حدود مصر ينتظر النجدة من امير المومنين خمس سنوات ولقائل كيف ان المسلمين انهزموا من الافريقيين بعد ان هزموا عساكر الروم . قلت اولاً لان اهل افريقية كانوا يحاربون

لطرد العدوعن وطنهم ثانيًا لانهم كانوا يعتقدون النبوة في نسائهم ويعملون بكلما يقلنَ لهم وكان لهم من التعصب والهوس الدينيين اكثر مما كان للسلمين ولاسيما ان عساكر العرب بعد محاربتهم الروم كانوا قد ضعفوا وقلوا .. وبعد تنحي المسلمين جمعت دامية رووس القبائل وعرضت عليهم رايًا يفيد مقدار اعتبار الحرية لدى اصحاب الجراءة وتفضيلها على كل شيء بملكونة فقالت « ان الذي يسوق العرب الى محاربتنا انما في مدننا وغنانا والحال ان هذه الاشياء الدنية ليست في غايتنا اذ تكفينا غلال الارض فلنهدم اذن هذه المدن وندفن في خرابها اموالنا وسبب هلاكنا حتى اذا ما نظروا عدم وجود مرغوبهم ارتجعوا عن محاربة قوم لايجهلون القتال » فاجمع الجميع على راي دامية واخذوا بالهدم من طنجة الى طرابلوس وعادت تلك الديار النامية كلها خرابًا

فشق امر مثل هذا على التجار واهل الرفاهة ولا سيما النصارى وكانوا يفضلون القرآن على تلك السنن والعوائد البربرية واقتبلوا القائد العربي عند رجوعهِ بفرح وهو حارب البرابرة وظفر بهم وقتل داميه ولاشى ملكها ثم عصوا مرّة ثانية فاخضعهم موسى بن نصير خليفة حسن وولداهُ عبد العزيز وعبد الرحمن واسروا منهم ثلاثماية الف عبد وبيع من الخمس الذي خص الخليفة ثلاثون الفًا وجعل ثمنهم في بيت المال وادخلوا ثلاثين الف شاب منهم في العسكر واجتهد موسى بتعليمهم عوائد العرب والدين الاسلامي الى ان عادوا يتكلمون العربية ودعوا عربًا من مشابهتهم عرب البادية بسكنهم القفار وقيل بل ان خمسين الفًا من العرب العرباء تجاوزوا النيل الى قفار افريقية ودعوا الافريقيين البيض

وبعد ان انهى العرب مسالة افريقية عادوا يهتمون باخذ ثارهم من الغوط سكان اسبانيا لمساعدتهم الروم عليهم وبينما كان العرب يفتحون البلاد مبتدئين من الجنوب الى الشمال كان الغوط يفتحون من الشمال الى الجنوب فتلاقوا عند حدود افريقية واوربا فصدم المسلمون قلعة كيوتة (سبته) المختصة بحكم اسبانيا وهي من عمودي هرقل في الجانب الافريقي وينفصل بينها وبين القلعة الثانية في حدود اوربا ذلك المضيق الحرج الذي يدعوهُ العرب باب الاسواق وهو الذي بهِ تدخل مياه الاوقيانوس الى البحر المتوسط المدعو مديترانيوس

فالتهام الكونت جوليانوس (بليان) امير القلعة وهزمهم اولاً ثم كتب الى موسى ان يتقدم وهو يسلمهُ المكان ويحثهُ على المجيء وافتتاح اسبانيا والسبب في ذلك ان الملك رودريكوس كان قد اساء السلوك الى كفا بنت جوليانوس وقيل لغير اسباب لامحل لذكرها هنا ومن جملة ما كتب له عنهُ ان الشعب كان يكره الحكم الحالي والمملكة في ضعف قوي فان الغوط لم يكونوا كما كانوا قبلاً عندما فتحوا رومة وقهروها وتملكوا من الدانوب الى المديترانيوس بل كانوا قد الفوا الراحة مهملين نظام

العساكر وصيانة البلاد مكتفين بالافتخار بما كان قد صنع اباوهم كعادة كثيرٍ من افرادٍ وامم

فمال موسى بن نصير عند قراءته كتاب جوليانوس الى السفر وارسل اولاً اعلم الخليفة عن ذلك واجاب جوليانوس بالوعد وارسل (سنة ٩٢-٧١٠) ماية فارس واربعماية راجل من المسلمين ليتجسسوا له الاخبار خوفًا من الخديعة فساروا من طنجة باربع سفن الى كيوته المذكورة المدعوة منهم الجزيرة الخضراء فاقتبلهم جوليانوس واكرمهم وارسل معهم اناسًا من اتباعهِ فغزوا الاماكن ونهبوها ورجعوا الى موسى · وقيل ان قائدهم كان طريف البربري مولى موسى وفيهِ خلاف · ثم رجعوا في اول الربيع من السنة نفسها باوفر عدد مع قائدهم طارق بن زياد وكان ذلك في سفن جوليانوس ونزلوا في الجانب الثاني الاوربي المدعو جبل طارق عند المضيق المقدم ذكرهُ ودعى جبل طارق نسبة الى القائد المذكور وهو الجبل المعروف بجبل الفتح قبلي الجزيرة الخضراء فاعلم رودريكوس الملك عن مجي العرب فامر فالتقاهم الامير اريكوس وحاربهم فهُزم · فعرض الامراء اهالي الاساكل القريبة الى دار الملك فجمع رودريكوس حكام الولايات والدساكر والاساقفة والاشراف ونحوهم وقر راي الجميع على محاربة العرب بقوة وكانت عساكر رودريكوس نحو ماية الف اما اصحاب طارق الذين جاءوا معهُ وبعده فكانوا اثني عشر الفًا ومثل ذلك من نصارى جوليانوس وجرت اول موقعة في ما بينهم نواحي قادس قرب مدينة اكزرس وفي الثلاثة ايام الاولى كان القتال مطاردة دون نظام اما في اليوم الرابع فابتدا من كل ناحية وكان الملك رودريكوس راكبًا على مركبة من العاج يجرها بغلان ابيضان وعليهِ رداء من الديباج مزركش بالذهب وعلى راسهِ تاج مرصع بالجواهر وكان كما قيل حاضر الجسم غائب العقل · وتضايق عسكر طارق لقلتهِ وقتل منهُ عدد غفير وكادوا ينهزمون · ولما راى طارق ذلك تقدم الى الامام وصرخ بهم قائلاً « يا اخوتي العدو امامنا والبحر وراءنا فالى اين نهرب اتبعوني فاني قد حلفت اليوم اما ان اموت او ادوس بقدمي ملك الرومان » وهجم من ساعتهِ واقتفت العساكر اثرهُ فوقع الخوف والخيانة في جيش الملك الغوطي وولوا الادبار وقتل عدد غفير منهم وترك رودريكوس مركبتهُ وهرب ولم يعلم اين ذهب وقد وجدوا جوادهُ وتاجهُ ورداءهُ على ضفة نهر بيتس ويظن انهُ غرق وان الراس الذي ارسل الى الخليفة لم يكن راسهُ

وبعد هذا النصر اشار جوليانوس على قائد العرب بان يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلاً « ان الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبددت والشعب في وجل عظيم فارسل رجالك واستلم مدينة بتيك واذهب انت وادخل طليطلة (طوليد) دار الملك ولا تعطهم وقتًا فيختاروا لهم ملكًا » فسمع طارق كلامهُ وذهب رجل رومي (كان قد اسلم واطلقهُ الخليفة) بسبعماية فارس لياخذ قرطبة وقطع النهر من السيلة وضرب البلدة وحاصرها نحو ثلثة اشهر واخذها عنوة · وقسم اخر من المسلمين

فتح الجانب الجنوبي من البنيك . اما طارق فسار من نهر البنيك الى طاغوس وقطع من المكان الفاصل بين كستيلية والاندلس ووصل الى طليطله (طوليد) تخت الملك فاغلقوا في وجهه الابواب ثم عقدوا شروط الصلح على ان لمن اراد من السكان حرية الذهاب بماله وتركوا للنصارى سبع كنائس وحرية الدين والشرائع وابقوا لهم قضاتهم واكرموا اليهود على ما ابدوهُ لهم من المساعدة بغضًا بالنصارى لاضطهادهم اياهم . وبقيت الالفة بينهم الى ان تركوا جميعًا تلك الديار . وتقدم طارق من طوليد الى جهة الشمال وفتح ما مرّ بهِ من البلاد وصارت فيما بعد ولايتين ولاية كستيلية وولاية ليون وغنم اموالاً جزيلة وما بينها تلك المائدة الزمردية التي كان الرومان قد اتوا بها من المشرق واخذها منهم القوط فارسلها مع غيرها الى الخليفة . فليتامل هنا الرجل الحكيم دوران الاشياء الدنيوية وتقلب احكام الاقدار والادهار

قال ابن حيان ما معناهُ . ان تلك المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود لم تكن له فيما يزعم رواة العجم (اي الفرنج) وانما في ايام ملكهم كان اهل الحسبة منهم اذا مات احدهم اوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منهُ الآلات الضخمة من الموائد والكراسي واشباهها من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا ابرزت في ايام المناسك ويضعونها على المذابح في الاعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل وتانقت الاملاك في تفخيمها يزيد الاخر منهم على الثاني حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الاواني وطار الذكر مطارهُ عنها وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ترَ الاعين مثلها وبولغ في تفخيمها من اجل دار المملكة وانهُ لا ينبغي ان تكون بمثابة آنية جمال او متاع مباهاة وكانت توضع على مذبح طليطلة فاصابها المسلمون هنالك وطار النبأ الفخم عنها قال وقد كان طارق ظن بموسى اميره مثل الذي فعلهُ من حسدهِ على ما نهيا له ومطالبتهِ له بتسليم ما في يدهِ فاستظهر بانتزاع رجل من ارجل المائدة خبأهُ عنده فكان من ظهورهِ بهِ على موسى عدوه عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الاثر في جهادهما ما هو مشهور (انتهى)

وقد ضربنا صفحًا عن ذكر كتب الحكمة التي وجدت في طليطله ضمن تلك الارصاد المصنوعة من الحكماء قديمًا لحفظ الاندلس من العدو فكان كلما قام ملك زاد الى الاقفال الموضوعة عليها قفلاً حتى صارت ستًا وعشرين وجاءت نوبة رودريكوس وكان غاصبًا فاراد فتح الارصاد المذكورة ليرى ما ضمنها ولم يرعوِ لكلام وزرائهِ ولما فتحها وجد مكتوبًا انهُ يوم تفتح تلك الارصاد تفتح المملكة ووجد منقوشًا صور الفاتحين . فكانت تلك الصور المنقوشة صور فرسان بعمائم وسيوف ونحوها طبق صور العرب انفسهم . ولهذه الارصاد قصة اشبه باضغاث احلام فمن اراد ان يطالعها فعليهِ بكتب

القوم مثل ابن حيان وابن خلدون والمقري ونحوهم

وبعد ان وصل طارق في مسيره الى جبال اسطوريا مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه وقف عند مدينة جيجون قرب خليج بسكاليا حيث تضرب امواج الاوقيانوس ورجع من هناك الى طوليد بطلب من موسى فان موسى عند ما سمع بنجاح طارق وشهرة اسمه لم يعد قادرًا على القيام حسدًا منه وخوفا من ان لا يترك له شيئا فحضر بعشرة الاف من العرب وثمانية من العبيد ونزل اولاً في الجزيرة الخضراء ورحب به الامير جوليانوس واظهر سروره بالنصر وطلب اليه ان يحارب بعض الغوط الذين لم يكونوا قد خضعوا لطارق بعد ولاسيما قلعة سبيله ومريده وكانتا مملوتين ابطالا وسار موسى الى غودياته وحاصر مدنها وتسلمها كلها . ولما تامل اعمال الرومانيين التي هناك كالجسر ومصانع المياه وابنية الظفر والملاعب الموجودة في لوسيتانيه العاصمة القديمة قال الى اربعة من رفقائه « كأني بالانسان قد جمع كل ما يقدر عليه من قوة وصناعة في بناء هذه المدينة فطوبى لمن امكنه التسلط عليها » واما سكان مريدة المعدودون من الرومان لتنازلهم من عسكر اوغسطوس قيصر فانهم قاوموه كالاسود وخرجوا من المدينة وضربوا عساكر العرب وقد امتدوا كثيرًا فلم يمكنهم الرجوع اليها فاحاطت بهم عساكر موسى وفتكوا بهم وأُلقي الحصار على البلد وبعد زمان طويل واستيلاء الجوع على المدينة سلموا بشروط وهي ان للاهالي الخيار ما بين ان يرحلوا او يدفعوا الخراج وقسموا الكنائس مناصفة وقبض على اموال من مات بالحصار او نزح قبل الامان ثم تلاقى طارق بموسى في طليطله وكان السلام بينهما فاترًا ثم اخذه طارق فاراهُ قصر الملوك الغوطيين فقال له موسى كيف انك تجاسرت على فتح مملكة دون اذن وطلب منه حسابا مدققا ليرسله الى الخليفة ثم ضربه وحبسه فعظم الامر على طارق ورفعت القضية الى دار الخلافة ثم اخرج طارق من سجنه وفتح ولاية طركونه وبنى بامر الخليفة جامع سيراكوس وفتحت مينا برسلونه لسفن الشام ولم يزل العرب يطاردون الغوط الى ان اجازوهم البرنات الى ولاية سبتيمانية وهي لنكوادوكه الان وبعد ان اقام موسى جماعة من رجاله لمحافظة الحدود رجع الى سواحل جليقيه ولوسيتانيه كل ذلك وابنه عبد العزيز يحارب سبيليه ومالقه وبلنسيه وبقية المدن البحرية التي فتح اكثرها

وذكر في المقري انه بعد ان رضي موسى مع طارق تقدم طارق امامه الى الثغر وتبعه موسى بعسكره ففتح سرقسطه واعمالها واوغل طارق في البلاد امامه فكانا الاثنان بموضع الا فتح لهما الابواب حتى انتهوا الى وادي ردونه منتهى موطنهم من ارض العجم (الفرنج) ودوخت بعوث طارق وسراياه فملكت مدينتي برسلونه واربونه وصخرة ابنيون وحصن لودون على وادي ردونه فبعد عن الساحل الذي دخلوا منه والمسافة بين قرطبة واربونه من بلاد افرنجة ثلاثمائة وخمسة وثلاثون فرسخا الي ثلثمائة وخمسين اه

وعمل عبد العزيز عهدة الصلح مع الامير تدمير (طودميرس) على السبع المدن التي كانت له وهذه صورتها

يعطي عبد العزيز الامان على الشروط الاتية بان لا يعارض تدمير في ماموريته ولا يجري عليه تعدٍ في المال ولا في الحال ولا في النساء ولا في الاطفال ولا في الدين ولا في الكنائس على ان يسلم سبع مدنه وهي اريوله وبلنتله واليكانته ومولة وبكاروزه وبيار واوره ولوركه وعلى ان لا يقبل ولا يساعد اعداء الخليفة بل يعلن بصدق وحق كل ما يحظه من ارائهم العدوانية ويدفع كل سنة هو وكل شريف من الغوط دينارًا واحدًا واربع كيلات حنطة ومثلها شعيرًا وقدرًا من الزيت والعسل ويدفع اتباعهم نصف ذلك كتب لاربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين للهجرة بحضر اربعة شهود من المسلمين

وكان موسى مع تقدمه في السن وابيضاض شعره مقدامًا يصبو الى المجد وافتتاح البلاد حازمًا عاقلاً ذا سياسة جليلة وكان في نيته من التقدم الى افتتاح باقي اوربا قاطعًا البرنات من الجانب الواحد فيحارب ويفتح بلاد الغالية حكام فرنسا وبلاد اللومبارد حكام ايطاليا ويتملك رومه العظمى عاصمة النصرانية وقاعدتها حينئذٍ ويذهب من الجانب الثاني الى جرمانية وياخذ مدنها ويتبع مجرى الدنوب ويفتح البلاد المار بها النهر المذكور كالمانية الجنوبية والمجر (هنكاريه) ونحوها الى البحر الاسود ومن هنالك يتقدم الى عاصمة القياصرة الشرقية ويغزو القسطنطينية ومملكة الروم ثم يقطع من اوربا الى اسيا الصغرى ويضيف ما يكون فتحه الى انطاكية والشام

ولم يكن موسى عند بنائه هذه الصروح الهوائية يفكر بانه مامور ورقيق امير المومنين ولا سيما انه كان باساءته معاملة طارق بن زياد كما سبق قد شكي الى دار الخلافة وكان ينتظر بروز الحكم من طرف دمشق وقد كان اصحاب طارق بينوا لدى الخليفة براءة شان طارق وتعدي موسى عليه ۰ فلم يطل الامر حتى حكم مجلس الامة في الشام على موسى وراى في تلك الاراء التي كان عرضها من فتح العالم شبهة في صدقه وهمة كبيرة يخشى من عواقبها ۰ فارسلوا يستدعونه الى دمشق على الفور ثم زادوه رسولاً على رسول لما وجدوا انه تاخر عن الحضور وكتبوا له كتبًا قوية والرسول الاخير بوصوله الى موسى وهو في منزله بغلاته في لوكوس اعلن له امر الخليفة ثم اخذ هو نفسه بتحضير فرس موسى ولجمه وامره بحضر المسلمين والنصارى بالركوب دون ابطاء فالتزم بالامتثال وترك الامر في ايدي ولديه عبد الرحمن في افريقية وعبد العزيز في الاندلس وهان الامر على موسى لما راى ان طارقًا كان مطلوبًا ايضا وبمروره على الجزيرة الخضرا اخذ ما كان جمعه من الذخائر الثمينة الافريقية والاسبانية وقاد صحبته اربعمائة امير غوطي عليهم التيجان والمناطق الذهبية وثلاثين الف

اسير من رجال ونساء فخرًا له وهدية للخليفة

فلما وصل الى طبرية حضرهُ رسول من قبل سليمان بن عبد الملك يقول له ان اخاه الوليد كان مريضًا وقريب الموت وبان يتاخر في مكانهِ الى ان يكون اخذ البيعة لنفسهِ على الناس اما موسى فخشي عاقبة ذلك اذا شفي الوليد وبقي سائرًا و بوصولهِ الى دمشق وقدمات الوليد أُلقي في السجن وصودر بدفع مابقي الف دينار فوق الهدية وعومل كما عامل طارق با لضرب علانية ثم جعلوهُ يوما كاملاً في الشمس وأُودع السجن ثم خوفًا من عاقبة هذه المعاملة لموسى امر سليمان فارسلت اوامر سرية الى افريقية وسبانيا بقتل عبد العزيز ولد موسى ففعل بموجبها . وكان قتل عبد العزيز في جامع قرطبه وقيل في قصره امام الشعب بناء على انهُ كان ساعيًا بالاستبداد وقد عقد زواجًا مع اجيلونه زوجة رودريكس الملك المار ذكرهُ واخذ راسهُ الى ابيهِ وجعل امامهُ ثم سئل اذا كان يعرف ذلك الراس فاجاب بغضب ممتزج باليأس نعم اني اعرفهُ واعرف براءتهُ واسال الله ان يحل على رؤُوس قاتليهِ ميتة مثلها ثم أُذن له بالحوق بمكة فسار اليها و بعد وصولهِ بقي قليلاً ومات حزنًا وغما في وادي القرى لا يملك شيئًا يتسول من الناس ليعطي اولئك الذين كانوا يعذبونهُ من قبل الخليفة واما طارق فانهم جعلوهُ رقيقًا لا غير

فمن يسمع لعمري هذا ولا يتعجب من كفر الاولياء والحكام وعدم ثبات الملوك وتقلبهم وظلمهم فان هذه المعاملة الدنية الغادرة اللئيمة ستبقي ذكرًا عائبًا وعارًا لازبًا على سليمان بن عبد الملك ما تليت التواريخ وذكر اسم موسى وطارق ولكن ليس هذا اول حادثة تاريخية فان امثالها كثيرة قبل ذلك و بعده وهذا هو داب طلاب الدنيا اذ انهم مسخرون بعضهم لبعض واخرتهم جميعا الى الندم والموت وما احسن ما قيل

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم غلب الرجال وما اغنتهم القللُ
واستنزلوا بعد عزٍ عن معاقلهم فاودعوا حفرًا يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا اين الاسرة والتيجان والحللُ
اين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار والكللُ
فافصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما اكلوا دهرًا وما شربوا فاصبحوا بعد طول الاكل قد اكلوا

وسمح عرب موسى وطارق لاخوتهم الذين في افريقية ومصر ان يشتركوا معهم في مشيدات موركه ولسبونه وفي اقل من قرنٍ واحد نمت وزادت مداخيل تلك البلاد بالزراعة والتجارة والصنائع ونحوها وكان الخليفة بعد سنين قليلة يستورد سنويا نحو اثني عشر الف الف وخمسة واربعين الف دينار ما عدا الجبايات واموال الفتوحات ونحوها مما لا يحد وكان هذا المبلغ في ذلك العصر اعظم

من كل مداخيل ملوك اوربا فان في قرطبه تخت الملك كان يوجد سعاية جامع وتسعماية حمام ومايتا الف بيت وكان تحتها ثمانون مدينة من الرتبة الاولى وثلاثماية من الرتبة الثانية والثالثة واثنا عشر الف قرية وكان هذا النمو من نتائج الحرية فان العرب في طباعهم منذ الجاهلية حب الحرية فلم يكونوا يتعرضون لاحد في معتقد وكانوا بعد الاسلام يكتفون باخذ الجزية ممن لم يسلم وهو آمن في ماله ودينه وقد ايقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين الى العلوم والصنائع وظهر فضل اولى النباهة والذكاء ممن كانوا غائصين في بحار الجهل. وضعفت النصرانية جدًا في زمانهم حتى انحسمت من افريقية كلها وعاد مطران قرطاجنة يطلب الاحسان من رومة ويتشكى من الفقر المدقع وكان نصارى اسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر واكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى دعوا (مزّارابى) اي انصاف عرب وفي الجيل الثاني عشر لم يبقَ ذكر للنصرانية والاساقفة لافي افريقية ولا في قرطبه واشبيلية والنسة وغراناطه ونحوها ونسي الدين الروماني بالاصالة من طرابلس الى الاوقيانوس وهكذا اللغة وامتد العرب في سواحل الهند ايضًا ومن شيراز الى سمرقند. وكان المجوس لا غير يابون عن الدخول في الاسلام الى ان احترق هيكلهم في حران وتبددوا ولم يبقَ منهم الان الا قليل في كرمان على سواحل الهند ونحوها. وكان الخلفاء الاول يشتبهون في صدق الكاثوليك واسم ملكية يذكرهم دائمًا ميلهم الى ملوك الروم بخلاف اليعقوبية والنساطرة لانهم كانوا اعداء الروم ولكن هذا الفرق انتسى مع الوقت واخذت قضاة المسلمين تحامي عن البطاركة والاساقفة واستخدموا النصارى في الكتابة والطب ودواوين الخراج وادارة المدن والمعاملات وقد قال احد العباسيين « انه لا يمكن الثقة في سياسة بلاد العجم الا بالنصارى لان الاسلام لا يعباون بالنظام لنعمتهم الحاضرة والمجوس لتلهفهم عليها وقد زالت واليهود لا نتظارهم ملكًا ونعمة مستقبلة»

وهذه الحرية استمرت في كل الاجيال الوسطى وكانت على ازدياد مدة الخلافة العربية وفي زمان الوليد امتد حكم الاسلام مسافة مايتي يوم من المشرق الى المغرب من التتارية الهندية الى الاوقيانوس لانهم تملكوا العرب والعجم والشام وافريقية وسردينية وسبانيا ونحوها وامتدوا الى نواحي الصين وكانوا يدرسون العربي في سمرقند وقرطبة ويتلون القرآن بكل قبول وورع وكان الهنود والسودان يلتقون في مكة ويتخاطبون باللسان العربي

وتوصلت المملكة الى اقصاها وظهرت على كل الممالك قدرة وغنى واقام الوليد مسجد بني امية في دمشق وقيل انه انفق عليه اربعمائة صندوق كل صندوق اربعمائة عشر الف دينار وكان فيه من جملة النفقة ثما عشر الف مرخم ويقال انه كان فيه سمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل فكانت تخشي عيون الناظرين وتفتن المسلمين فازالها عمر بن عبد العزيز وردها الى بيت المال

وفي اول الامر كان الخلفاء قانعين بالدراهم العجمية واليونانية الرائجة في زمانهم الى ان امر عبد الملك بن مروان بضرب نقود جديدة باسم دنانير ونقش الحجاج فيها « قل هو الله احد » فكره الناس ذلك لانه قد يمسها غير الطاهر. ثم بولغ في تخليص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة ايام يزيد بن عبد الملك عليه . ثم زاد خالد القصري عليهم في ذلك ايام هشام. ثم افرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار وضرب عليه فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية . ثم امر المنصور ان لا يقبل في الخراج غيرها وسميت النقود الاولى مكروهة اما لعدم جودتها او لما نقش عليها الحجاج . وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر فكان منها مثقال عشرين قيراطا واثني عشر وعشرة قراريط فجمعوا قراريط الثلاثة فكانت اثنين واربعين فجعلوا ثلثها وهو اربعة عشر قيراطا وزن الدرهم العربي فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل . وقيل ان مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة ايام اخيه عبد الله والاصح ان عبد الملك اول من ضرب السكة في الاسلام

وامر الوليد بعده بعدم استعمال اللغة اليونانية وارقامها في الحسابات الجمهورية وامتدت لذلك الارقام الهندية التي اخذها العرب عن الهند وتسهلت بذلك المحاسبات وفتح ابواب عظيمة واكتشافات جليلة في العلوم الرياضية

وفي عهد سليمان اخي الوليد تجددت الحرب بين العرب والروم و (في سنة ٧١٦ – ٩٨) في عهد انسطاسيوس قيصر ركب مسلمه بن عبد الملك بمائة وعشرين الفا من العرب والعجم على القسطنطينية وحارب في طريقه طيان وعمورية وفرغام من اسيا الصغرى ودخل بوغاز كليبولي وتجاوز البحر من المكان المدعو ممر العرب ودخل الى اوربا وقطع ثراقيه على سواحل بحر مرمره الى ان قابل القسطنطينية من الجنوب واقام مضارب عسكرهِ واعلن الحرب على الروم والقى الحصار . وكان انسطاسيوس قيصر قد علم تجهز العرب عليه فاخذ الاحتياطات اللازمة وامر السكان بالاستعداد وتحضير اللوازم الكافية لحصار ثلاث سنين وان يترك الذين لا قدرة لهم العاصمة . وملأ الساحات والاهراء بالذخائر واصلح الاسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والحجار ونحوها وكذلك اهتم الروم باحراق عمارات العرب و بعرسة العدو قبل ان يلتزموا الى المدافعة فارسلوا اناسًا لذلك الا ان اولئك المجهزين للعمل قتلوا مقدمهم وتركوا سناجقهم في رودس وتفرقوا في الاماكن المجاورة الى ان قام ملك ثان وعفا عنهم . وكان الملك الجديد احد حراس بيت المال رجلاً ساذجًا لا يصلح لشي اسمه ثيودوسيوس فلم يستقر غير شهر وخلع وخلفه ليون اسوريكوس وكان رجلاً لائقًا للملك

ولما قدمت عساكر مسلمة ونظرها اهل القسطنطينية داخلهم الوهم وعرضوا على المسلمين الصلح بان يودوا لهم الجزية سنويًا عن كل انسان دينارًا ا. اما مسلمة فلم يقبل وداخله الطمع لما راى وصول العمارة العربية التي خرجت من بحر الشام ومرت بعمارة المصريين الكائنة على ثغور فرنسا وقتئذٍ واتت بها وكانت جميعًا نحو الف وثمانمائة سفينة اعظمها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم والروم عند نظرهم قدوم تلك الاساطيل امروا فرفعت السلسلة القاطعة المينا لكي تدخل السفن وتستامن داخل البوغاز. وهكذا مسلمة من جهته عين تلك الليلة للهجوم برًا وبحرًا ولما وصلت المراكب الى حيث في السلسلة وقفت متحيرة ما بين ان تدخل او ترسو في مكانها خوفا من حيلة ما واذا بالنار الرومية قد اشتعلت من كل جانب واحرقت تلك الاوامد كلها ولم يسلم منها واحدة وغرق من فيها من العساكر ثم جاء العلم بتوفي سليمان بن عبد الملك (سنة ٧١٧-٩٩) وفتح في خلافة سليمان اكثر اسيا الصغرى

وفتح يزيد بن المهلب بن ابي صفرة والي خراسان جرجان وطبرستان وكانت مدة خلافة سليمان سنتين وثمانية اشهر وعمرهُ خمسًا واربعين سنة ومات بدابق في ارض قنسرين وكان طويلاً جميلاً به عرج مغرمًا بالنسا كثير الاكل حج مرة الى مكة وكان الحر كثيرًا فتوجه الى الطائف طلبا للبرودة فاتى برمان فاكل سبعين رمانة وجيء بجدي وست دجاجات فاكلها ثم جيء بزبيب الطائف فاكل منهُ كثيرًا ونام ثم انتبه فاتوا بالغدا فاكل على عادتهِ وقبل موتهِ كان قد اكل زنبيلين من التين والبيض (الطفهُ بهما بعض المسيحيين) فامر بان يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى اتى على الزنبيلين ثم اتوهُ بمخ وسكر فاكل فاتخم ومرض ومات

وكان شديد الغيرة وفي عهده خصى ابو بكر محمد بن عمر والانصاري المخنثين بالمدينة. وقبل كان العامل على المدينة ابا بكر عمر بن حزم فكتب اليه سليمان يقول احصِ من عندك من المخنثين واتفق ان نقطة من السطر الاعلى وقعت فوق الحاء فصارت خاء فخصاهم

و بعد موت سليمان خلفهُ عمر بن عبد العزيز المعروف بعمر العدل وكان يكره مسلمة ولعدم اكترائهِ بالامور الدنيوية تركهُ في حصارهِ غير سائل كل الشتاء وكان ذلك الشتا قاسيا وبقي الثلج مغطيا الارض مائة يوم. ومات كثير من العسكر بالبرد ولكن لما قدم فصل الربيع تشددت الجنود الباقية ولاسيا عند وصول عمارتين جديدتين لمساعدتهم بالرجال والذخائر الواحدة اربعمائة سفينة مشحونة قمحًا من الاسكندرية والثانية ثلاثمائة وستون سفينة من افريقية غير انهما صادفتا ماصادفته العمارة الاولى ولم يخلص منها الا ما قل. وارتاح الروم قليلاً وبدت الحركة والمتجر وصاروا يغتذون بالسمك ونحوه اما عساكر مسلمة فوقع فيهم الجوع والمرض وعادوا ياكلون ما يجدون واستاجر

ليون البلغاريين فجاءوا واقتتلوا مع المسلمين وقتلوا منهم نحو عشرين الفا وشيعوا الاخبار بان الافرنج كانوا يجهزون برًّا وبحرًا لمساعدة الروم فتشددت بذلك الاهالي وخافت العرب . و بعد ثلاثة عشر شهرًا جاء الامر لمسلمة بان يرجع وهو ماصدق ان خاص من تلك البلوى وسافر بمن بقي معهُ من الجيش مارًّا بمضيق كليبولي من حيث دخل دون معارض الا انهُ عند وصولهِ الى جبنيه قاوم مسيرهُ الاهالي وقتلوا منهُ كثيرًا . ولم يصل من كل تلك المراكب الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية ولكنهم داموا ابدًا يغزون الصوائف في كل مدة كما تقدم

فاخفاق العرب في ركبة القسطنطينية منعهم من تخطي اوربا من جهة المشرق اما من جهة المغرب فان عرب الاندلس شنوا الغارات على افرنسه وساعدهم على ذلك سقوط الدولة المروونجية وقتئذٍ اعني بني كلودوبوس فان الامراء الاواخر من هذه الدولة كانوا معتقلين في قلعة بقرب قومبيان وكان الحكم لامراء القصر وهم وزراء الامة وكان على اولئك توقيع الاوامر لا غير ورؤساء القصر يتحكمون كما شاءوا حتى على الملوك وكانت ولايتهم ارثية في عيلة واحدة . وكان اصحاب الاقطاعات ايضا يستقلون بولاياتهم ويامرون بما يريدون واشهر هولاء الاقطاعيين ايود حاكم اكيتانيه الذي كان قد تغلب على كل الاماكن الجنوبية من هذه المملكة ودعا نفسهُ ملكًا

ثم توقف جريان ذلك النهر العظيم راجعًا على نفسهِ الى زمان . وكانت الحركات الداخلية قد بدات على بني امية لان كل المسلمين الا الشاميين كانوا يكرهون تلك الدولة فانها اخر من اسلمت واول من خضبت ايديها بدم اهل الكرامات عندهم

اما نهوض عمر العدل (سنة ٧١٧ــ ٩٩) على تخت الخلافة فجعل فترة لان ذلك الامير لم يكن يهتم الا بالامور الدينية وزيارة المساجد وكان يلبس قميصًا واحدًا لا غير ويصرف على نفسهِ شيئًا لا يذكر وقيل درهمين فقط كل سنة ولعلهُ مبالغة مع ان الاسراف كان قد دخل في الدولة الاسلامية ولم يضف في عهد عمر المشار اليهِ الى فتوحات الامة الا جرجان وطبرستان

فصل

في الربع الاول من القرن الثاني

وابطل عمر تلك اللعنات التي كانت تتلى على المنابر ضد الامام علي وآل بيتهِ وكان يرددها كل خليفة منهم من عهد معاوية اليه وذلك ان عمر دعا يومًا رجلاً عبرانيًا وامرهُ بان ياتي اليهِ في يوم معين وهو في مجلسهِ ويطلب منهُ بحضر الجالسين ابنتهُ زوجة فغاب الرجل وحضر في اليوم المعلوم وطلب من عمر المصاهرة فاجابهُ الخليفة ان ذلك غير ممكن لاختلاف الدين فاجابهُ اليهودي

الم يدفع النبي ابنته زوجةً لعلي بن ابي طالب فقال عمر بلى ولكن عليا كان مسلمًا وصار اميرًا للمومنين فقال اليهودي ولماذا تلعنونه انتم علنًا في الجوامع فالتفت عمر حينئذٍ الى جلسائهِ وقال ماذا تجيبون بهِ هذا الرجل فلم يقدر احدٌ منهم على الجواب فامر عمر وقتئذٍ بمنع ذلك . قالوا وعند ابطالهِ تلك اللعنات جعل مكانها ان الله يامر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون « الاية » وقد مدحهُ كثيرٌ بن عبد الرحمن الخزاعي على ذلك بقولهِ

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخن بريا ولم تتبع سجية مجرم

وقلت فصدّقت الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضيا كل مسلم

وكان عمل عمر هذا سببًا لتحالف بني امية عليهِ ورشوا عبدًا فسقاهُ السم وعمر بعد ان شربهُ عرفهُ فدعا بالساقي وسالهُ عن سبب غدرهِ بهِ فوقع العبد على قدمي عمر واقر بانهم رشوهُ بعشرين الف درهم فقال له عمر اذهب واترك هذه الدار وضع المال في بيت مال المسلمين فلا يتكلم احدٌ عنك ولا عن فعلك فيما بعد وتوفي عمر بخناصرة (سنة ٧١٩ــ١٠١) وعمرهُ اربعون سنة واشهرٌ وخلافتهُ سنتان وخمسة شهور ودفن في دير سمعان وكان من اهل القسط وتحرى سيرة الخلفاء الراشدين

ثم نهض يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاصي بن امية وهو تاسعهم . وفي ايامهِ ثار يزيد بن المهلب بن ابي صفرة واجتمع اليهِ كثير وارسل يزيد اخاه مسلمة فقاتلهُ وقتل ابن المهلب وجميع آلهِ وكانوا مشهورين بالكرم والبسالة وفيهم يقول الشاعر

نزلت على آل المهلب شاتيا غريبا عن الاوطان في زمن المحل

فما زال بي احسانهم وافتقادهم وبرّهم حتى حسبتهم اهلي

وفي عهد يزيد جرت حروب بين الاسلام والترك وغزا المسلمون الصغد واقتتلوا مع الخزر وهم التركمان واستعان الخزر بالقفجاق وغيرهم من انواع الترك وهزموا المسلمين في نواحي ارمينيه وكان المتولي على الجزيرة وارمينية ابن هبيرة . وكان القتال بمرج الحجارة ثم اقبل المنهزمون على يزيد فجهز يزيد الجراح بن عبدالله الحكمي بجيش كثيف وولاه على ارمينية وحارب الخزر وانتصر عليهم وسبى وفتح بلنجر وقسمت الغنائم فكان للفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين الفًا ثم ارجع الجراح حصن بلنجر الى صاحبهِ ورد عليهِ اهلهُ وماله على ان يكون عينا للمسلمين ثم نزل على حصن الوبيد وكان فيهِ اربعون الف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال ثم مسكوا عليهِ الطرق فاقام في رستاق سبى وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد وكان ذلك في وقت توفي يزيد بعده بطلبهِ هشام واقره على العمل . . . وموت يزيد كان(سنة ٧٢٣ــ١٠٥) وعمره اربعون سنة وكان قد عهد لاخيهِ هشام وبين

بعده لابنه الوليد بن يزيد . وكان يزيد صاحب لهو وطرب . وكان عمر هشام لما ولي الخلافة اربعا وثلاثين سنة

وفي (سنة ١٠٥) غزا مسلم بن سعد الترك فعبر النهر وعاث في بلادهم وتفل فتبعه الترك فعبر النهر ولم ينالوا منه اربا ثم غزا افشين فصالحوه على سنة الاف ثم سلموا اليه القلعة ثم غزا (سنة ١٠٦) فابطا عنه الناس وكان ممن ابطا البختري بن درهم فارسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وامره ان يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ وقتئذٍ عمر بن مسلم فذهب نصر واحرق باب البختري وزياد بن طريف الباهلي ومنعهما عمر من دخول بلخ وكانت فتنة وشقاق . ثم امنهم نصر وامرهم بان يلحقوا بمسلم بن سعيد ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحق من اصحابه سار الى بخاري فجاءه كتاب خالد بن عبد الله القسري بولايته ويامره باتمام الغزوة فسار الى فرغانه و بلغه ان خاقان كان قادمًا عليه فارتحل وتبعه خاقان بعد ثلاثة مراحل واطاف بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الدياحي والبراء من فرسان المهلب وغيرهما ورحل مسلم بالناس ثمانية ايام والترك مطيفون بهم بعد ان امر باحراق ما ثقل من الامتعة فاحرقوا ما قيمته الف الف واصبحوا في اليوم التاسع قريب النهر ودونه اهل فرغانة والشاش فامر مسلم الناس ان يخرطوا سيوفهم ويحملوا فافرج اهل فرغانة والشاش عن النهر وعبر مسلم بعسكره واتبعهم ابن خاقان . وكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنًا بالجراح فبعث الى مسلم بالانتظار وعطف على الترك فقاتلهم واسر قائدهم وقائد الصغد ثم اصابه سهم فمات واتوا خجندة وقد اهلكهم الجوع

وفي عهد هشام (سنة ١٠٧) توفي سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج الرسول وهو احد فقهاء المدينة السبعة وهم عبد الله المسعودي . وعروة بن الزبير القرشي . وقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسعد بن المسيب القرشي . وسليمان المذكور . وخارجة بن زيد بن ثابت الانصاري . وابو بكر بن عبد الرحمن من بني المغيرة المخزومي

ولم تزل الحرب بين الترك والمسلمين مدة طويلة منها وقعة الشعب بين جنيد وخاقان الترك (سنة ١١٢) وكانت مدمرة للطرفين . و (في سنة ١١٩) غزا اسد بن عبد الله القسري بلاد الترك فانتصر عليهم وقتل منهم كثيرًا وقتل خاقان الاتراك و (سنة ١٢١) غزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وارمينية بلاد صاحب السرير ورتب عليه الجزية سبعين الف راس يوديها كل سنة . وغزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم ففتح حصونًا وغنم . وغزا نصر بن سيار بلاد ما وراء النهر وقتل ملك الترك ثم مضى الى فرغانه فسبي بها . . . و (سنة ١٢١ و ١٢٢) خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بالكوفة ودعا الى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فقاتل زيدًا فقتل زيد واخذ راسه وارسل الى هشام وصلبت جثته .

وفي خلافة هشام ثارت روح العصاوة وتقوت ايدي الاحزاب المترشحين للخلافة وكان هشام بخيلاً فانه جمع مدة خلافته التي في تسع عشرة سنة وتسعة اشهر سبعماية صندوق من الجواهر والملبوسات الفاخرة وكان يحفظ مفاتيحها عنده ولما توفي لم يجدوا قميصاً خارجاً عنها يلفونه به . وفي خلافته تحمل المسلمون اول هزيمة في المغرب قرب بواطير (سنة ١١٤–٧٣٢) ضد كارلوس مارتللو فان العرب بعد ان حاربوا ايود حاكم اكيتسانيه بن صبيته من الغوط والكوكصون والفرنسويين تجاوزوا البرنات فاتحين جنوب فرنسا وحلوا بربون وكسكونيه وما حول بورضو . ودخل كثير من سكان تلك البلاد في الاسلام من كارونه الى رودان وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الوالي في اسبانيا وهذا الامير لما راى النصر في وجهه عزم على فتح بقية فرنسا ومن بعدها اوربا كلها فجهز عسكراً غفيراً (سنة ١١٣–٧٣١) وقطع البرنات ورودان كما ذكر والقى الحصار على ارلص وفتحها عنوة وقتل خلقاً كثيراً وتجاوز نهري كارونه ودردونيه من جهة المحيط وهما اللذان يصبان في خليج بورضو والتقى بعساكر ايود الثانية فانه كان قد هزمه اولاً وفتك بهم وقتل منهم ما لا يعد وامتدت من هناك عساكر المسلمين في ولايات اكيتانية مثل بريغرد وصانطنج وبواطو وضربت عبد الرحمن مضاربه اخيراً امام طورس ولنس وقطع بعض العسكر بوركونية وحلوا امام مدينتي ليون وبزنزون الشهيرتين ولما لم يجدوا ما يكفيهم من السلب فيها لتاخر الصنائع وقتئذٍ والاقتصاد في المفروشات نهبوا الاديرة والكنائس واحرقوها ونهبوا ايضاً قبر مار ايلاريوس في بواطير ومار مرتينوس في طورس لغناها وهكذا كلما وجدوا في طريقهم مسافة الف ميل من جبل طارق

ولما راى الفرنسويون ما حلَّ بهم من الخراب والدمار انتخبوا كارلوس المذكور من امراء البلاط الملوكي المستحق بنسب بيبنوس وكان كارلوس مقداماً ذا دهاء وفطنة محبوباً من اصحابه مرهوباً من اعدائه وكان اهل فرنسا يتساءلون مذعورين « ما هذا الذل طالما سمعنا بقوة العرب وكنا نخشى مجيئهم من جهة المشرق فما بالهم فتحوا اسبانيا واتونا من نحو المغرب اتتركهم يملكون بلادنا وهم اقل عدداً منا وسلاحهم اقل من سلاحنا » وبكلام مثل هذا كانوا يجرئون بعضهم بعضاً اما كارلوس (قارله) فبعد ان اجاب طلب الاهالي امرهم ان لا يعارضوا العرب ولا يخاطروا بذواتهم قائلاً « هؤلاء القوم هم كنهر جارٍ لا يمكن توقيف مائه وحب الغنى والمجد مضاعف جزائهم والجراءة تغلب الكثرة فدعوهم يكتفون من النهب حتى اذا ما اكتفوا يعثرون بحركاتهم ويكون ذلك سبب للاختلاف بينهم » ثم جمع عساكره وقد وصلت اهالي جرمانية وغيرهم لمساعدته وركب على الاعداء فوجدهم في وسط فرنسا ما بين مدينة طورس وبواطير وكان وصوله اليهم بغتةً لمجيئه خافيا عن انظارهم بسلسلة جبال ثم انقض عليهم والتقوه بجراءة متساوية واشتبكت جيوش المشرق والمغرب

للقتال وكان ذلك القتال موقوفا عليهِ تغير هيئات الامور في اوربا وبقيت الحرب سبعة ايام وكانت في الستة الايام الاولى خفيفة والوجه فيها للعرب اما اليوم السابع فامتد فيهِ الطعان واشتعلت النيران وتصادم الفريقان واظهر الجرمن شجاعةً ومقدرةً لامزيد عليهما وقد ساعدهم على ذلك عظم ابدانهم وانجلى القتال عن هزيمة العرب وقتل عبد الرحمن فانكفات جيوشهم الى الخيام بحالة كئيبة ووقع النزاع فيما بينهم وجردوا السلاح على بعضهم بعضًا واخذ كلٌّ من الامراء والقواد واتباعهم بالفرار ولم يبقَ منهم احد الى الصباح . ولما نظر النصارى انقطاع الصوت في خيام الاعداء ظنوا ذلك حيلة ولكنهم وجدوهُ بعد التحقيق صحيحًا ولم يتركوا وراءهم من السلب الاّ قليلاً فانتشر خبر هذا الانتصار في كل اوربا وعادت العساكر الجرمانية مكللة بالظفر ورجع ايود الى ماموريتهِ وكان ذلك اخر ما افتكر العرب بفتح فرنسا . ولم يزل كرلوس الملقب بالمهدة يطاردهم حتى تجاوزوا البرنات . ومن العجب المختص بذلك العصر ان كارلوس الذي خلص بلادهُ واوربا كلها من العدو لم ينل شكرًا عن ذلك من الاكليروس لانهُ استخدم اموال الاساقفة والكهنة لخير الوطن بل انهم ابغضوهُ وحكموا عليهِ بالهلاك حتى ان بعضهم كتب كتابًا بعد موت كارلوس الى كارلوس ونجبوس من ذريتهِ يقول فيهِ ان جدهُ قد قضى عليهِ بالهلاك واستشهد على ذلك بان عند فتح ضريحهِ خرجت منهُ نتانة نارية لم يشم نظيرها ونظر فيهِ ثعبان مخيف وبان احد القديسين شاهدهُ يتعذب روحًا وجسدًا في الاعماق الابدية

ومن مورخي المسلمين من يجعل ذلك في عهد موسى والاصح ما تقدم . قال الحجاري في المسهب ان موسى بن نصير نصرهُ الله نصرًا ما عليهِ مزيد واجفلت ملوك النصارى بين يديهِ حتى خرج على باب الاندلس الذي فيهِ الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة فاجتمعت ملوك الافرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذا اسم ملكهم فقالت لهُ ما هذا الخزي الباقي في الاعقاب كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى اتوا من مغربها واستولوا على بلاد الاندلس وعظم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم فقال لهم ما معناهُ الراي عندي ان لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل ما يصادرهُ فهم في اقبال امرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة الدروع ولكن امهلوهم حتى تمتلي ايديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذٍ تتمكنون فيهم بايسر امر فكان كذلك بالفتنة التي طرات بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء — وقيل ان موسى بن نصير اخرج ابنهُ عبد الاعلى على تدمير ففتحها والى غرناطه ومالقه وكورة رية ففتح الكل

وقيل ان موسى بن نصير كان يرغب جدًا الوصول الى جليقية وبينا هو كذلك اتاه

مغيث الرومي رسول الوليد بامرهُ بالخروج عن الاندلس والاضراب عن الوغول فيها وباخذهُ بالنفول اليهِ فساء ذلك موسى ومنعهُ عن ارادته اذ لم يكن في الاندلس بلد لم تدخلهُ العرب غير جليقية فكان شديد الحرص على افتتاحها فلاطف موسى مغيثًا رسول الخليفة وساله انظارهُ الى ان ينفذ عزمهُ في الدخول اليها والمسير معهُ في البلاد ايامًا يكون شريكًا في الاجر والغنيمة ففعل ومشى معهُ حتى بلغ المفازة فافتتح حصن (بارو) وحصن (لك) فاقام هنالك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الاخضر فلم تبقَ كنيسة الاَّ هدمت ولاناقوس الا كسر وطاعت الاعاجم (اي الفرنج) فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز فاتسع نطاق الاسلام . وبينما موسى كذلك اذ قدم عليهِ رسول اخر من الخليفة يكنى ابا نصر اردف بهِ الوليد مغيثًا لما استبطا قفول موسى وكتب اليهِ يوبخهُ ويامرهُ بالخروج فانقطع من مدينة لك بجليقيه وخرج على الفج المعروف بفج موسى ودا ناهُ طارق في الطريق منصرفًا من الثغر الاعلى فاقفلهُ مع نفسهِ ومضيا الى اشبيلية فاستخلف موسى ابنهُ عبد العزيز على امارة الاندلس واقرهُ باشبيلية وركب موسى البحر الى الشام (سنة ٩٥) انتهى ملخصًا عن المقري

وتوفي هشام بن عبد الملك (سنة ١٢٥) بالرصافة بمرض الذبحه وعمرهُ خمس وخمسون سنة وكان احول وخلف عدة بنين منهم معاوية ابو عبد الرحمن الداخل الذي في الاندلس وكان هشام حازمًا سديد الراي غزير العقل عالمًا بالسياسة وهو الذي بنى الرصافة بالشام ودعيت رصافة هشام وابتنى بها قصرين وبها دير معروف وهي حسنة التربة صحيحة الهواء

اما الصوائف ففي ايام يزيد سنة ١٠٢) غزا عمر بن هبيرة الروم في ناحية ارمينية وهو على الجزيرة فهزمهم واسر منهم وقتل سبعماية اسير . وغزا العباس بن الوليد ايضًا وغنم ثم (غزا سنة ١٠٣) ففتح مدينة رسلة ثم غزا الجراح الحكمي ايام هشام (سنة ١٠٥) فبلغ وراء بلنجر وغنم . وغزا في هذه السنة سعيد بن عبد الملك ارض الروم وبعث الف مقاتل في سرية فهلكوا جميعًا . وغزا فيها مروان بن محمد بالصائفة اليمنى ففتح مدينة قريبة من ارض الزوكخ . ثم غزا سعيد بن عبد الملك بالصائفة ايام هشام (سنة ١٠٦) ثم غزا مسلمة بن عبد الملك الروم من الجزيرة وهو والٍ عليها ففتح قيسارية . وغزا ابرهيم ابن هشام ففتح حصنًا . وغزا معاوية بن هشام بالبحر قبرس وغزا (سنة ١٠٩) ففتح حصنا اخر يقال لهُ طبسة . وغزا (سنة ١١٠) بالصائفة عبد الله بن عقبة الفهري وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية . وغزا بالصائفة اليسرى (سنة ١١١) معاوية بن هشام وبالصائفة اليمنى سعيد بن هشام وفي البحر عبد الله بن ابي مريم . وفتح معاوية في صائفة (سنة ١١٢) مدينة خرشنة . وغزا (سنة ١١٣) عبد الله البطال فانهزم وقتل عبد الوهاب في اصحابهِ . ودخل معاوية بن هشام ارض الروم من ناحية مرعش . ثم غزا (سنة ١١٤) بالصائفة اليسرى "اصحاب" ربض المرق والتقى

عبد الله مع قسطنطين فهزمهُ واسرهُ · وغزا سليمان بن هشام بالصائفة اليسرى فبلغ قيسارية وهزم مسلمة بن عبد الملك خاقان وباب الباب · وغزا معاوية بن هشام بالصائفة (سنة ١١٥) · وغزا سفيان بن هشام بالصائفة اليسرى (سنة ١١٧) · وسليمان بن هشام بالصائفة اليمنى من ناحية الجزيرة وفرق السرايا في ارض الروم · وغزا معاوية وسليمان ارض الروم (سنة ١١٨) وغزا فيها مروان بن محمد في ارمينية ودخل ارض وارقيس فهرب وارقيس الى الخزر فنازل مروان حصنهُ وحاصرهُ وقتل وارقيس بعض من اجتاز بهِ وبعث برسالة الى مروان · وغزا مروان بن محمد من ارمينية ومرّ ببلاد اللان الى بلاد الخزر على بلنجر وسمندر وانتهى الى خاقان فهرب خاقان منهُ · وغزا سليمان بن هشام (سنة ١٢٠) بالصائفة فافتتح سندره · وغزا اسحق بن مسلم العقيلي قوما نساه وافتتح قلاعهُ وضرب ارضهُ · وغزا مروان من ارمينية (سنة ١٢١) وافتتح قلعة بيت السرير وقتل وسبي ودخل حصنًا لهُ يسمى جورج فيهِ سرير الذهب فنازلهُ مروان حتى صالحهُ على الف فارس كل سنة ومائة الف مدني ثم دخل ارض ارزف ونضران فصالحهُ ملكها ثم ارض نومان كذلك ثم ارض حمدين فاخرب بلاده وحصر حصنًا لهُ شهرًا حتى صالحهُ ثم ارض مداد فتحها على صلح ثم نزل كيلان فصالحهُ اهل طبرستان وكيلان وكل الولايات على شاطئ البحر من ارمينية الى طبرستان · وغزا مسلمة بن هشام الروم في هذه السنة فافتتح بها مطامير (وسنة ١٢٢) قتل عبد الله بن حسين الانطاكي المعروف بالبطال وكان كثير الغزو في بلاد الروم والاغارة عليهم وقدمهُ مسلمة على عشرة الاف فارس · وغزا (سنة ١٢٤) سليمان بن هشام بالصائفة على عهد ابيهِ فلقي لبون ملك الروم وهزمهُ وغنم · و(سنة ١٢٥) خرجت الروم الى حصن زبطره وكان افتتحهُ حبيب بن مسلمة الفهري وبناهُ غير محكم فاخربوهُ ثانيةً ايام مروان ثم بناهُ الرشيد وطرقهُ الروم ايام المامون فشعثوهُ فامر ببنائهِ وتحصينهِ ثم طرقوهُ ايام المعتصم وخبره معروف

وفي هذه السنة اغزا الوليد بن يزيد بالصائفة اخاهُ عمر وبعث الاسود بن بلال المحاربي بالجيش في البحر الى قبرس ليجير اهلها بين الشام والروم فافترقوا فريقين (انتهى ملخصًا عن ابن خلدون)

تتمة هذا الفصل

في دول الاسلام والخوارج

اعلم ان المسلمين انقسموا في بادي الامر على الخلافة ما بين ان تكون في اهل البيت او في قبيلة قريش · وقد سمي الفريق الاول اهل الشيعة والفريق الثاني اهل السنة والجماعة · وكلاهما راجع الى تخصيص الخلافة في قريش على ان الشيعة اكثر اختصاصًا لانهم يجعلونها في بني هاشم احد فخذي

بني عبد مناف لا غير . ثم ظهرت الخوارج بعد التحكيم في صفين بين الامام علي ومعاوية بن ابي سفيان وهم قوم شعارهم النداء «بلا حكم الاّ لله» فلم يزل الاسلام دولةً واحدة ايام الخلفاء الاربعة وبني امية من بعدهم لاجتماع العصبية ثم ظهر من بعد ذلك امر الشيعة وهم الدعاة لاهل البيت الى ان علت دعاة بني العباس واستقلوا بخلافة الملك كما سياتي ولحق الفل من بني امية بالاندلس فقام بامرهم فيها وانقسمت لذلك دولة الاسلام الى دولتين وافترقت العصبية ثم ظهر دعاة اهل البيت ايضاً في المغرب والعراق من العلوية ونازعوا العباسيين واستولوا على اطراف البلاد كالادارسة بالمغرب الاقصى . والعبيديين بالقيروان ومصر . والقرامطة بالبحرين . والدواعي بطبرستان والديلم . والاطروش فيها من بعده . وتجزأت دولة الاسلام دولاً متفرقة . وقد ذكرنا الى الان دولة الاسلام الاولى وسياتي ذكر الثانية

اما الخوارج فهم حزب الحربة وهذا الحزب كان اولاً من طرف الامام علي قال ابن خلدون «وفيما نقله اهل الآثار ان عمر قال يوماً لابن العباس ان قومكم يعني قريشاً ما ارادوا ان يجمعوا لكم يعني بني هاشم بين النبوة والخلافة فتحموا عليهم وان ابن العباس انكر ذلك وطلب من عمر اذنه بالكلام فتكلم بما عصب له وظهر من محاورتهما انهم كانوا يعلمون ان في نفس اهل البيت شيئاً من امر الخلافة والعدول عنهم بها قال» وفي قصة الشورى ان جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره ولما عدل به الى سواهُ تافقوا واسفوا له مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وغيرهم الا ان القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الالفة لم يزيدوا في ذلك عن النجوى بالتافف والاسف . ثم لما فشا التكبر على عثمان والطعن في الافاق كان عبد الله بن سبا ويعرف بابن السوداء من اشد الناس خوضاً في التشنيع لعلي بما لا يرضاهُ من الطعن علي عثمان وعلى الجماعة في العدول اليه عن عليّ وانه وُلي بغير حق فاخرجهُ عبد الله بن عامر من البصرة ولحق بمصر فاجتمع اليه جماعة من امثاله جنحوا الى الغلو في ذلك وانتحال المذاهب الفاسدة فيه مثل خالد بن ملجم وسوذان بن حمدان وكنانة بن بشر وغيرهم ثم كانت بيعة علي وفتنة الجمل وصفين وانحراف الخوارج عنه بما انكروا عليه من التحكيم في الدين وتمحضت شيعته للاستماتة معه في حرب معاوية مع علي وبويع ابنه الحسن وخرج عن الامر لمعاوية فسخط ذلك شيعة علي منه واقاموا يتناجون في السر باستحقاق اهل البيت» انتهى»

وحينئذٍ اصرّ الخوارج على عدم قبول تحكيم في الامر وابوا الا الحرب مع كل ملاطفة علي لهم وجعلوا شعارهم ملاشاة الخلافة وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي فقاتلهم علي بالنهروان وقتلهم اجمعين . ثم خرج من فلهم طائفة بالانبار ثم طويفة اخرى مع هلال بن علية ثم اخرى ثالثة ثم اخرى على المدائن ثم اخرى بشهرزور . وفي كل ذلك كانوا يحاربون ويستاصلون . ومن الشهرزورية لم يبقَ الا نحو خمسين

نفرًا استامنوا وافترق شمل الخوارج ومنهم كان الثلثة الذين تقدم ذكرهم في قتل الامام علي ولما قام معاوية على تخت الخلافة ظهروا ايضًا وتقاتلوا مع عماله الى ان قوي عليهم (سنة ٤١) وقتلهم ولم يبق منهم الا نحو خمسين دخلوا الكوفة وتفرقوا فيها

ثم خرج فروة الاشجعي وقتلة رسول المغيرة بن شعبه في شهر روز ثم بعث المغيرة فقتل بالشبهة ابن ابجر من اصحاب شبيب بن ملجم الذي بشر معاوية بقتل علي ثم قتل معن بن عبد الله المحاربي لانه ابى مبايعة معاوية ثم خرج ابو مريم مولى بني الحارث بن كعب وحزبت معه النساء فبعث المغيرة من قتله وحزبه معه ثم ابو ليلى فارسل المغيره عليه من اهلكه في الكوفة (سنة ٤٣) ثم خرج على ابن عامر في البصرة سهم بن غالم الجهني ومعه نحو سبعين نفرا وقتلوا بعض الصحابة الحاضرين من الغزو بين الجسرين والبصرة فقدم عليهم ابن عامر وقتل منهم عدة ثم اجتمع الخوارج بالكوفة نحوار بعماية في منزل حيان بن ضبيان وتشاوروا في الخروج وتدافعوا الامارة. ثم اتفقوا على المستورد بن عقله التيمي من تيم الرباب فكبسهم المغيرة وسجن حيان وافلت المستورد فنزل الحيرة واختلف الخوارج اليه وخرجوا ولحقوا بالصراة في ثلثماية فجهز لهم معقل بن قيس في ثلاثه الاف معظمهم من شيعة علي فجاء الخوارج ليعبروا النهر الى المداين فمنعهم عاملها سحال بن عبد العبسي ودعاهم الى الطاعة على الامان فابوا وساروا الى المذار وبلغ ابن عامر خبرهم فاجتمعت عليهم قواد ابن عامر مثل ابي الرواع الشاكري ومعقل بن قيس وشريك بن الاعور الحارثي . فتقهقر الخوارج فلحقهم ابو الرواع بجرجان فقاتلهم وانهزموا الى ساباط فتبعهم وقتل معقل قتلة المستورد وهذا تقدم والرمح فيه فقسم دماغ المستورد بالسيف وماتا جميعًا ثم حمل الناس على الخوارج فقتلوهم ولم ينجُ منهم الا خمسة او ستة

وخرج (سنة ٥٢) ابن حراش العجلي في ثلثماية بالسواد فبعث اليهم سعيد بن حذيفة في خيل فقتلوهم ثم خرج اصحاب المستورد حيان بن ضبيان ومعاذ من طي فصادفهما ما صادف الاولين . ثم ظهروا بالبصرة (سنة ٥٨) وآل الامر الى هزيمتهم واشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم جماعة كثيرة وسرح اليهم مرة عباد بن علقمة المازني فكبسهم « بتوج » وهم يصلون فقتلهم اجمعين ما بين راكع وساجد ورجع الى البصرة براس ابي بلال مرداس وامر عبيد بن ابي بكر بتتبع الخوارج فاخذهم وحبسهم واخذ الكفلاء على بعضهم

ثم توفي يزيد واستفحل امر ابن الزبير بمكة فاجتمعوا اليه ولكنه لم يقبل قذفهم بعثمان وانكارهم خلافة الشيخين ابي بكر وعمر فتبرأوا منه وتبرأ منهم وافترقوا وانقسموا فيما بعد الى اربع فرق : ازارقة وهم اصحاب نافع بن الازرق وكان رايه البراءة من سائرة المسلمين وتكفيرهم والاستعراض وقتل

الاطفال واستحلال الامانة وهم اشبه بالمشيخة الحمراء اوالكمون الذين ظهروا في فرنسا سنة ١٨٧٠ والفرقة الثانية . النجدية . وهم بخلاف الازارقة في ذلك كلهِ واشبه بالمشيخة الاحتفاظية . والثالثة الاباضية . وهم اصحاب عبد الله بن اباض المري ويرون ان المسلمين كلهم بحكم المنافقين فلا ينتهون الى الراي الاول ولا يقفون عند الثاني . فلا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ولا المنافقين فيهم وهم عندهم كالمنافقين وقول هولاء اقرب الى السنة ومن هولاء البيهسية اصحاب ابي بيهس هيصم بن جابر الضبعي والفرقة الرابعة الصفرية . وهم موافقون للاباضية الا في العقدة فان الاباضية اشد على العقدة منهم . وكان الخوارج من قبل هذه القسمة على راي واحد لايختلفون الاَّ في الشاذ من الفروع

ولما جاء نافع الى نواحي بصرة (سنة٦٤) واقام بالاهواز يعترض الناس جرى بينهم وبين عمال ابن الزبير قتال فيهِ قتل ربيعة بن الاخرم واقيم عوضهُ حارثة بن بدر فرد الخوارج على الاعقاب ونزل الاهواز ثم عزل عن البصرة عبد الله ابن الحارث وبعث ابن الزبير عليها ابن ابي ربيعة فزحف الخوارج الى البصرة . واشار الاحنف بتولية المهلب حروبهم وكان المهلب واليا على خراسان من لدن ابن الزبير فاستشاروا ابن الزبير بذلك فاجاب اليهِ . فاختار المهلب من الجند اثني عشر الفًا وسار اليهم فدفعهم عن الجسر وجاء حارثة بن بدر بمن كان معهُ في قتال الخوارج وردهم الى جماعة المهلب وتوجه حارثة بحرًا يريد البصرة فغرق في النهر . وسار المهلب وعلى مقدمتهِ ابنهُ المغيرة فقاتلهم ودفعهم عن سوق الاهواز الى مادر ونزل المهلب بسولاف وقاتله الخوارج فاستظهروا على المهلب فترك قتالهم وقطع دجيل ونزل العقيل ثم قام ونزل بقربهم واذكى العيون والحرس وجاء منهم عبيدة بن هلال والزبير بن الماخور في بعض الليالي ليبغتوا عسكر المهلب فوجدوهم متيقظين فخرج اليهم المهلب في الغد في تعبيتهِ والازد وتميم في ميمنتهِ وبكر وعبد القيس في ميسرتهِ واهل العاليه في القلب وعلى ميمنة الخوارج عبيدة بن هلال اليشكري وعلى ميسرتهم الزبير بن الماخور واقتتلوا وانكسر عسكر المهلب وسبق المهلب المنهزمين الى ربوة ونادى فيهم فاجتمع له ثلاثة الاف اكثرهم من الازد فرجع بهم وقصد عسكر الخوارج واشتد القتال وقتل ابن الماخور عبد الله وانكفا الخوارج راجعين الى كرمان وناحية اصبهان واستخلفوا عليهم الزبير بن الماخور . واقام المهلب بمكانهِ الى ان جاء مصعب بن الزبير اميرًا على البصرة وعزل المهلب

واشتهر من الخوارج نجدة بن عامر وعطية بن الاسود الحنفيان وهذا الاخير قتلتهُ عساكر المهلب في قندابيل من السند . واشتهر فيهما بو فديك وتقوى حزبهم جدًّا لاسيما نجدة وكانت الحروب بينهم وبين اتباع الخلافة دائمة وبشراسة خارجة عن حقوق الانسانية فلم يكونوا يعتبرون الشيوخ ولا

الاطفال ولا النساء حتى انهم كانوا يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة في بطون امهاتهم فكان قتال الطرفين اشبه بقتال استئصال وممن كان من الخوارج ضد ابن الزبير عبد الله بن الحر الذي اشتد وتقوى واخيرًا لحق بعبد الملك بن مروان من الامويين ومات غرقًا في دجلة بعد ان اثخن بالجراح مقاتلاً في حزب الدولة الاموية وللخوارج مع عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفي مواقع عديدة وقد اشتهر بذلك الازارقة والصفرية وشبيب بن الاشعث ومطرف من بني المغيرة بن شعبه ونحوهم كثير في كل مدة بني امية . وكان مطرف على المدائن ومبادئه الدعاء الى الكتاب والسنة على الشورى كما تركها عمر بن الخطاب حتى يولي المسلمون من يريدونه . ولشيبان الحروري ابن عبد العزيز اليشكري مواقع شهيرة مع عساكر مروان الحمار اخر بني امية وبعدهُ مع العباسيين و(سنة ١٣٤) قتل جلندى بن مسعود شيبان في عمان . ومن اراد معرفة كل ذلك ودقائق اخبار الخوارج فليطالع المطولات ولم نذكرهم هنا الا بيانًا لظهور الحرية في الاسلام من اوله وقد سفك في تاييدها انهرٌ من الدم في عدة من قرونه الاولى ووجد في المشرق الاحزاب السياسية الموجودة الان مثل اباحية واشتراكية وارتباطية وجمهورية حمراء وبيضاء وفوضوية وشوروية ونحوها ودام الخوارج في مدة الدولة العباسية كما سياتي

اما الشيعية ودولهم فقد تقدم ان شيعة علي سخطت منه ومن ولده الحسن بخلعه نفسه وتسليم الامر لمعاوية الخ ثم انهم كتبوا للحسين بالدعاء له فامتنع ووعدهم الى موت معاوية فساروا الى محمد بن الحنفيه وبايعوهُ في السر على طلب الخلافة متى سنحت الفرصة وولى على كل بلد رجلاً . وكان معاوية متيقظًا لعملهم بسياسة عميقة احيانًا بالتخية واحيانا بالاستعمال والتسامح الى ان مات ونهض يزيد وخرج الحسين فقتل وكان ذلك من اقبح الامور في الاسلام وهيجان الفتن وتوغل الشيعة وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك او قعد عنه ثم تلاوموا على ما قصروا به في امر الحسين من دعوته وعدم نصرته فندموا وتابوا ولم يروا كفارة الا في الاستماتة دون ثاره وسموا انفسهم « التوابين » وخرجوا لذلك وعلى راسهم سليمان بن صرد الخزاعي ومعه جماعة من خيار اصحاب علي وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق فلحق بالشام . فزحف سليمان قاصدًا العراق فزحفوا اليه وقاتلوهُ حتى قتل سليمان وكثير من اصحابه ثم خرج المختار بن عبيد ودعا لمحمد بن الحنفية وفشا التعصب لاهل البيت في العامة والخاصة واختلفت مذاهب الشيعة في من هو احق بالامر من اهل البيت انفسهم وبايعت كل طائفة لصاحبها سرًّا . ورسخ الملك لبني امية وطوى هولاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم مع تعدد فرقهم وكثرة اختلافهم ثم نشا زيد بن علي بن الحسين وقرا على واصل بن عطا امام المعتزلة وكان واصل المذكور مترددًا في اصابة علي في حربي صفين والجمل فتشرب زيد مبادئه وكان اخوهُ محمد الباقر

بعذله لذلك فكان زيد مع قوله بافضلية علي على اصحابه يرى في صحة بيعة الشيخين بخلاف الشيعه ثم دعته الحال الى الخروج بالكوفة (سنة ١٢١) واجتمع له عامة الشيعة ورجع عنه بعضهم لما سمعوهُ يثني على الشيخين فرفضوا دعوته وسموا «الرافضة» ثم قاتل زيد المذكور يوسف بن عمر فقتله يوسف وبعث براسهِ الى هشام وصلب شلوه بالكناسة ولحق ابنه يحيي بخراسان فاقام بها ثم دعته شيعة الى الخروج فخرج هنا لك (سنة ١٢٥) فسرح اليهِ نصر بن سيار عسكرًا مع سالم بن احور المازني فقتلوهُ وبعث براسهِ الى الوليد وصلب شلوه بالجوزجان وانقرض الزيدية ٠ واقام الشيعة على شانهم وانتظار امرهم والدعا لهم في النواحي يدعون على الاجمال للرضا من آل محمد ولا يصرحون بمن يدعون له حذرًا عليهِ ٠ وكان شيعة محمد بن الحنفية اكبر شيعة وكانوا يرون ان الامر بعد محمد بن الحنفية لابنهِ ابي هشام عبد الله فاتفق انهُ مر في بعض اسفارهِ بمنزل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالحميمة من اعمال البلقاء فنزل عليهِ وادركه المرض عندهُ فمات واوصى له بالامر وقد كان اعلم حزبهُ بالعراق وخراسان ان الامر صائر الى ولد محمد بن علي هذا فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي وبايعوهُ سرًا وبعث الدعاة منهم الى الآفاق على راس المائة من الهجرة في ايام عمر بن عبد العزيز واجابهُ عامة اهل خراسان وبعث عليهم النقبا وتداول امرهم هنا لك وتوفي محمد سنة اربع وعشرين وعهد لابنهِ ابرهيم وكان يدعى الامام كما سياتى

الباب الثاني وتحتهُ فصول

فصل

في الربع الثاني من القرن الثاني وفيهِ انقراض دولة بني امية وقيام بني العباس وخلافة السفاح والمنصور منهم

وبعد موت هشام نهض الوليد بن يزيد ثم يزيد الناقص ثم اخوهُ ابرهيم وكل ذلك في مدة اقل من ثلاث سنين فان ابرهيم الاخير لم يقم اكثر من اشهر قليلة وقيل سبعين يوماً وخلافة هولاء الثلاثة لم تكن شهيرة في دولة بني امية الا في ازدياد القلاقل والاضطرابات الداخلية · ثم نزع الملك من ابراهيم مروان بن محمد وكان والياً على ديار الجزيرة بانتصاره على سليمان بن هشام امير جيوش ابرهيم وكانت جنود سليمان مائة وعشرين الفاً ومروان ثمانين الفا واختفى ابرهيم وقتئذٍ ونهب مروان بيت المال وفرقهُ في اصحابهِ وكان ذلك (سنة ٧٤٤ـ١٢٧) ثم بويع بدمشق ورجع منها الى منزلهِ بحران وكان اخر هذه الدولة ثم امن ابرهيم المخلوع وسليمان بن هشام · وفي اول خلافتهِ عصى عليهِ اهل حمص وانتهى الامر بطاعتهم وهدم بعض سورها وصلب بعض اهلها · ولم يكمل اخضاع الحمصيين حتى اتى الخبر بعصاوة اهل الغوطة وقد ولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق فارسل عليهم مروان عشرة الاف فارس مع ابي الورد بن الكوثر وعمرا بن الصباح فحملا على الغوطه وخرج اهلها لقتالهما لكنهم انهزموا فنهبهم العسكر واحرقوا المزة وغير قرى ثم عصت فلسطين ومقدمهم ثابت بن نعيم فكتب مروان الى ابي الورد فسار اليهِ وهزمهُ على طبرية ثم اقتتلوا على فلسطين وانهزم ابن نعيم وتفرق اصحابهُ واسر ابو الورد ثلاثة من اولادهِ وبعث بهم الى مروان ثم سار مروان بن محمد الى قرقيسيا فظهر سليمان بن هشام بن عبد الملك وخلفهُ واجتمع اليهِ من الشام سبعون الفا وعسكر بقنسرين والتقاه مروان من قرقيسيا وجرى بينهما قتال شديد فيهِ انهزم سليمان بن هشام وقتل من عسكره نحو ثلثين الفا ثم قام سليمان الى حمص واجتمع اليهِ اهلها وجمع نفسهُ وعسكره الشتيت فتبعهُ مروان وهزمهُ ثانية فذهب الى تدمر وحاصر مروان اهل حمص مدة الى ان طلبوا الامان فامنهم

وفي سنة ١٢٨) ارسل مروان بن محمد يزيد بن هبيرة الى العراق لقتال من بهِ من الخوارج

(وسنة ١٢٩) تجددت دعوة بني العباس بخراسان وقوي حزبهم وقد تقدم كيف انهُ من عهد يزيد

الاول (في سنة ١٠١) من الهجرة كان قد اخذ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم الرسول يدعي بحق الخلافة فارسل اثني عشر رسولاً الى العراق وخراسان وما وراء النهر ليحزبوا الناس اليهِ مظهرين ان بني العباس هم حقًّا من بني هاشم اقارب الرسول وانَّ بني امية ليسوا الا مغتصبين · وكان محمد المذكور قد جمع اليهِ حزبا قويا مدة الاربع سنوات التي ولي فيها يزيد · وبعد توفي يزيد قرب الكوفة هجع التحزب لقيام خليفة جديد وكان موت يزيد من الغم على احدى حظياتهِ التي كان يحبها قالوا انهُ بينما كان يحظ يوما مع حظيتهِ المذكورة في بعض البساتين اتوا اليهِ بطبق من الفاكهة الفاخرة فاخذ حبة من العنب عجيبة لكبرها وناولها للجارية فاخذتها واكلتها فغصت وماتت وشق ذلك على يزيد واخذ ينوح ويبكي ويلطم نفسهُ وابقى جثتها عنده اسبوعًا كاملاً الى ان انتنت ولم يعد يقدر على الاقتراب منها فامر بدفنها ثم امر بفتح حجرتها يوما ليراها وعندما نظرها اخذتهُ رعدة انقضت بموتهِ .

ثم تجددت الدعوة بخراسان (سنة ١٢٩) في مدة ابي مسلم الخراساني · وكان ابو مسلم يختلف الى ابرهيم بن محمد ومنهُ الى خراسان وابرهيم يستعلم منهُ الاحوال · وكان ابو مسلم من مدة قبلها يساعد ابرهيم ويسند حقهُ للخلافة وقد اجاب اهل خراسان دعوة ابرهيم وقدموا لهُ هدايا اربعين الف ذهب طالبين اليهِ النهوض وقيل ان ذلك كان في عهد ابيهِ محمد · ولما دخلت السنة المذكورة اتفق على ان يذهب ابو مسلم الى خراسان ويجدد ذلك · ثمَّ حج ابرهيم ومعهُ اخواهُ ابو العباس وابو جعفر وولدهُ وعمهُ ومواليهِ على ثلاثين نجيبا بالثياب الفاخرة والرحال والاثقال فشهرهُ اهل الشام واهل البوادي والحرمين وبلغ ذلكَ مروان الاموي وكان قد وقع بين ابي مسلم ونصر بن سيار امير خراسان مكاتبات طويلة انتهت الى قتال قتل فيهِ ابو مسلم بعض عمال نصر المذكور واستولى على ما بايديهم وكتب نصر الى مروان بن محمد يعلمهُ بالحال وضمن كتابهُ ابياتًا منها

اری خلال الرمادِ وميض نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامُ
اذا لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهامُ

وكان ابرهيم المعروف بالامام يسكن هو واهلهُ بالشراة من الشام في قرية الحميمة نحو يوم من الشوبك وبينهما وادي موسى فارسل مروان الى عاملهِ بالبلقاء ان يسيرّ الى ابرهيم ويقبض عليهِ ويبعث بهِ اليهِ فاخذهُ مروان وحبسهُ في حرّان واثقلوهُ بالحديد وضيقوا عليهِ حتى مات وكان مولده (سنة ٨٢) وقد اوصى الى اخيهِ ابي العباس ونعى نفسهُ اليهِ وامرهُ بالمسير الى الكوفة

ففي سنة ماية وثلاثين تسلم ابو مسلم مرو ونزل في قصر الامارة وهرب ابن سيار وكان ابرهيم الامام عقد لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب على قحطبة خادمهِ وارسلهُ بهما الى ابي مسلم فجعل ابو مسلم قحطبة في مقدمتهِ وجعل اليهِ العزل والاستعمال وكتب الى الجنود بذلك

و(في سنة ١٣٢) سار قحطبة في جيش كثيف قاصدًا يزيد بن هبيرة امير العراق وقطع الفرات والتقى به وهزمهُ وقتل قحطبه وقام بالامر بعده ولدهُ الحسن

ثمَّ بويع ابو العباس السفاح واسمهُ عبد الله بالكوفة وكان مستخفيًا بها في دار ابي مسلمة فظهر ودخل منزلهُ ولما اصبح غدا عليهِ القواد في التعبية والهيئة وقد اعدوا له السواد والمركب والسيف فخرج ابو العباس في من معهُ الى قصر الامارة ثم الى المقصورة وصعد المنبر ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس وكان ذلك في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٢

ثم استخلف عمهُ داود بن علي على الكوفة وارسل عمهُ عبد الله بن علي الى شهر روز وبعث ابن اخيهِ موسى بن محمد الى الحسن بن قحطبه وهو يومئذٍ يحاصر ابن هبيرة وبعث يحيي بن جعفر الى محمد بن قحطبة بالمدائن واقام هو نفسهُ في العسكر اشهرًا ثم ارتحل الى هاشمية الكوفة

ولما نظر مروان كل ذلك وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو بحران قام منها قاصدًا ابا عون عبد الملك ابن يزيد الازدي الذي كان ولاه السفاح على شهر روز ولما وصل الى نهر الزاب نزل بهِ وحفر خندقًا وكان في مائة وعشرين الفًا والتقاهُ ابو عون بما معهُ من الجنود واردفهُ السفاح بعساكر في دفوع وعدة قواد وكانت الرياسة لعبد الله بن علي العباسي ثم عقد مروان جسرًا على الزاب وعبر الى الجهة الثانية وكان عسكر العباسيين نحو ٢٠ الفًا والتقى الجمعان واشتد بينهما القتال وكان ذلك في المكان الذي كانت من مدة ١٠٧٩ انهزمت فيهِ عساكر الاسكندر جيوش ملك الفرس . وانجلت المقتلة عن انتصار العباسيين وانهزم مروان وقتل جمع غفير وغرق مثل ذلك من رجالهِ وكان نهار سبت في ١١ جمادي الاخرى (سنة ٧٤٩و١٣٢) فمر مروان في انهزامهِ بالموصل فراى السناجق سودًا فذهب الى حران واقام نيفًا عن عشرين يومًا حتى دنا منهُ عسكر السفاح فقام الى حمص ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح كتب الى عمهِ عبد الله ان يتبعهُ فسار عبد الله في اثره الى دمشق فحاصرها ودخلها عنوةً في رمضان واقام هناك ١٥ يومًا ثم سار الى فلسطين فورد اليهِ كتاب من السفاح بان يرسل اخاهُ صالحًا في طلب مروان فتبعهُ صالح حتى وصل الى نيل مصر ومروان ينهزم قدامهُ وهو يزداد فخرًا وجراءة حتى ادركهُ اخيرًا في كنيسة في بوصير وقد تبددت اصحابهُ وطعنهُ انسان برمح فقتلهُ في ذي الحجة (سنة ٧٤٩ ـ ١٣٢) وكان يلقب بالحمار لقوتهِ وبالجعدي وعمرهُ ٦٢ سنة ومدة خلافتهِ خمس سنين واشهرًا وكانت امهُ كردية ثم رجع صالح الى الشام وخلف ابا عون في مصر ولما وصل راس مروان الى السفاح سجد وشكر . ذكروا انهُ بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل

عن فرسهِ لحاجة طبيعية فرجع الجواد الى الوراء فظن عسكرهُ انهُ قتل فوقع فيهم الخوف وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيل «ملك بني امية انتهى ببولة»

ولما قتل مروان هرب ولداهُ عبد الله وعبيد الله الى ارض الحبشة فقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدة من اتباعهِ وبقي الى خلافة المهدي وحينئذٍ قبض عليهِ ابن الاشعث محمد عامل فلسطين وبعث بهِ الى المهدي

وكان مروان حازمًا شجاعًا ابيض اشهل ضخمًا كث اللحية ابيضها ربعة

وقد تناهى العباسيون في التنقام على الامويين فان السفاح بعد ان كان امن سليمان بن هشام عاد فقتلهُ وقيل ان ذلك كان باغراء السديف احد مقربيهِ اذ انشدهُ

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها امويا

وكان قد اجتمع عند عبد الله بن علي نحو تسعين ذكرًا منهم فلما اجتمعوا للطعام دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم واغراهُ على قتلهم فامر عبد الله بهم فضربوا بالعمد حتى وقعوا وبسط عليهم الانطاع ومد فوقهم الطعام واكل الناس وهم يسمعون انينهم حتى ماتوا (قلت يالها من مادبة وحشية ينفر منها سماع البشر) وكانوا قد حملوا نساء مروان الى حران. ومن الاغرب انهم هتكوا حرمة الاموات ونبشوا قبور بني امية بدمشق ولما اتوا الى هشام وجدوا جسمهُ صحيحًا فأمر بصلبهِ ثم حرقوهُ بالنار ولم يفلت من ايديهم احد من الامويين الاَّ عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فانهُ فر الى اسبانيا فقبلوهُ واسس الخلافة الاموية في قرطبه (سنة ١٣٩ – ٧٥٦) وقتل سليمان بن عبد الله العباس جماعة من بني امية والقاهم في الطريق فاكلتهم الكلاب واخذ بثارا برهيم بن محمد والحسين بن علي بن ابي طالب من قاتليهما الى اخر الدهر وكانت مدة خلافتهم تسعين سنة وثلاثة اشهر وثلاثة ايام منذ تنزل حسن عن الخلافة. وخرج منهم اربعة عشر خليفة بالتوالي وامتد ملكهم من بحر الخزر الى الاوقيانوس ومن كنج الهند الى ينابيع هبروس في اسبانيا

ثم ارسل السفاح عبد الله بن علي ضد ابي الورد بن كوثر لانهُ كان خلع الطاعة فالتقاهُ في قنسرين وقاتلهُ وانجلي الامر عن هزيمة عساكر ابي الورد وقتلهِ ثم اخضع اهل دمشق لانهم عصوا ثانيةً. وصار يحيى اخو السفاح على الموصل واليا وكان اهلها قد اخرجوا الوالي الذي بها. فقتل منهم نحو احد عشر الفًا ثم امر بقتل نسائهم وصبيانهم وكان مع يحيى اربعة الاف زنجي فاستوقفتهُ امراة من اهل الموصل وقالت لهُ «تانف العربيات ان ينكحن الزنوج» فاثر كلامها فيهِ وقتلهم عن اخرهم

وانفذ السفاح اخاه المنصور واليا على الجزيرة واذربيجان وارمينية وولى عمهُ داود المدينة ومكة

واليمن واليمامة وولى ابن اخيهِ عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمّهُ عبد الله . وعلى مصر ابو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال ابو مسلم وجعل عمّهُ سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان . واستعمل عمّهُ اسمعيل بن علي على الاهواز . وتوفي عمّهُ داود فولى مكانهُ زياد بن عبد الله الحارثي وعزل اخاهُ يحيي عن الموصل لكثرة قتله واقام عليها عمّهُ اسمعيل

وكان (سنة ١٣٣-٧٥٢) قد استولى قسطنطين ملك الروم على ملطيه وقاليقلا . ثم تحول السفاح من الحيرة الى الانبار وتوفي اخوهُ يحيي بفارس (سنة ١٣٤ او ١٣٥-٧٥١ او ٧٥٢) وكان تقدم ولاّهُ اياها بعد عزلهِ عن الموصل

وفي ذي الحجة سنة ١٣٧-حزيران ٧٥٤) قضى السفاح نحبهُ وعمرهُ ثلاث وستون سنة ومدة خلافته اربع سنين وثمانية اشهر وكان طويلاً اقنى الانف ابيض حسن الوجه واللحية ودفن بانبار العتيقة وكان دائمًا يردد «من اراد ان يكون حليمًا فليكن اولاً قاسيًا» وبالسفاح تاسست الدولة العباسية وهي من دول الشيعة وفرقهم منها يعرفون بالكيسانية وهم القائلون بامامة محمد بن علي بن الحنفية بعد علي بن ابي طالب ثم بعدهُ الى ابنهِ هشام عبد الله ثم بعدهُ الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بموجب وصيته كما تقدم ثم بعدهُ الى ابنهِ ابرهيم الامام ثم بعدهُ الى اخيهِ ابي العباس السفاح وهو عبد الله ابن الحارثية هذا هو مساقها عند الكيسانية ويسمون ايضًا الحرماقية نسبة الى ابي مسلم لانهُ كان يلقب بحرماق . ولبني عباس شيعة يسمون الراوندية من اهل خراسان يزعمون ان احق الناس بالامامة بعد النبي هو العباس لانهُ وارثهُ وعاصبهُ لقولهِ «واولو الارحام بعضهم اولى ببعض الاية» وان الناس منعهُ من ذلك الى ان ردها الله الى ولده ويتبراون من الشيخين ويجيزون بيعة عليّ بناء على قول العباس لهُ يا ابن اخي هلمَّ ابايعك فلا يختلف عليك اثنان ولقول داود بن عليّ على منبر الكوفة يوم بويع السفاح . يا اهل الكوفة انهُ لم يقم منكم امام بعد رسول الله صلعم الاّ عليّ بن ابي طالب وهذا القائم فيكم وعنى به السفاح (انتهى ملخصًا عن ابن خلدون)

وكانت مدة تسلط الامويين بعمالهم على الاندلس من لدن الفتح من لذريق (رودريكوس) سلطان الاندلس القوطي وهو نهار الاحد لخمس خلون من شوال (سنة ٩٢-٧١٠) نحو اربعين سنة قمرية ومنها الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري عامل السفاح وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني من بني امية على سرير مملكة قرطبة وهو يوم الاضحى (لسنة ١٣٨-٧٥٥) ست سنين . وهذه هي الفترة بين ان حكموها بعمالهم وبواحد منهم نعم ان الخلافة الكبرى استقرت لبني العباس في اول الامر شرقًا وغربًا ولم يكن الامراء الامويون يتخذون سمة امراء المومنين لكنهم كانوا مستقلين في ملكهم ودولتهم مدة طويلة واول من اتخذ لقب امير المومنين من امراء الاندلس كان

عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر وذلك بعد الثلاثمائة من الهجرة كما سنذكرهُ في محلهِ

اما العمال المذكورون فهم طارق بن زياد مولى الامير موسى بن نصير · ثم موسى بن نصير نفسهُ وكلاهما لم يتخذا سريرًا · ثم عبد العزيز بن موسى وسريرهُ في اشبيلية · ثم ايوب بن حبيب اللخمي وسريرهُ قرطبة · وهكذا كل من بعدهُ كانت قرطبة سريرهُ · ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي · ثم السمح بن مالك الخولاني · ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي · ثم عنبسة بن سحيم الكلبي · ثم عذرة بن عبد الله الفهري · ثم يحيي بن سلمة الكلبي · ثم عثمان بن ابي نسعة الخثعمي · ثم حذيفة بن الاحوص القيسي · ثم الهيثم بن عبيد الكلابي · ثم محمد بن عبد الله الاشجعي · ثم عبد الملك بن قطن الفهري · ثم بلج بن بشر بن عياض القشيري · ثم ثعلبة بن سلامة العاملي · ثم ابو الخطار بن ضرار الكلبي · ثم ثوابة بن سلامة الجذامي · ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وعددهم عشرون حكموا الاندلس من غير موارثة ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير

في خلافة ابي جعفر المنصور وهو ثانيهم (من سنة ١٣٧ - ١٥٨ـ ٧٥٤ـ ٧٧٤)

وكان السفاح قد عهد بالخلافة لاخيهِ جعفر ومن بعده لابن اخيهِ عيسى بن موسى وعقد العهد في ثوب وسلمهُ الى عيسى وعند موتهِ كان المنصور في الحج فاخذ لهُ البيعة على الناس عيسى المذكور واعلمهُ بذلك

وكان ابو مسلم مع المنصور فبايعهُ ابو مسلم وبايعهُ الناس (سنة ١٣٧ - ٧٥٤) ثم قدم وذهب الى الانبار وارسل ابو مسلم ضد عمهِ عبد الله بن علي لانهُ كان بايع نفسهُ بالخلافة فذهب واقتتلا في ارض نصيبين وبعد مواقع انهزم عبد الله الى العراق واستولى ابو مسلمة على العساكر

وكان قد حدث ما بين المنصور وابي مسلم ما جعل نفورًا وحقدًا في قلب المنصور فانهما لما حجا كان ابو مسلم يظهر الكبر ويكسو الاعراب ويصلح الابار والطرق فاخذ بذلك الشهرة على المنصور · وعند رجوعهما كان ابو مسلم يتقدم المنصور فاراد المنصور ان يبعد عنهُ رجلاً مخطرًا كابي مسلم فكتب اليهِ بعد هزيمة عمهِ بالولاية على مصر والشام وصرفهُ عن خراسان · فلم يجب ابو مسلم الى ذلك فارسل المنصور يطلب حسابًا عن الكسب الذي اخذه ابو مسلم في الحرب فاجاب ابو مسلم الرسول « اني قد اعطيت الى الان حسابًا عن الدم والقتلى فلا يجب ان يشك فيَّ بما يتعلق بالكسب » ثم ذهب المنصور الى المدائن وطلب ابا مسلم اليهِ فاعتذر عن الحضور وطالت بينهما المكاتبات · واخر الامر قدم ابو مسلم الى المدائن في ثلثة الاف رجل تاركًا باقي عسكره بحلوان ودخل على المنصور وقبل يدهُ وانصرف · فلما كان الغد امر المنصور بعض حرسهِ ان يكمنوا خلف الرواق فاذا صفق بيديهِ يخرجون ويقتلون ابا مسلم فلما حضر اليهِ اخذ المنصور يعدد سقطاتهِ وابو مسلم يعتذر

ثم صفق بيديه فخرج الحرس وقتلوهُ في (شعبان سنة ١٣٧ - ٧٥٤)

وكان ابو مسلم من اهل خطرنية من سواد الكوفة وكان قهرمانا لادريس بن معقل العجلي ثم دخل في خدمة محمد بن علي كما تقدم وكان من اشد الناس باسًا وطمعًا واكثرهم طعامًا يخبز كل يوم في مطبخه ثلاثة الاف قارف (رغيف) ويطبخ مائة شاة وعشرة روس بقر ما عدا الطير وكان له مائة طباخ وقيل الف وكان يلزم لنقل الات مطبخه الف ومائتا دابة وكان غيورًا جدًّا وكان له ثلاث زوجات يقرب الواحدة منهنَّ مرة في السنة ولم يكن يدخل قصرهُ احد وفيه كوى يطرح منها لنسائه ما يحتجن اليه وقيل انه ليلة زفت اليه امراته امر بالبرذون الذي ركبته فذُبح وأُحرق سرجه لئلا يركبه رجل بعدها وكان ذا راي وعقل وتدبير وحزم ومروة وقيل كان فاتكا قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه وقتل ستمايه الف نفس صبرًا ما عدا ما قتل في الحروب وسئل بعضهم عن اي كان احسن أالحجاج ام ابو مسلم فاجاب لا اقول ان ابا مسلم خير من احد

و(في سنة ١٣٩ - ٧٥٦) ارسل المنصور عبد الوهاب ابن اخيه ابرهيم الامام والحسن ابن قحطبة في سبعين الف مقاتل ليعمروا ملطية من تخريب الروم في السنة التي قبلها فعمرها في ستة اشهر فسار اليهم ملك الروم في مائة الف جندي ونزل على نهر جيحون فبلغهُ كثرة العرب فرجع ومنها توجه المنصور الى القدس والرقه وعاد الى هاشمية الكوفة وامر بعمار سور المصيصة وبنى بها جامعًا

اما عبد الرحمن الداخل فسار من الفرات هاربًا الى اودية جبل دوردان و بعد ان تغلغل زمنا في قفار افريقة من وجه طلابه ذهب الى اسبانيا وجدد الحزب الابيض فانه وقتئذٍ لم يكن غير الفرس من المسلمين مالوا الى حزب العباسيين ولم يكن العرب سكان المغرب تداخلوا مطلقا في تلك الحركات . فلما وصل عبد الرحمن تلقوه بكل اكرام ذكرًا لاحسان ابائه وخوفا لئلا يجرى عليهم من العباسيين مواخذة في عدم قيامهم معهم اولاً فاقاموا عبدُ الرحمن ملكًا عليهم ودعي اميرًا وكان النائب العباسي هنالك فوجد نفسهُ متروكا فخاف وهرب الى الجزيرة الخضراء وارسل يطلب المساعدة من المنصور على عبد الرحمن ولكن هذا كان محبوبا من الشعب وجامعا الجراءة الى اللطافة والكرم وانتصر على عساكر العباسيين الذين اتوا من افريقية ونحوها الحربه بمهارة غزيرة وطرد يوسف قائد جيش الاعداء بعدما كان تملك قرطبة وقتله واسترد قرطبة وطوليده (طليطلة) وانتهت الحرب وقامت السناجق البيض وعاد عبد الرحمن مستقلاً بملك قرطبة والاندلس غير معتبر العباسيين بشيء . وبعد ان كانت اسبانيا للعرب كالباب لفتح اوربا اصبحت منفردة بنفسها ومشتغلة بمحاربة جيرانها نظير بلاجيوس وذريته ولطلم البشكنس وكارلس الكبير ملك فرنسا فان هذا «الامبرور» نحب ان فتح

غرد ينة تقدم الى بمبلونة وهدم اسوارها ولقية في رجوعه بعض العرب والغوصقية في روسنفالي عند منفذ البرينات وفتكوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرًا وقتل رولند نسيبة وكان وقتئذٍ امتد روح الشفوف والاشبهية (شفالرية) في اوربا وساعد ذلك على تهذيب العوائد الوحشية الخشنة وكان مصدر ذلك بالاجماع من العرب الذين كانوا يتميزون في كل مكان برقة طباعهم وانسانيتهم وجراءتهم وعفتهم وحسن تصرفهم وبالحب والغرام والكرم والفضل كما تشخصة لنا اشعارهم العديدة في تلك الازمنة

وفي سنة ١٤١ ـ ٧٥٨) خرج الراوندية على المنصور وهم قوم من خراسان من مذهب ابي مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك وان ربهم الذي يقيتهم هو الخليفة ابو جعفر المنصور . فلما ظهروا واتوا الى قصر المنصور قالوا هذا ربنا فحبس المنصور روساءهم نحو مايتين فغضبوا واخذوا نعشًا وحملوهُ ومشوا بهِ كانهم ذاهبون في جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن واخرجوا اكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستماية رجل فتنادى الناس واغلقت الابواب وخرج المنصور ماشيًا واجتمع عليهِ الخلق وكان معن بن زائدة مستخفيًا خوفًا لانهُ حارب مع ابن هبيرة الشيباني فظهر وحارب الراوندية بين يديهِ فعفا عنهُ لذلك وكان ذلك يوم استئصال الراوندية

وبعد ثورة الراوندية كره المنصور الهاشمية وخرج يرتاد لهُ موضعا يسكنهُ وكان اهل الحذق اشاروا عليهِ بان تكون اقامتهُ على نهر الصراة لانهُ بين انهار لا يصل اليهِ عدوٌ الا على جسر فاذا قطع الجسر لا يمكنهُ الوصول ويكون هو متوسطًا بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ويكون بدجلة والفرات والصراة خنادق مدينتهِ تجيه الميرة من البحر والبر فوقع اختيارهُ على مكان اسمهُ بغداد اي بستان داد ولما اراد البنا استشار المنجمين في اختيار الوقت والزيج وجعل المنصور وكالة البنا لاربعة من القواد وامر ان يكون عرض اساس القصر من اسفلهِ خمسين ذراعًا ومن اعلاهُ عشرين ووضع بيدهِ اول لبنة قائلاً بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله وامر بنقض ايوان كسرى ونقل ذلك اليها فنقضت شرفة من القصر الابيض فوجد ان ما كان يلزم لنقض ذلك اكثر من اكلاف الجديد فعدل . وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من البعض وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج وبنى قصرهُ في وسطها والمسجد الجامع بجانبهِ وكانت قبلتهُ غير مستقيمة يحتاج المصلي ان ينحرف لجهة باب البصرة . وكانت الاسواق اولاً في المدينة الى ان قدم رسول الملك الروم فامر الربيع فطاف بهِ ثم سالهُ كيف رايت فقال بناءً حسن لكن رايت اعداءك معك وهم السوقة فامر

باخراجهم الى جهة الكرخ وبان يترك في كل ربع منها بقالاً يبيع البقل والخل . مكان بغداد على جانب دجلة الغربي تبعد عن المدائن خمسة عشر ميلاً وفي لحسن موقعها وجودة هواها وخصب اراضيها نمت بسرعة حتى انه على ما قيل في جنازة بعض المشايخ المعتقد بكراماتهم وجد ثمانماية الف رجل وسبعماية الف امراة فان اليها كانت تتوارد السكان من العراقين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر ونحوها ودعيت دار السلام

وفي هذه السنة ظهر محمد بن عبد الله من ولد علي بن عبد الله بن ابي طالب واستولى على المدينة وتبعه اهلها فارسل اليه المنصور ابن اخيه عيسى بن موسى فقاتله وقتله مع جماعته ثم نهض اخوهُ ابرهيم ولم يكن يعلم بموت اخيه محمد وتوجه الى البصرة يدعو الناس لمبايعة محمد المذكور فبايعه نحو اربعة الاف وكان امير البصرة سفيان بن معاوية فلما راى اجتماع الناس الى ابرهيم تحصن في دار الامارة فقصدهُ ابرهيم وحصرهُ فطلب سفيان منه الامان فامنه ودخل ابرهيم القصر ووجد في بيت المال الفي الف درهم فاستعان بها وفرض لاصحابه خمسين خمسين ومضى بنفسه الى دار زينب بنت سليمان العباسي واليها ينسب الزينبيون من العباسيين ونادى هناك بالامان لاهل البصرة ثم ارسل جماعة فاستولوا على الاهواز ثم بعث هرون بن سعيد العجلي مع سبعة عشر الفا الى واسط فملكها ولم يزل ابرهيم في البصرة يفرق العمال والجيوش حتى بلغه خبر مقتل اخيه ثم عزم على الذهاب الى الكوفة وقد احصى ديوانه ماية الف ونزل باحمز على ستة عشر فرسخا من الكوفة وكان المنصور استدعى عيسى بن موسى من الحجاز فحضر وجهزهُ على ابرهيم وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه اكثر عسكر عيسى ثم تراجعوا واخيرًا تقوى عيسى وانهزم اصحاب ابرهيم وبقي وحده بنفر قليل نحو ستماية نفس ثم جاءهُ سهم في حلقه فتنحى ثم هجموا على اصحابه فتفرقوا وقتلوهُ واتوا براسه الى عيسى فسجد وشكر

في الصوائف

وكان امر الصوائف قد انقطع منذ (سنة ١٣٠) لما كان من الفتن فان فيها غزا الوليد بن هشام ايام مروان ونزل العمق وبنى حصن مرعش ثم اقبل (سنة ١٣٣) قسطنطين ملك الروم الى ملطيه ونزل حصن بلخ فاستنجد اهل بلخ ملطيه فامدوهم بثمانمائة مقاتل فهزمهم الروم وحصروا ملطيه والجزيرة مفتوحة وعاملها موسى بن كعب بخراسان فسلموا البلد بالامان للروم ودخلوا الى الجزيرة وخربوا ملطيه ثم فتحوا قاليقلا

وفيها سار ابو داود خالد بن ابراهيم الى الختل فدخلها فلم تمتنع عليه وتحصن منه سبيل ملكهم فحاصره مدة ثم خرج من الحصن ولحق بفرغانه ثم دخلوا بلاد الترك وانتهوا الى الصين وفيها بعث

صالح بن علي سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب و (سنة ١٣٥) غزا عبد الرحمن حبيب عامل افريقية جزيرة صقليه فغنم وسبى بما لم ينله احد من قبله ثم كانت فتن البربر في افريقية فامن اهل صقليه وعمروا الحصون والمعاقل وجعلوا الاساطيل تطوف بصقليه لحراسة ويأخذون تجار المسلمين في البحر اذا صادفوهم . و (في سنة ١٣٨) خرج ملك الروم فاخذ ملطيه عنوة وهدم سورها لانها كانت عادت للمسلمين وعفا عن اهلها فغزا العباس بن محمد الصائفة وبنى ما خربه الروم من سور ملطيه ورد اليها اهلها وانزل بها الجند ودخل دار الحرب من درب الحرث وتوغل في ارضهم ودخل جعفر بن حنظلة من درب ملطيه و (سنة ١٣٩) كان الفدا بين المسلمين والروم في اسرى قاليقلا وغيرهم وغزا في الصائفة عبد الوهاب بن ابرهيم الامام (سنة ١٤٠) ومعه الحسن بن قحطبة فانبهم قسطنطين ملك الروم في مائة الف فبلغ جيحان وسمع عن كثرة المسلمين فاحجم عنهم ورجع ولم تكن بعدها صائفه الى (سنة ١٤٦) لاشتغال المنصور بفتنة بني حسن و (سنة ١٤٦) خرج الترك من باب الابواب وانتهوا الى ارمينية وقتلوا من اهلها جماعة ورجعوا واغار (سنة ١٤٧) استرخان الخوارزمي في جمع من الترك على ارمينية فغنم وسبى ودخل تفليس فعاث فيها وكان حرب بن عبد الله مقيما في الموصل في الفين من الجند فامرهُ المنصور بالمسير لحرب الترك مع جبريل بن يحيى فسار وقتل حرب وانهزم قومهُ وفيها غزا بالصائفة مالك بن عبد الله الخثعمي من اهل فلسطين ويقال له ملك الصوائف فغنم غنائم كثيرة و (سنة ١٤٩) غزا بالصائفة العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبه ومحمد بن الاشعث فدخلوا الروم وعاثوا ورجعوا ومات محمد في الطريق (سنة ١٥١) اه بتصرف ابن خلدون

فصل

في الربع الثالث من القرن الثاني

ثم تحول المنصور عن مدينة ابي هبيرة الى بغداد ونقل ابواب مدينة واسط اليها وخلع ابن اخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنهِ محمد المهدي . ثم ظهر رجل ادعى النبوة اسمهُ استادسيس في جهة خراسان فاجتمع اليهِ نحو ثلاثماية الف مقاتل من اهل هراة وباذغيس وسجستان وسار اليهِ الاخثم عامل مرورُوز (او مرو الروذ) في العساكر فقاتل الاخثم وعامة اصحابهِ وتتابع القواد في لقائهِ نهزمهم فبعث المنصور وهو بالرواق حازم بن خزيمة الى المهدي في اثني عشر الفا فولاه المهدي حربهُ فزحف عليهِ في عشرين الفا وبعد قتال شديد نقوى المسلمون عليهِ وقتل من عساكرهِ نحو سبعين الفا واسر نحو اربعة عشر الفا واسر استادسيس وبنوهُ وتفرق الباقون وقيل ان استادسيس هذا هو ابو

مراجل ام المامون وابنة غاب خال المامون الذي قتل الفضل بن سهل و(في سنة ١٥١) ولى الهشام بن عمر الثعلبي على السند عوض عمر بن حفص وجعل هذا على افريقية وكان لقبه هزار مرد وبنى الرصافة لابنه المهدي وهي الى الجانب الشرقي من بغداد وقتل بعض الخوارج معن بن زائدة الشيباني بسجستان في بست وكان عامل المنصور هناك وخلفه ابن اخيه يزيد بن مرثد

و(في سنة ١٥٢-٧٦٩) غزا حميد بن قحطبه امير خراسان مدينة كابل وجهز المنصور جيشاً الى المغرب (١٥٤-٧٧١) لقتال الخوارج. ثم غزا بالصائفة (سنة ١٥٤) زفر بن عاصم الهلالي وا(في سنة ١٥٥) طلب ملك الروم الصلح على ان يودي الجزية وغزا بالصائفه يزيد بن اسد السلمي (سنة ١٥٦-١٥٥) وبنى المنصور سوراً وخندقا للكوفة والبصرة ووزع النفقة على الاهالي فلحق كل واحد منهم خمسة خمسة فجباهم اربعين اربعين وقد قال بعضهم

يا لقوم ما لقينا من امير المومنينا

قسم الخمسة فينا وجبانا اربعينا

وبعد كل ذلك قصد المنصور الحج (سنة ١٥٨-٧٧٤) وخرج ولده المهدي معه ليودعه. وعند وداعه قال له يا بني« اني احس بالموت ولا ادري اذا كنا نجتمع بعد هذا فاني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة واخشى ان اموت في ذي الحجة من هذه السنة ولذلك اردت الحج والآن اوصيك بخصال وما اظنك تفعل واحدة منها وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره فقال للمهدي انظر الى هذا السفط فاحتفظ به فان فيه علم ابائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فان احزنك امر فانظر في الدفتر الكبير فان اصبت فيه ما تريد والا ففي الثاني حتى تبلغ سبعة فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد ما تريد فيها وما اظنك تفعل. وانظر هذه المدينة واياك ان تستبدل بها غيرها وقد جمعت فيها من الاموال ما اذا انكر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البيوت فاحفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما اظنك تفعل. واوصيك باهل خراسان خيراً فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك وان لا تخرج محبتك من قلوبهم وان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهله وولده وما اظنك تفعل . وانظر هذه المدينة واياك ان تبني المدينة الشرقية فانك لا تتم بناها واظنك ستفعل. واياك ان تستعين برجل من بني سليم واظنك ستفعل. واياك ان تدخل النسا في امرك واظنك ستفعل فاتق الله فيما اعهد اليك من امور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك واحزنك فرجاً ومخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب يا بني احفظ محمداً صلعم في امته يحفظك الله ويحفظ عليك

امورك واياك الدم الحرام فانهُ حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم · والزم الحدود فان منها صلاحك في الآجل والعاجل ولا تعتدِ فيها فان الله تع لوعلم ان شيئا اصلح فيها لدينه وازجر عن معاصيهِ لامر بهِ في كتابهِ واعلم ان من شدة غضب الله لسلطانهِ امر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من يسعى في الارض فساداً مع ما ادخر له من العذاب الاليم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً الاية · فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه المقيم فاحفظه وحصنه وذب عنه واوقع بالملحدين واقمع المارقين منه وقابل الخارجين عنه بالعقاب ولا تجاوز ما امر الله بهِ في محكم القران واحكم بالعدل ولا تشطط فان ذلك اقطع للشغب واحسم للعدو وانجع في الدواء واعف عن الفيء فليس بك اليه حاجة مع ما اخلفه لك · وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة واياك والاثرة والتبديد لاموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وامن السبيل وسكن العامة وادخل المرافق عليهم وارفع المكاره عنهم واعدّ الاموال واخزنها فان النوائب غير مامونة وهي من شيم الزمان واعدّ الاكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتاخير عمل اليوم لغد فتتداول الامور وتضيع وخذ في احكام الامور والنازلات في اوقاتها اولاً فاولاً واجتهد وشمر فيها واعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن واسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسهل اذنك للناس وانظر في امر النزاع اليك وكن بهم عيناً غير نائمة ونفسا غير ساهية ولا تنم لان اباك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينهُ الغمض الا وقلبهُ مستيقظ هذه وصيتي اليك والله خليفتي عليك

ثم ودعهُ وبكيا وسار المنصور ومات ببئر ميمونه محرما بمرضه وهو القيام وكان ذلك في ذي الحجة وعمره ثلاث وستون سنة قال ابو الفرج وحمل الى مكة وحفروا له مائة قبر ليعموا على الناس ودفن في غيرها مكشوف الراس لاحرامه

وقيل في صفته وسيرته انه كان اسمر نحيفا خفيف العارضين وكان من احسن الناس خلقا واشدهم احتمالاً للمزاح وكان اذا لبس وخرج هابتهُ حتى الاكابر ولم يرَ في دارهِ لهو ولا لعب نقل حماد التركي قال كنت واقفا على راس المنصور فسمع جلبة فقال انظر ما هذا فذهبت فاذا خادم له قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فاخبرته فقال واي شيء الطنبور فوصفته فقال وكيف تعرفهُ انت قلت رايته بخراسان فقام اليهنّ فلما راينهُ تفرقنَ فامر بالخادم فكسروا الطنبور على راسه وترك المنصور جملة بنايات وحارب الاعدا مراراً وخلف نحو ثلاثين مليون ليرا انكليزية بعد ما انفق مبالغ في حجاته

وكان طبيبهُ بختيشوع الجنديسابوري اشهر اطباء زمانهِ واسمهُ جيورجيوس ولما اراد هذا الرجوع الى وطنهِ واذن له المنصور خلف عندهُ تلميذه عيسى بن سهلاثا ثم نفى المنصور عيسى هذا الذنب

وكان المنصور يميل الى علم الافلاك وله مطالعة فيهِ وكان نوبخت المنجم الفارسي البارع في صحبتهِ دائماً وكان حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها وقد استخلف ولدهُ ابا سهل عوضهُ لما عجز واسم ابي سهل كان اولا (خرشاذماه وطيماذه مابازار خسير وابهشاد) فاستطوله المنصور واراد ان يقتصرهُ على طيماذ او يختار له اسما خلافهُ فاختار ابن نوبخت ابا سهل وعاد ذلك اسمهُ وخلف المنصور محمد المهدي وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الاصغر وصالحاً المسكين واما جعفر الاكبر فكان قد مات في حياة ابيهِ

خلافة محمد المهدي رابعهم (من سنة ١٥٨ـ٧٧٤ الى سنة ١٦٩ ـ ٧٨٥

وكان ابو جعفر قد عهد بالخلافة للمهدي وبعدهُ لعيسى بن موسى فابى عيسى البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة فبعث المهدي ابا هريرة اليهِ في الف فارس وهذا بعد المراوضة والمراودة قبلهُ بذلك ويخلع نفسهِ تحت عشرة الاف درهم. وعهد المهدي لابنهِ موسى الهادي وارسل (سنة ١٥٩) عبد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجند والمتطوعة الى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بارض الهند وفتحوا باربد عنوةً ولجا اهلها الى البلد فاحرقوهُ عليهم ثم اصاب المسلمين وباء وبرجوعهم عصفت بهم الريح عند ساحل حران فانكسرت عامة مراكبهم ونجا منهم نزرٌ. وحج المهدي في اول خلافتهِ وفرق بالناس اموالاً عديدة وصرف ستة ملايين دينار في حجهِ فانهُ اقام في كل طريقهِ ومسافتها سبعماية ميل منازل وخانات للقوافل وكان صحبته عدد غفير من الناس ومن الجمال الحاملة الثلج. واعطى لرجل قدم له وهو في مكة احدى نعلي النبي عشرة الاف درهم ثم التفت الى بعض الحاشية وقال «والله محمد صلعم لم يرَ هذا النعل ولكن لو ابيت قبوله لقالوا انهُ كان حقيقة للنبي واني احتقرته عمداً فان الجمهور يميل دائماً الى الضعفاء ضد الاقوياء» وامر المهدي باتخاذ المصانع في طريق مكة وتجديد الاميال والبرك وبحفر الركايا (سنة ١٦١ ـ ٧٧٧) وبتقصير المنابر في البلاد وجعلها بمقدار منبر الرسول وفي سنة ١٦١) اجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من افريقية الى الاندلس داعية لبني العباس ونزل بساحل مرسية وكاتب سليمان بن يقظن عامل سرقسطه في طاعة المهدي فلم يجبهُ فقصد بلادهُ في من معهُ من البربر فهزمهُ سليمان وعاد الى تدمير. وسار اليهِ عبد الرحمن صاحب الاندلس واحرق السفن في البحر تضييقاً على ابن حبيب في النجاة فاعتصم بجبل منيع في نواحي بلنسية فبذل عبد الرحمن اليهِ المال فاغتاله بعض البربر وحمل راسهُ اليهِ فاعطاهُ الف دينار (سنة ١٦٢)

وكان مراد عبد الرحمن الركوب على الشام وغزوها بثاره فعصى عليه بعض الولاة فشغله عن ذلك ثم تجهز (سنة ١٦٣هـ ٧٧٩م) لحرب الروم وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام للبدندون تاركا ولده موسى في بغداد واخذ معه هرون الرشيد . وفي حلب سمع ان في تلك الجهات زنادقة فجمعهم وقتلهم واحرق كتبهم ونهض الى جيحان وجهش ولده هرون للغزو فتغلغل في البلاد وفتح وعاد سالما غانما وظهر وقتئذ رجل اسمه يوسف البرم وادعى الولاية واستغوى خلقا عديدا وظهر يوشيا وادعى النبوة فبعث اليه المهدي جيوشا واتى به فصلبه ثم ظهر المقنع الخراساني واسمه عطا وقتل وكان رجلا غريبا يخيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع قيل نحو شهرين وقد اشار ابن سناء الملك الى ذلك

اليك فما بدر المقنع طالعا باسحر من الحاظ بدري المعمم

قالوا وادعى المقنع الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الالهي في الانبياء كلهم الى ان حل فيه وعمر قلعة تسمى سنام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كبش وتحصن بها من طالبيه وكان يقول بالتناسخ فاجتمع الناس اليه وحصروه في قلعته ولما يئس من نفسه سقى نساءه سما فمتن ثم تناول نفسه فمات ودخل المسلمون قلعته وقتلوا من بها من اشياعه وقيل انه بعد تناوله السم القى نفسه بالنار لئلا يلقى العدو جسده فدخل العسكر ووجد القلعة خالية خاوية وكان ذلك مما زاد افتتان من بقي من اصحابه بما وراء النهر فقالوا انه صعد وكان قد وعدهم ان روحه تتحول الى قالب رجل اشمط على برذون اشهب وانه يعود اليهم ويملكهم الارض فكانوا ينتظرونه ويعرفون بالمبيضة

وكان المقنع المذكور في بداية امره قصارا من اهل كاوه من اعمال مرو وكان مشوه الخلق قصيرا اعور اتخذ له برقعا من ذهب لا يسفر عن وجهه ابدا ولذلك دعي المقنع

وفي سنة ١٦٥هـ ٧٨١م) في عهد ايريني زوجة الملك لاون جهز المهدي ابنه هرون الرشيد الى غزو الروم في جيش كثير وكان ولد ايريني نيقونور صغيرا في حجر امه وسار هرون حتى بلغ خليج القسطنطينية فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد فقبل بشرط الفدية وارسال الادلة معه واقامة الاسواق في طريقه فاجابته الى ذلك وكانت الفدية سبعين الف دينار كل سنة وكان في ذهابه اتخذ طريقا وعرا ودخل مداخل ضيقة بين نهر سانغريس وجبال خشنة فارسلوه في طريق جيدة (سنة ١٦٦هـ ٧٨٢م) .. وكان المهدي مولعا باللهو ويأذن بالشرب بحضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود بن طهمان فالقاه في السجن وفيه يقول بشار بن برد

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وبقي يعقوب محبوسا الى خلافة الرشيد فاخرجه وقد عمي فلحق بمكة وقتل المهدي بشار المذكور ورتب بريدًا بين مكة والمدينة واليمن من بغال وابل

وتوفي المهدي (آخر محرم سنة ١٦٩ = ٧٨٥ م) بماسبذان وكانت خلافته نحو عشر سنين وعمره ثلاثًا واربعين سنة ودفن تحت جوزة وكان في زيته من خلع ابنه موسى الهادي والعهد للرشيد وهو بجرجان فابى الهادي وسار المهدي بريده فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جارية الى كمثرى فاهدته الى جارية اخرى كان المهدي يحبها وكانت سمّت الواحدة منهنّ وهي الاحسن فمر المهدي وكان يحب الكمثرى فاخذ تلك الكمثراة المسمومة واكلها وصاح من وقته جوفي جوفي . فسمعت حسنة فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول «اردت ان انفرد بك فقتلتك» ومات من يومه

حكي انه لما هم المهدي بالخروج الى ماسبذان تقدم الى حسنة حظيته ان تخرج معه فارسلت الى طوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وكان رئيس المنجمين قائلة انك اشرت على امير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفرًا لم يكن في الحساب فعجل الله موتك واراحنا منك فلما بلغته الرسالة قال للجارية ارجعي اليها وقولي ان هذه الاشارة ليست مني واما دعاءك علي بتعجيل الموت فهذا الشيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي انه بدعوتك ولكن اعدي لنفسك ترابًا كثيرًا فاذا مت انا فاجعليه على راسك فما زالت متوقعة تاويل قوله منذ توفي الى ان مات المهدي بعد عشرين يوما قال ابو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب في التاريخ حسن ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اللغة اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة

واشتهر في الطب ابو قريش عيسى الصيدلاني وصار طبيبا في دار الخلافة ولكن ليس عن علم بل عن رزق واتفاق لا محل لذكره هنا

في الصوائف

اما الصوائف فان المهدي اغزى عمه العباس بالصائفة وعلى مقدمته حسن الوصيف فبلغوا أنقرة وفتحوا مدينة اوهرة ورجعوا سالمين . وغزا بالصائفة (سنة ١٦١) ثمامة بن الوليد فنزل دابق وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين الفا ونزلوا عمق مرعش فقتلوا وسبوا وغنموا وحاصروا مرعش فقتل من المسلمين عدد وانصرفوا الى جيحان وكان عيسى بن علي مريضا بحصن مرعش فعظم ذلك على المهدي وتجهز لغزو الروم وخرجت الروم (سنة ١٦٢) الى الحدث فهدموا اسوارها . وغزا بالصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين الفا من المرتزقة فبلغ جمة ادرركيه واكثر الحريق والتخريب ولم يفتح حصنا ولا لقي جمعا ورجع سالما . وغزا يزيد بن اسيد السلمي من ناحية قاليقلا فغنم وسبى وفتح ثلاثة حصون

ثم غزا المهدي بنفسهِ (سنة ١٦٣) كما تقدم ثم غزا (سنة ١٦٤) عبد الكبير من بني الخطاب من درب الحرث فالتقاهُ ميخائيل وطارد الارمني البطريقان في تسعين الفا فحام عن لقائهم ورجع فغضب عليهِ المهدي وهمّ بقتلهِ فشفع فيهِ فحبسهُ وبعث المهدي (سنة ١٦٥) ولدهُ الرشيد بالصائفة وبعث معهُ الربيع فتوغل في بلاد الروم ولقيهُ عسكر نقيطة من القوامس فبارزه يزيد بن مزيد فهزمهم وغلب على عسكرهم ولحقوا بالدمستق صاحب المالح فحمل له مابتي الف دينار واثنين وعشرين الف درهم وسار الرشيد بعساكرهِ وكانت نحوًا من مائة الف فبلغ خليج القسطنطينية . فجرى الصلح على الفدية كما تقدم لمدة ثلث سنين وكان ما سباهُ المسلمون قبل الصلح خمسة الاف وستمائة راس وقتل من الروم في وقائع هذه الغزوات اربعة وخمسون الفا وأُسر الفان ثم نقض الروم هذا الصلح (سنة ١٦٨) ولم يستكملوا مدتهُ فارسل علي بن سليمان عامل الجزيرة يزيد بن البدر بن البطال فغزاهم وظفر وغنم وسبي ورجع سالما برجالهِ

خلافة موسى الهادي وهو خامسهم (من سنة ١٦٩ ـ ٧٨٥ الى ١٧٠ ـ ٧٨٦)

وكان الهادي في جرجان يحارب اهل طبرستان اذ توفي ابوه محمد المهدي فبويع له بالخلافة في العسكر يوم توفي المهدي ولما وصل الرشيد والعسكر الى بغداد من ماسبذان بايعوا الهادي في بغداد وكتب الرشيد الى الاقطار بوفاة ابيهِ واخذ البيعة لاخيهِ ثم جاء الهادي بعد عشرين يوما ودخل بغداد واستوزر الربيع

واعلم انهُ منذ ابتدا الدولة العباسية اخذت تظهر في احضان الامة امارات الانشقاق والتشعب فكان يظهر من وقت الى وقت اصحاب دعوى وينفصلون عن الدولة العباسية ويستبدون بالاحكام كما تراهُ في سياق هذا التاريخ فان في السنة الاولى من ملك الهادي ظهرت دعوة الحسين من اولاد علي ومعهُ جماعة من اهل بيتهم منهم الحسن بن محمد وعبد الله بن اسحق واشتد امر الحسين المذكور واختلف مع عامل الهادي في المدينة عمر بن عبد العزيز من نسل عمر بن الخطاب وآل الامر بينهما الى قتال فيهِ انهزم عمر وبايع الناس الحسين واقام مع اصحابهِ في المدينة يتجهزون احد عشر يوما ثم قاموا الى مكة ولحق بهِ جماعة من عبيد مكة واتفق انهُ كان قد حج تلك السنة جماعة من بني العباس وشيعتهم منهم سليمان بن المنصور وولدهُ محمد فانضم اليهم جماعتهم وقوادهم واقتتلوا مع الحسين يوم التروية فقتل الحسين وانهزم قومهُ واخذ راس الحسين ونحو مائة اخرى من جماعتهِ منهم سليمان بن عبد الله بن الحسن ثم اختلط المنهزمون بالحاج وكان مقتلهم بمكان يدعى (وج) وهو عن مكة الى جهة الطائف فافلت من المذكورين ادريس بن عبد الله بن الحسن

فذهب مصر وكان على البريد واضح مولي بني العباس وكان شيعيا فحمل ادريس المذكور الى المغرب الى ارض طنجة وكان ذلك سبباً لقتل واضح وبقي ادريس هناك الى ان ارسل الرشيد الشماخ فاغتاله بالسم وكان له حظية حبلى فولدت ابنا سموهُ على اسم ابيهِ وهذا لما كبر استقل بملك تلك البلاد ومنهُ جاءَت الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء مراكش (سنة ٤٦٢ ـ ١٠٧٠)

وكان الحسين المذكور شجاعاً كريماً قدم مرة على المهدي فاعطاهُ اربعين الف دينار ففرقها ببغداد والكوفة وخرج منها وهو دون قميص لايملك الا فروة وملك الهادي كان قصيرًا وعقيماً من الحوادث وتوفي (سنة ١٧٠ ـ ٧٨٦) انصاف ربيع الاول وعمرهُ ست وعشرون سنة وخلافته نحو سنتين وثلاثة اشهر قيل ان امهُ الخيزران كانت تستبد بالامر في خلافتهِ فكلمته يوما في امر لم يجد لاجابتها اليهِ سبيلاً فقالت لا بد من الاجابة فغضب الهادي وقال والله لا قضيتها لكِ فقالت اذاً والله لا اسالك حاجة قال لا ابالي فقامت مغضبة فقال « مكانك والله لئن بلغني انهُ وقف في بابك احد من قوادي لاضربن عنقهُ فما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك اما لكِ مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك » فانصرفت وهي لا تعقل من شدة الغضب الى ان امرت الجواري فغممن وجههُ وهو مريض فمات ودفن بعيساباذا الكبرى في بستانهِ وكان طويلاً جسيما ابيض وبشفتهِ العليا تقلص وترك سبعة بنين وبنات

خلافة هرون الرشيد وهو سادسهم (من سنة ١٧٠ ـ ٧٨٦ الى ١٩٣ ـ ٨٠٨

ونهض هرون الرشيد بن محمد المهدي على الخلافة وعمرهُ اثنان وعشرون سنة واستوزر يحيى بن خالد والقى اليهِ مقاليد الامور واظهر غيرة وهمة في نمو ملكهِ فاق بهما من تقدمهُ وامر بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزًا واحدًا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس

وبوقته توفي عبد الرحمن الاموي (سنة ١٧١ ـ ٧٨٧) بقرطبه بعد ان اقام جامعًا على اساس احدى الكنائس وانفق عليهِ مائة الف دينار وولد عبد الرحمن في دمشق (سنة ١١٣ ـ ٧٣١) وملك في الاندلس ٣٣ سنة وخلفهُ ولده هشام وكان عبد الرحمن اصهب خفيف الشعر طويلاً نحيفًا اعور

توفيت الخيزران ام الرشيد (سنة ١٧٣ ـ ٧٨٩) وزار الرشيد مكة محرما وقسم في الحرمين مالاً كثيرًا وعزل لاول خلافتهِ عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانهُ اسحق بن سليمان وتوفي يزيد بن حاتم عامل افريقية فولى مكانهُ ابنهُ الفضل ثم قتل فولى هرثمة بن اعين وكان على مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى الكوفة عيسى بن موسى وعلى البحرين والبصرة واليمامة وعمان والاهواز

وفارس محمد بن سليمان بن علي وعلى خراسان ابو الفضل العباس بن سليمان الطوسي فعزلهُ وولى مكانهُ جعفر بن محمد بن الاشعث فسار الى خراسان و بعث ابنهُ العباس الى كابل ففتحها وفتح سابهار وغنم ما كان فيها وتوفي سنة ١٧٣ محمد بن سليمان وقتئذٍ والي البصرة وكان اخوهُ جعفر كثير



هرون الرّشيد

السعاية فيهِ عند الرشيد وان اموالهُ كلها فيءٌ من اموال المسلمين فارسل الرشيد من قبضها وكانت كثيرة جدًّا واحضروا من العين فيها ستين الف الف دينار

فصل

في الربع الرابع من القرن الثاني

وتحرك يحيى بن عبد الله بن الحسين الى الديلم وحزب اليهِ فجهز الرشيد عليهِ الفضل بن يحيى (سنة ١٧٥ ـ ٧٩١) بجيش غفير فكاتبهُ الفضل وبذل لهُ الامان فاسترضاهُ واتي بهِ الى الرشيد فاكرمهُ وانعم عليهِ ثم حبسهُ حتى مات . وفيها هاجت الفتنة في دمشق بين المصرية واليمانية في ولاية عبد الصمد بن علي فجمع الرؤساء وسعوا بالصلح فتكلموا مع بني القين فاجابوا اليهِ فكلموا اليمانية فحاولوا وساروا الى بني القين وقتلوا منهم ستماية نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليحا فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسًا فاجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانماية واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد وولاها ابرهيم بن صالح

و(في سنة ١٨٠ـ٧٩٦) توفي هشام صاحب الاندلس وكانت خلافتهُ سبع سنين وسبعة اشهر وعمرهُ تسعا وعشرين سنة وخلفهُ ولدهُ الحكم فخرج عليهِ عماهُ سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن الداخل وكانا في بر العدوة وتحاربوا مدة وكانت العاقبة استقرار الحكم في الملك وقتل سليمان والصلح مع عبد الله واستغنم الافرنج وقتئذٍ فرصة القتال فذهبوا الى الاندلس وفتحوا مدينة برشلونه

وهدم الرشيد سور الموصل (سنة ١٨٠) لعصاوات اهلها المتكررة وغزا ارض الروم (سنة ١٨١ـ ٧٩٧) وفتح حصن الصفصاف وقلد (سنة ١٨٤ ـ ٨٠٠) حماد البربري اليمن ومكة وولى داود بن يزيد المهلبي السند ويحيى الحرسي الجبل وولى مهرويه الرازي طبرستان وابرهيم بن اغلب افريقية وكان على الموصل واعمالها يزيد بن مرثد الشيباني

وكانت (سنة ١٨٣ ـ٧٩٨) قد حملت بنت خاقان الخزر الى الفضل بن يحيى البرمكي فماتت ببرذعه فرجع الذين معها الى ابيها واخبروهُ انها قتلت غيلة فتجهز الى بلاد الاسلام وبوقتهِ سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن لاون واقروا امهُ ايريني وغزا المسلمون الصائفة وبلغوا افسس مدينة اصحاب الكهف . و(سنة ١٨٣ ـ ٧٩٨) خرج الخزر بسبب ابنة الخاقان من باب الابواب واوقعوا بالمسلمين واهل الذمة وسبوا اكثر من مائة الف وانتهكوا امرًا عظيمًا لم يسمع بمثلهِ

و(سنة ١٨٦) حج الرشيد ومعهُ اولادهُ الثلثة محمد الامين وعبد الله المامون والقاسم وكان قد ولى الامين العهد واعطاهُ العراق والشام الى اخر المغرب وولى المامون العهد بعدهُ وضم اليهِ من همذان الى اخر المشرق وبايع لابنهِ القاسم من بعد المامون ولقبهُ المعتصم وجعل خلعهُ واثباتهُ للمامون وجعلهُ في حجر عبد الملك صالح وضم اليهِ الجزيرة والثغور والعواصم ومر بالمدينة فاعطى فيها ثلثة

اعطية واحد منهُ واخر من الامين واخر من المامون فبلغ الف الف دينار وخمسمائة الف دينار. ثم سار الى مكة فاعطى مثلها واحضر الفقها والقضاة والقواد وكتب كتابي العهد واشهد فيهِ بالوفاء على الامين والمامون وعلقها في الكعبة ولما كان في طبرستان (سنة ١٨٩) اشهد ان ما في عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع للمامون وجدد لهُ البيعة عليهم وارسل الى بغداد فجدد لهُ العهد على الامين

و(في سنة ١٨٦) اوقع الرشيد بالبرامكة وقد اختلف في السبب والاكثر لاتيان جعفر عباسة اخت الرشيد فانهُ كان زوجها من جعفر ليحل لهُ النظر اليها لان الرشيد لم يكن يصبر عن اختهِ ولا غنى لهُ عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منهُ وجاءت بغلام وقيل انها ولدت توامين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فاسراهُ وقيل قتلهم حسدًا لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالكرم واحبهم الناس. وكان قتل جعفر بالانبار في صفر وبعد قتلهِ ارسل من احاط بيحيى ولده وجميع اسبابهِ واخذ ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كل البلاد بقبض اموالهم ووكلائهم وارسل راس جعفر وجثتهُ الى بغداد وامر بوضع الراس على جسر وجثتهُ على جسر اخر ولم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك لبراءتهِ وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة وفيهم قال الرقاش

الان استرحنا واستراحت ركابنا	وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد امنت من السرى	وطي الفيافي فدفدًا بعد فدفدِ
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر	ولم تظفري من بعدهِ بمسودِ
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي	وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفا برمكيًا مهندًا	اصيب بسيف هاشمي مهند

وعند قتلهِ البرامكة امر الرشيد بعباسة اختهِ فجعلت في صندوق ودليت الى بئر وهي حية وامر بابنها او ابنيها فاحضرا فنظر اليهما مليا وبكى ثم امر بهما فرميا في البئر وطمرها

والبرامكة عيلة فارسية شهيرة كان لهم قبل الاسلام مائتي سنة رتبة الامامة والكهنوت في بلخ وقال يحيى بن خالد لما نكب «الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا اسوة وفينا لمن بعدنا عبرة»

واذ تشكى احد اولاده المسجونين معهُ من معاملة الخليفة لهم بعد ان خدموا المملكة بصدق وامانة قال لهُ «لعلنا ظلمنا احدًا فدعا علينا واستجاب الله دعاهُ» وبعد قتلهِ شوهد في حضنهِ رقعة مكتوب فيها «المقرَّف يذهب اولاً والمقرّف يتبعهُ قريبًا وسيتصب الاثنان امام قاض عدل حيث لا تغني الكتابات والاعذار شيئا» وكان يقول لاولادهِ في حياتهِ «كونوا كرماء في زمان نعمتكم فلا تنقضي عنكم وجودوا كذلك في الباساء لانكم ان تباخلتم اضعتم كل شي»

وهرون في قتله البرامكة ابقى له ذكرًا رديا في التاريخ

وكان هرون مجتهدًا في انشاء العلوم وتقدم المملكة . . وعقد المحابة مع كارلوس الكبير (شارلمان) ملك فرنسا وارسل اليه سفراء الى «بروسل وافريا» وهدايا لائقة به وما بينها ساعة على دواليب وكانت من النوادر في اعين اهل المغرب وتمتئذٍ وهي كانت الة معدنية تسير على دواليب كالساعات الحاضرة وتقسم الوقت الى اثني عشر جزءًا وفيها ثنتا عشرة كرة كل كرة لجزء تسقط الى صحن من فضة وينفتح لها اثنا عشر بابا يدخل بها اثنا عشر فارسا كل فارس لساعة وكانت تدل فوق ذلك على ارباع القمر وايام الجمعة ولا عجب من هذا التواد بين هرون وشارلمان لان كليهما كان عدوًّا لايريني واميرا اسبانيا . وقيل ان هرون عرض على شارلمان القدس واهداه مقاليد القبر الا ان هذا بعيد عن التصديق لما لبيت المقدس من الاحترام عند المسلمين وهو مملوء من الجوامع فلا يسمحون به للافرنج

و(في سنة ١٨٧ ـ ٨٠٢) خلع الروم ايريني وملكوا نيقوفور فكتب الى هرون الرشيد كتابا فيه يشير الى لعب الشطرنج المعتمد وقتئذٍ في بلاد الروم قائلاً « من نيقوفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك العرب »

اما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك رخا واقامت نفسها بيدقا فجعلت اليك من اموالها ما كنت حقيقا بحمل اضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وحمقهنّ فاذا قرأت كتابي فاردد علينا ما سلبته من اموالنا والا فالسيف يقضي فيما بيننا » ولما وصل السفراء قدموا الكتاب فاخذه هرون الرشيد وقراه واذ وصل الى قوله «والا فالسيف يقضي» القى الرسل ضمة سيوف امامه فتبسم هرون واستل سيفه الشهير في تاريخ العرب وضرب بها تلك السيوف الرومية فبراها كما يبري الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم

«من هرون امير المومنين الى نيقوفور كلب الروم قد قرات كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراهُ لا ما تسمعهُ » ثم ركب عليه من يومه حتى نزل على هرقله ففتح وغنم وخرب وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين الفًا غازيا في ارضهم . وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة وديسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف وقونية . واناخ عبد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع . واستعمل الرشيد حميد بن معيوب على الاساطيل ممن بسواحل الشام ومصر الى قبرس فهزم وخرب وسبى من اهلها ١٧ الفا وجاءبهم الى الرافقة فبايعوا بها و بلغ فدا اسقف قبرس الفي دينار . وسار الرشيد الى طوانه فنزل بها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسأله نيقوفور الصلح على خراج يحمله كل سنة فصالحه ورجع الى قصره على الفرات . ولما راى الروم انه بعد عنهم خمسمائة ميل وقد

جاء زمان الشتاء جددوا العصيان فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وحاربهم وقتل منهم اربعين الفا وجرح نيقوفور في ثلاثة مواضع ثم عصى ثالثة وجيش عليه واخضعه وكان هرون يركب على مائة وخمسة وثلاثين الفا من العساكر المرتزقة سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلاثمائة الف وبهذا الجيش تجاوز كل مدن اسيا الصغرى حتى انقيرة وحاصر هرقلة في بنطوس شهرًا واخربها واخذ منها خيرات وافرة ولو كان يعلم تاريخ اليونان لكان ابقى تمثال البطل هرقل من الذهب حيث كانت عصاه وقوسه وخوذته وجلد الاسد ولم يزل العرب يخربون ويفتحون ويسلبون ولايات اليونان في البحر الاسود الى قبرص حتى تاب نيقوفور عن العصيان وتصالحا على ان تبقى مدينة هرقله خربة امثولة لليونان وذكرًا لظفره وعلى ان يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم اولاده الثلاثة

وسار الرشيد الى الري ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وامر باحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقه وبوقته نقض اهل قبرص العهد فغزاها معتوق (او معيوب) بن يحيى وكان عاملاً على سواحل مصر والشام وسبى اهلها وتوفي يحيى بن خالد في السجن في الرقه وعمرهُ سبعون سنة (سنة ١٩٣) وتوفي الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك مسجونا في السنة الثانية وعمرهُ خمس واربعون سنة في الرقه وكان من محاسن الدنيا ولم يرَ في العالم اجمل منه

في الصوائف

نقل الطبري ان الرشيد كان يغزو عاما ويحج اخر ويصلي كل يومماية ركعة ويتصدق بالف درهم واذا حج حمل معه مئة من الفقهاء ينفق عليهم واذا لم يحج كان ينفق على ثلاثماية حاج نفقة شائعة وكان يحتذي باثار المنصور في بذل المال فلم يرَ خليفة قبله ابذل منه وكان لما يقعد عن الغزو يغزو بالصائفة كبار اهل بيته وقواده فغزا بالصائفة (سنة ١٧٠) سليمان بن عبد الله البكائي وقيل غزا بنفسه. وغزا بالصائفة (سنة ١٧٣) اسحق بن سليمان بن علي فاثخن في بلاد الروم وغنم وسبى وغزا (سنة ١٧٤) بالصائفة عبد الملك بن صالح وقيل ابوه فبلغ في نكاية الروم ما شاء واصابهم برد شديد سقطت منه ايدي الجند وغزا (سنة ١٧٧) عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي (وسنة ١٧٨) زفر بن عاصم وغزا الرشيد (سنة ١٨١) بنفسه ففتح حصن الصفصاف واغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقرة وفتح مطمورة فكان الفدا بين المسلمين والروم وهو الاول في دولة بني العباس وتولاهُ القاسم بن الرشيد واخرج له من طرسوس ابا سليمان فرج الخادم الوالي عليها فنزل المدامس على اثني عشر فرسخا وحضر العلماء والاعيان وخلق من اهل الثغور وثلاثون الفا من الجنود المرتزقة وجاء الروم بالاسرى وكان اسرى المسلمين ٣٧٠٠

وغزا بالصائفة (سنة ١٨٣) عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح (افسوس) مدينة اصحاب

الكهف وبلغهم ان الروم سملوا ملكهم قسطنطين بن ليون وملكوا امه ايريني وتلقب اوغسطه فاغتنموا في البلاد وربحوا (وسنة ١٨٣) كان ما كان من امر خاقان الخزر فولى الرشيد يزيد بن مزيد امر غزوهم فانتصر عليهم و(سنة ١٨٦) كان فدا عام بين المسلمين والروم (وسنة ١٨٧) غزا قاسم بن الرشيد وجعله قربانا لله وولاه الرشيد العواصم فاناخ على قرة وضيق عليها بن جعفر بن الاشعث فحاصر حصن سنان حتى جهد اهله وفادى الروم بثلثمائة وعشرين اسيرًا من المسلمين على ان يرحل عنهم فاجابهم وتم بينهم الصلح وكان ملك الروم وقتئذٍ بن ايريني فخلعه الروم وملكوا نيقوفور وكان على ديوان خراجهم وماتت ايريني بعد خمسة اشهر ولما ملك نيقوفور حصل ما حصل بينه وبين الرشيد فغزاهُ مرتين واثخن في بلاده (سنة ١٩٠) وغزا بالصائفة (سنة١٨٨) ابرهيم بن جبريل ودخل من درب الصفصاف فخرج اليه نيقوفور ملك الروم فهزم وقتل من عسكره نحوار بعين الفا وفيها رابط القسم بن الرشيد ابق و(سنة ١٨٩) كتب الرشيد وهو بالري كتب الامان لشروين ابي قارن ووندا هرمز جد مازيار مرزبان خستان صاحب الديلم وبعث بها مع حسين الخادم الى طبرستان وقدم خستان ووندا هرمز فاكرمها الرشيد واحسن اليهما (وسنة ١٩٠) غزا يزيد بن مخلد الهبيري ارض الروم في عشرة الاف فاخذت الروم عليه المضائق فانهزم وقتل في خمسين من اصحابه على مرحلتين من طرسوس · واستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن اعين قبل ان يوليه خراسان وضم اليه ثلثين الفا من خراسان وسار بالعساكر الاسلامية في اثره ورتب بدرب الحرث عبد الله بن مالك وبرعش سعيد بن مسلم بن قتيبة واغارت الروم عليه فاصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك من مكانه وبعث الرشيد محمد بن زيد بن مزيد الى طرسوس واقام هو بدرب الحرث وامر قوادهُ بهدم الكنائس في جميع الثغور واخذ اهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم وامر هرثمة ببناء طرسوس وتولى ذلك فخرج الخادم بامر الرشيد وبعث اليها جندًا من خراسان ثلاثة ايام واشخص اليهم الفا من اهل المصيصة والفا من انطاكية فتم بناؤها (سنة ١٩٢) وفي هذه السنة تحركت الخرامية بناحية اذربيجان فبعث اليهم عبد الله بن مالك فقتل وسبي واسر فامره الرشيد بقتل الاسرى وبيع السبي واستعمل الرشيد على الثغور ثابت بن مالك الخزاعي ففتح مطمورة وكان الفدا على يديه بالبدندون ثم كان الفداء الثاني وكان عدد الاسرى من المسلمين فيه ٢٥٠٠

ولم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق القيام ببغداد وقام (سنة ١٩٣) من الرقه الى خراسان ومن بغداد طالبًا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه على الرشيد بسمرقند ولما كان في طوس جيء بشيرا بن الليث اسيرًا فقال له الرشيد والله لو لم يبق من اجلي الا ان احرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوهُ ثم امر بقصاب ففصل اعضاءه وهذا هو ليث بن الصفار ومنه الدولة الصفارية

و (في سنة ١٩٣) لثلاث خلون من جمادي الاخرة قضى الرشيد نحبهُ وكان فيهِ مرض فاشتدت علتهُ بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولدهُ المامون الى مرو وحفر الرشيد قبرهُ في وسط الدار التي كان فيها وعندما حضرهُ الموت كان خائفًا مرعوبًا وغشي عليهِ ثم افاق فراى الفضل ابن الربيع فقال يافضل!

احين دنا ما كنت اخشى دنوهُ رمتني عيون الناس من كل جانبِ

فاصبحت مرحومًا وكنت محسدًا فصبرًا على مكروهِ مر العواقبِ

سابكي على الوصل الذي كان بيننا واندب ايام السرور الذواهبِ

وكان عمرهُ سبعًا واربعين سنة وولايتهُ نحو ثلاث وعشرين سنة وكان جميلاً ابيض قد وخطهُ الشيب وترك اثني عشر ابنًا وخمس عشرة بنتا وعهد بالخلافة الى الامين ثم من بعده الى المامون ومن بعد المامون للمعتصم والخيار فيهِ للمامون وكتب عهدًا بذلك وجعلهُ في الكعبة

وكان هرون يطوف كل ولايات ملكه من خراسان الى مصر وحج خمس مرات ولما راى تكاثر الحديث عن النبي امر بان لا يعتمدوا الا القران وبعض الحديث المجمع على صحتهِ وجمع جميع الكتب التي كانت سببًا للجدال فكانت حمل مائتي جمل فارسل ورماها في دجلة . وركب تسع مرار على الروم وفي دهره وبامره الف الاصمعي حكايات الف ليلة وليلة التي ترجمت لفضلها الى جميع لغات الافرنج وفي عهدهِ امر بنفي جميع المطر بازيه وهم بياعو العطارات والادوية بين البيوت وذلك انهُ بينما كان راكبا يوما مع احد اطبائهِ الشهيرين سمع الطبيب صوت مطر بازي ينادي دواء لجميع الادواء فغضب الطبيب وقال للخليفة ما كنت اظن يا امير المومنين ان قتل النفوس مباح في ملك العرب واخبرهُ بالامر فنفاهم اجمعين وكان طبيب الرشيد بختشيوع بن جيورجيس النيسابوري وكان يلقب بيد موسى البيضا ونفس عيسى لما كان يبديهِ من البراعة في فنهِ وكان ولده جبريل طبيبًا لجعفر وكان ماهرًا حاذقا وشفى حظية للرشيد من يبس وقع في ذراعها بالحيلة قيل ان الحظية تمطت ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردها وقد كان عالجها الاطبا بالتمريخ والادهان مدة فلم تنتفع فجي بجبريل المذكور فاقبل عليها واظهر نيتهُ من تعريتها امام الجمهور فمن الخجل والانزعاج استرسلت اعضاءها وبسطت يدها

ومن اطبا الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمة وخدم الدولة العباسية الى ايام المتوكل وكان معظما جليل القدر ولهُ جملة مولفات وكان يعقد مجلسًا للنظر ويجري فيهِ من كل نوع من العلوم القديمة وكان يدرس ويجمع اليهِ التلامذة . ومنهم ايضا صالح بن نهلة الهندي وكان ماهرًا حذقا ولهُ نكت لا محل لها هنا وقالوا ان محمد المهدي كان وهب

ولدهُ الرشيد خاتماً شراه بمائة الف دينار فاتاهُ رسول اخيهِ الهادي عندما تولى يطلب الخاتم فرماه في دجلة فدعا للغواصين عند خلافتهِ وغاصوا عليهِ فوجدوهُ وفرح بهِ وولد لهُ المامون ليلة مات ابوهُ فقيل مات خليفة وولد خليفة وقام خليفة في وقت واحد

نبذة في الخوارج

كان قد ظهر في زمان السفاح (سنة ١٣٧) من العباسيين ملبد بن حرملة الشيباني بالجزيرة فسارت اليه روابط الجزيرة في الف فارس فهزمهم ثم سار اليهِ يزيد بن حاتم المهلبي ومهلهل بن صفوان مولى المنصور ثم نزار من قواد خراسان ثم زياد بن مسكان ثم صالح بن صبيح فهزمهم كلهم واحدًا بعد واحد ثم سار اليهِ عامل الجزيرة حميد بن قحطبة فهزمهُ وتحصن حميد منهُ فارسل المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن في الجيوش ومعهُ زياد بن مسكان فقاتلهم ملبد وانهزم عبد العزيز وقتل من معهُ فبعث المنصور حازم بن خزيمة في ثمانية الاف من اهل خراسان فسار الى الموصل وعبر اليهِ ملبد دجلة وقاتلهُ فانهزم اهل الميمنة واهل الميسرة من رجال حازم ثم ترجل حازم واصحابهُ وترجل ملبد كذلك واشتد القتال وقتل ملبد ونحو الف ومائة من رجالهِ وانجلى الامر بانتصار حازم وتبع فضالة صاحب الميمنة المنهزمين وقتل منهم زها مائة وخمسين

وخرج (سنة ١٤٨) بنواحي الموصل في زمان المنصور حسان بن مجالد الهمذاني وكان على الموصل الصقر بن نجدة فسار الى حسان فهزمهُ الى دجلة وسار حسان الى عمان ثم الى البحر وركب الى السند وقاتل وكاتب الخوارج بعمان يدعوهم ويستاذنهم في اللحاق بهم فابوا وعاد الى الموصل فخرج اليهِ الصقر بن الحسن الهمذاني وهلال فقتل هلالاً واستبقى ابن الحسن فاتهمهُ بعض اصحابهِ بانهُ ابقاهُ للعصبية بينهما وتركوهُ وعزم المنصور على الفتك باهل الموصل لانهم كانوا عاهدوا على عدم الخروج ولكنهُ استفتى بذلك فلم يجوزه لهُ العلماء لانهم كانوا مكرهين على الخروج

ثم خرج في ايام المهدي يوسف بن ابرهيم المعروف بالبرم بخراسان واجتمع بشركس فبعث اليهِ المهدي يزيد بن مزيد الشيباني فاقتتلوا قتالاً شديدًا واسر يوسف وارسل الى المهدي موثوقاً واركب بعيرًا ووجههُ الى ذنبهِ ·وتولى الخوارج على بوشنج ومروالروذ والطالقان والجوزجان وخرج ايام المهدي حمزة بن مالك الخزاعي (سنة ١٦٩) وهزم منصور بن زياد صاحب الخراج وقوي امره ثم اغتالهُ بعض اصحابهِ وقتل ثم خرج في اخر ايام المهدي بارض الموصل ياسين من بني تميم وضرب عسكر الموصل وهزمهُ وغلب على اكثر ديار ربيعة والجزيرة فشيع اليهِ المهدي ابا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن اعين فحارباهُ حتى قتل في عدة من قومهِ ثم خرج بالجزيرة ايام الرشيد (سنة ١٧٨) الوليد بن طريف من بني تغلب وقتل ابرهيم بن خالد بن خزيمة بنصيبين ثم دخل

ارمينيه وحاصر خلاط عشرين يوما وافتدوا انفسهم بثلاثين الفا ثم سار الى اذربيجان ثم الى حلوان وارض سوار وعبر الى ارض دجلة وعاث في الجزيرة فارسل اليه هرون يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني فمكث يقاتله واخيرًا انتصر عليه يزيد وقتله وجى براسو فرثته اخته بقولها

ايا شجر الخابور ما لك مورقًا فانك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنا وسيوف

ثم انقرضت كلمة الخوارج بالعراق والشام فلم يخرج بعد ذلك الا شذاذ متفرقون يستلحمهم الولاة بالنواحي واستمر خوارج البربر بافريقية فان دعوة الخروج فشت فيهم من لدن ميسرة الظفري (سنة ١٢٢) ثم انتشرت دعوة الاباضية والصفرية منهم في هوارة ولماية ونفزة ومغيلة وفي معراوة وبني يفرن من زناته وتاهرت في الغرب الاوسط وكان لابي يزيد بن مخلد المغربي منهم حروب واخبار مع دولة العبيديين في القيروان ولم يزل امرهم في تناقص الى ان اضمحلت تعاليمهم وتفرقت جماعاتهم وبقيت اثار نحلتهم في اعقاب البربر الذين دانوا لها اول الامر ففي بلاد زناتة بالصحرا وقصور ربع وواديه وفي معراوة من شعوب زناته كان الوهابية نسبة الى عبد الله بن وهب الواهبي اول من بويع منهم ايام علي بن ابي طالب ولهم علماء وعلوم شائعة في معتقدهم ما يخالف اهل السنة وكان بنواحي البحرين وعمان الى بلاد حضرموت وشرقي اليمن ونواحي الموصل اصول تظهر وعروق تنشى في كل دولة الى ان خرج علي بن مهدي من خولان باليمن ودعى الى هذه النحلة وغلب حينئذٍ من كان من الملوك باليمن واستلحم بني الصلحي القائمين بدعوة العبيديين من الشيعة وغلبوهم علي ما كان بايديهم من ممالك اليمن واستولوا ايضا على زبيد ونواحيها واستمروا مدة طويلة والخلاصة ان هذا الحزب المشابه بفروعه لا نترناسيونية ونحوهم كان ولم يزل موجودًا في العالم الاسلامي الى الان

في خلافة الامين وهو سادسهم (من سنة ١٩٣ ـ ٨٠٨ الى ١٩٨ ـ ٨١٣)

وبويع للامين ابن الرشيد بالخلافة في العسكر يوم توفي ابوه وكان المامون يومئذٍ بمرو وكتب صالح بن الرشيد الى الامين يعرفه بوفاة ابيه وارسل له خاتم الخليفة والبرده والقضيب فاخذت له البيعة ببغداد وتحول الى قصر الخلافة ثم قدمت عليه زبيدة امه من الرقه ومعها خزائن الرشيد فلقيها الامين بالانبار ومعه جميع اكابر بغداد وبوقته قتل نيقوفور ملك الروم في حرب برجان وعصى على الامين اهل حمص (سنة ١٩٤ - ٨٠٩) وطردوا عاملهم اسحق بن سليمان فقام الى سلمية فارسل عليهم عبد الله ابن سعيد الحرسي وقاتلهم حتى استامنوا

وكان الامين فاقد حكمة السياسة فامر بابطال اسم المامون من الخطبة ووضع اسم ابنه موسى

ولقبه الناطق بالحق وكان طفلاً فادى ذلك الى خلاف بين الاخوين وتجهزا للقتال فارسل الامين علي بن عيسى بن ماهان بجيش لحرب المامون في خراسان وكان طاهر بن الحسين في الري من طرف المامون بعسكر قليل فخلع طاهر بيعة الامين وبايع المامون وقاتل عليا قتالاً شديداً وقتل علي ورفع راسهُ الى طاهر وانهزم عسكرهُ فارسل الامين عسكرًا اخر صحبة احمد بن مرثد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون الفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر وبوصولهم الى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقهُ هرثمة بجيش اخر من عند المامون وكتاب يامره بالقيام الى الاهواز . ولما بلغ المامون قتل ابن ماهان امر بان يخطب له بامرة المومنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان الى التبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبهُ بذي الرياستين رياسة الحرب ورياسة القلم وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الاهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر (سنة ١٩٦ — ٨١١) وفي التي بعدها القى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد واوقعا فيها النهب والحريق ومنعا دخول الميره فغلا بها سعر كل شي ودام الحصار وشدة الحال كل السنة

وفي السنة نفسها توفي ابرهيم بن اغلب عامل افريقية وقام ولدهُ عبدالله مقامهُ

ثم هجم طاهر على بغداد وبعد قتال عنيد نادى مناديهِ من لزم بيتهُ فهو آمن وتحصن الامين في مدينة المنصور وتفرق عنهُ عامة جنده وخصيانهِ وحاصرهُ طاهر هناك وسد عليهِ المنافذ ثم طلب الامين الامان من هرثمة وان يطلع اليهِ فروجع طاهر فابى ولما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم (سنة ١٩٨—٨١٢) خرج الامين وعليهِ ثياب بيض وطيلسان اسود فارسل اليهِ هرثمة يمنعهُ من ذلك وبان يبقى الى الليلة القادمة فلم يقبل ودعا الامين بابنيهِ وضمهما اليهِ وقبلهما وبكى ثم مضى راكبًا الى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد اليها فاحتضنهُ هرثمة وضمهُ اليهِ وقبل يديهِ ورجليهِ ثم شد اصحاب طاهر (وكان الامر لطاهر) على حراقة هرثمة حتى غرقوها فاخرج الملاح هرثمة من الماء اما الامين فلما سقط في الماء شق ثيابهُ وسبح الى الجانب الثاني فاخذوهُ وهو عريان وجعلوه في بيت ولما جاء الليل ارسل اليهِ طاهر بعض الاعجام فقتلوه واخذوا راسهُ فنصبهُ طاهر على برج من ابرجة بغداد ثم ارسل الراس الى المامون وكتب بالفتح وارسل لهُ البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة واقام خطبة المامون نهار الجمعة وكان قتل المامون لست بقين من محرم وخلافتهُ نحو اربع سنين وثمانية اشهر وعمره نحو ثماني وعشرين سنة قمرية وكان سبطا انزع جميلاً طويلاً صغير العينين اقنى وانهمك باللذات وشرب المسكرات واتى بالملهين والملهيات من اطراف البلاد وقربهم اليهِ واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوتهِ واهل بيتهِ وقسم الاموال والجواهر في خواصهِ وفي الخصيان والنساء وامر

تيمة جواريه ان تعد له ماية فتاة صانعة فيصعدن اليه عشر عشر بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد وقيل لما اتاهُ نعي علي بن عيسى قائد جيشه كان يصطاد السمك فقال للناعي دعني فان كوثرًا قد اصطاد سمكتين وانا ما اصطدت شيئًا بعد

وكان له خمس حراقات في دجلة على صورة اسد وفيل وعقاب وحية وفرس وفي ذلك قول ابي نواس

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برًّا سار في الماء راكبًا ليث غاب
عجب الناس اذراوك عليه كيف لوا بصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب

وبالجملة لم يكن للامين ما يستحسن في السياسة الصالحة وحياته قصيرة عريضة وبعد ذلك استوثق الامر للمامون مشرقا ومغربا

في خلافة المامون وهو سابعهم (من سنة ١٩٨ ـ ٢١٨ ـ ٨١٣ الى ٢١٨ ـ ٨٣٣)

هذا هو الثامن من العباسيين باعتبار بدو الخلافة من ابرهيم الامام والسابع باعتبار بدئها من السفاح وبه وصلت شمس الخلافة الى اقصى درجة الصعود قال ابو الفرج نقلا عن القاضي صاعد بن احمد الاندلسي « ان العرب في صدر الاسلام لم تعنَ بشيء من العلوم الاّ بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افرادهم غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية فلما ادال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها وكان اول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان مع براعته بالفقه كلفا في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المامون من ولد المنصور تم ما بدا فيه جدهُ فاقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسامهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة المترجمين وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فكان يخلو بالعلماء ويانس مناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علما منه بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفوس الناطقة وزهدوا في ما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية

والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها · اما احكام الصنعة فكالنحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها واما في الجراءة والشجاعة فكالاسد وغيره من السباع التي لا يتعاطى الانسان اقدامها ولا يدعي بسالتها · واما في الشبق فكالخنزير وغيره مما لا حاجة الى ابانته فلهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وبا وحشة الدنيا لفقدهم »



المأمون

ولما نهض المامون على تخت الخلافة ولى الحسن بن سهل اخا الفضل على كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن

و(في سنة ١٩٩) ظهر بالكوفة محمد بن ابرهيم بن اسمعيل بن الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامره ابو السرايا وبايعته الكوفة واستوثق له اهلها فارسل المامون اليه الحسن بن سهل الضبي في عشرة الاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ثم توفي ابن طباطبا

فجأة وقبل سمه ابو السرايا ليستبد بالامر واقام غلامًا من اولاد علي يقال له ابن زيد صورة. وفتح البصرة وواسط وجرى بينه وبين عساكر المامون عدة وقائع الى أن انجلى الامر بفرار ابي السرايا من الكوفة بثمان مئة فارس بعد ان حصرهُ هرثمة ودخل هرثمة الكوفة وامن اهلها وسار ابو السرايا الى جلولآ وتفرق عنه اصحابه فظفر به حماد الكندغوش فقبض عليه وعلى من بقي معه واتى بهم الى الحسن بن سهل وهو في النهروان فقتله وارسل براسه الى المامون

وبالوقت نفسه ظهر ابرهيم بن موسى بن عيسى بن جعفر العلوي وسار الى اليمن فهرب عامل المامون منه وهو اسحق بن موسى العباسي. واستولى ابرهيم على اليمن وكان يلقب بالجزار لكثرة ما قتل وسبي وفيها غضب المامون على هرثمة لانه لم يطع امرهُ بالذهاب الى الحجاز والشام فقبض عليه وسجنه ثم دس عليه من قتله في السجن وكان هرثمة المذكور يظن انه مسموع القول عند الخليفة وبينه وبين ابن سهل عداوة فلم يصانعه فوجد ظنه بغير محله

قال ابو الفدى وامر (سنة ٢٠٠) المامون باحصاء ولد العباس فبلغوا ثلثة وثلثين الفًا „ وفيها اقيمت الافراح بين المسلمين وعملوا الاوقاف التقوية معيدين تتمة القرن الثاني من الهجرة „

فصل

في الربع الاول من القرن الثالث

وكثر الحرام والقتل في بغداد وقطع الطرق واخذ النساء والاولاد علانية ونهب القرى حتى تجمع بعض الاحياء واقاموا عليهم خالد بن الدريوس وشدوا على اولئك الفساق وطردوهم وقام بعد الدريوس اخر يقال له سهل بن سلامة (الانصاري) من خراسان واجتمع اليه كثير من البغداديين واكملوا ردع الحرامية

وكان المامون يميل لآل علي ويود علي الرضى بن موسى الكاظم وعهد له بالخلافة من بعده وامر جنودهُ بطرح السواد ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الافاق فشق الامر على بني العباس ووقع الخلاف وهاج الناس ونهضوا في بغداد الى بيعة ابرهيم ابن المهدي وخلع المامون وكان ذلك اولاً للسبب الذي ذكر ثم لتقديمه الحسن ابن سهل وبايع اهل بغداد ابرهيم المذكور (سنة ٢٠٢) ولقب المبارك وكان القيم على امور ابرهيم المطلب بن عبد الله بن مالك واستولى ابرهيم على الكوفة وجمع عسكرهُ الى المدائن واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي اسحق بن الهادي وبسبب هذه الفتن سار المامون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله الى سرخس وثب اربعة انفس بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره ستون سنة فغضب المامون وجعل لمن مسكهم عشرة الاف دينار فامسكهم العباس ابن الهيثم الدينوري

وأمر المامون بضرب اعناقهم وقام طالبًا العراق فبلغ ذلك ابرهيم بن المهدي والمطلب وغيرهما فترك المطلب ابرهيم وتمارض وتوجه الى بغداد واشتغل باطنًا لجانب المامون وبخلع ابرهيم فعلم ابرهيم وهو في المدائن فقصد بغداد وامر به فنهبت دور اهله ولم يظفروا بالمطلب

وفي تلك السنة (وهي سنة ٢٠٢) عقد المامون العقد على بوران بنت الحسن بن سهل وزوج ابنته من علي الرضا ولي عهده الذي توفي ثاني سنة ودفن عند قبر الرشيد ومولده كان (سنة ١٤٨) بالمدينة ولما مات علي كتب المامون الى بغداد يعلمهم بموته قائلاً ان الذي نقمتم عليَّ بسببه قد توفي . وكان علي ثامن الائمة الاثنى عشر على مذهب الامامية وولدهُ محمد الجواد كان تاسعهم ثم خلع اهل بغداد ابرهيم بن المهدي ودعوا للمامون واختفى ابرهيم لمدة و(في سنة ٢٠٣) حدث ما وراء النهر زلازل عظيمة وهلك فيها خلق كثير وكان معظمها ببلخ والجوزجان والفاريابات والطالقان . ثم جنَّ الحسن بن سهل وشد في الحديد

وفي ذلك الوقت نهض الروم على ملكهم ليون وقتلوه واعادوا عليهم ميخائيل بن جرجس المخلوع وبقي عليهم تسع سنين ومات (سنة ٢١٥) وملك ابنه طوفيل مكانه

ثم قدم المامون (سنة ٢٠٤) الى بغداد وانقطعت الفتن وكان لابسًا الاخضر فدخل اليه الناس وسلموا عليه بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود بامره . و(سنة ٢٠٦) توفي الحكم ابن هشام صاحب الاندلس وعمرهُ ثنتان وخمسون سنة وترك تسعة عشر ابنًا وخلفه عبد الرحمن ولده وسوف نذكر هذا الفرع من الدولة الاموية في فصل مخصوص . و(في سنة ٢١٠) ظفر المامون بابرهيم بن محمد من ولد ابرهيم الامام وكان يعرف بابن عائشة وبجماعة معه من الاعيان الذين كانوا قد سعوا بالبيعة لابرهيم بن المهدي فصلب ابن عائشة وحبس الباقون . ثم ظهر ابرهيم ابن المهدي فحبسه ثم اطلقه

وفي السنة المذكورة دخل المامون ببوران بنت الحسن وكان الحسن يسكن في فم الصلح فذهب اليه ونثرت على المامون ام الحسن جدة بوران الف حبة لولوء من انفس ما يكون واوقدت شمعة من العنبر وزن اربعين منًا وكتب الحسن بن سهل رقاعًا باسماء ضياعه ونثر على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها وكان قد بريء من جنونه . فلعمهذا الكرم والاسراف يحسبان في هذه الازمنة المتمدنة من الاغلاط السياسية العظمى لانه كيف يجوز لمالك ضيعة ان يهبها لمن لا يعلم اذا كان يحسن او يليق لضبط امور سكانها ولكن هذا لم يكن بشيء يعتبر لان العبودية كانت امرًا مألوفًا والحرية شيئًا مذكورًا

و(في سنة ٢١٣) ولى المامون ابنه العباس على الجزيرة واخاهُ ابا اسحق المعتصم على الشام ومصر وولى غسان بن عباد على السند واستعمل عبد الله ابن طاهر على خراسان

و(سنة ٢١٤) توفي ادريس بن ادريس العلوي وخلفهُ ولده محمد في فاس والبربر وولى اخاهُ القاسم طنجة وما يليها واخاهُ عمر صنهاجه وغماره واخاهُ داود هواره باسليب واخاهُ يحيى مدينة دالي وما والاها واعمل بقية اخوتهِ على ملك البربر

وكان المامون يفضل عليًا على جميع الناس بعد الرسول محمد ويقول بخلق القرآن وكان يضطهد كل من قال بخلاف ذلك من العلماء وغيرهم ولهُ معهم مباحثات وامور كثيرة ولكنهُ لم يعش طويلاً بعد ذلك وتوفي لثلاث عشرة خلت من جمادي الاخرة (سنة ٢١٨-٨٣٣) ذكر ابن العلاف ما مفادهُ ان المامون دعاه وهو جالس مع اخيهِ المعتصم على شاطي نهر البدندون وقد وضعا ارجلهما في الماء وقال لهُ اي شيء يوكل ليشرب عليهِ من ذلك الماء العذب فقال ابن العلاف الرطب . و بينما هم في الحديث اذ وفدت بغال البريد عليها الحقائب وفيها الالطاف فقال المامون لخادم لهُ انظر ان كان في هذه الالطاف رطب فمضى وعاد ومعهُ سلتان من احسن واطيب ما يكون واكل المامون واكل معهُ الحاضرون وشربوا من ذلك الماء فما قام احد منهم الا وهو محموم . قال ولم يزل المامون مريضاً حتى دخل العراق وكان وقتئذٍ اتيًا من الروم ولما اشتد مرضهُ اوصى الى اخيهِ المعتصم بالخلافة بحضرة ابنهِ العباس واوصاهُ باولادهِ واولاد اعمامهِ وحملهُ اخوهُ المعتصم وولده العباس الى طرسوس ودفناه بدار جلعان خادم الرشيد وصلى عليهِ المعتصم

وكانت ولادتهُ (سنة ١٧٠-٧٨٦) وكان ربعة ابيض جميلاً طويل اللحية رقيقها قد وخطهُ الشيب وقيل كان اسمر احنى اعين ضيق الجبهة بخده خال اسود

الصوائف

وفتح عبد الله بن حردادية والي طبرستان البلاد والسيرن من اراضي الديلم واخذ جبال طبرستان وابعد شهريار بن شروين عنها واشخص مازيار بن قارن الى المامون واسر ابا ليل ملك الديلم (سنة ٢٠١) . وفيها ظهر بابك الخرمي في الجاوندانية اصحاب جاوندان سهل ومعناهُ الدائم الباقي ومعنى خرم فرح وكانوا يعتقدون مذاهب المجوس

و(سنة ٢١٤) خرج ابو بلال الصابي الشاري فارسل عليهِ المامون ابنهُ العباس في جماعة من القواد فقتلوهُ . و(سنة ٢١٥) دخل المامون بلاد الروم بالصائفة تاركًا بغداد في المحرم واستخلف عليها اسحق بن ابراهيمَ بن مصعب وهو ابن عم طاهر وولاهُ السواد وحلوان وكور دجلة ولما وصل الى تكريت لقيهُ محمد بن علي الرضا فاجازهُ وزف اليهِ ابنتهُ ام الفضل وسار الى المدينة فاقام بها ... وسار المامون على الموصل الى منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس ودخل من هناك ففتح حصن قرّه عنوة وقيل بالامان وهدمهُ وفتح قبلةً حصن ماجد

وبعث اشناس الى حصن سدس ودخل ابنهُ العباس ملطية ووجه المامون عجيفًا وجعفر الخياط الى حصن سنان فاطاع وعاد المعتصم من مصر فلقي المامون قبل الموصل ولقيهُ العباس ابنهُ براس عين وجاء المامون من العراق الى دمشق ثم بلغهُ ان الروم عادوا الى طرسوس والمصيصة واثخنوا فيها بالقتل فرجع اليهم وفتح كثيرًا من معاقلهم واناخ على هرقله حتى استامنوا وصالحوهُ. وبعث بالمعتصم ففتح ثلاثين حصنًا منها مطمورة. وبعث يحيى بن اكثم فاثخن في البلاد وقتل واحرق وسبى ثم رجع المامون الى كيسوم ثم الى دمشق. ورجع المامون (سنة ٢١٧) الى بلاد الروم فاناخ على لوءلوءه مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عجيفًا على حصارها وجاء طوفيل ملك الروم فاحاط بهِ فبعث اليهِ المامون بالمدد فارتحل طوفيل واستامن اهل لوءلوءه وبعث طوفيل يطلب المهادنة والمامون في سلوين فلم يجبهُ ثم رجع المامون سنة ٢١٨ وبعث ابنهُ العباس الى بناء طوانة فبنى بها ميلاً في ميل ودورها اربعة فراسخ وجعل لها اربعة ابواب ونقل اليها الناس من البلدان

نبذة في دولة بني زياد

والمامون ارسل (سنة ٢٠٣) محمد بن زياد اميرًا على اليمن فسار محمد وفتح تهامة واستقرت لهُ وبنى مدينة زبيد (سنة ٢٠٤) وارسل مولاهُ جعفر بالطاف جميلة الى المامون (سنة ٢٠٥) فاكرمهُ المامون واعادهُ بعسكر (سنة ٢٠٦) نحو الفي فارس وعظم امر محمد واستولى على كل اقليم اليمن وقلد جعفر ولاية الجبال واختط جعفر بها مدينة المذيخرة ودعيت بلاد جعفر مخلاف جعفر وكان من الدهاة وبهِ تمت الدولة الزيادية ثم قتل محمد وخلفهُ ابنهُ ابرهيم. ثم زياد بن ابرهيم. ثم اخو زياد المكنى بابي الجيش وطالت مدتهُ وتوفي (سنة ٣٧١) تاركًا طفلاً قد اختلف في اسمهِ وتولت كفالة الطفل اختهُ هند وتولى معها عبد لابي الجيش اسمهُ رشد وبقي رشد واليًا حتى مات فخلفهُ عبده حسين بن سلامة (وسلامة هي ام حسين) وكان حازمًا عفيفًا وصار وزيرًا لهند ولاخيها المذكور حتى ماتا. ثم انتقل ملك اليمن الى طفل من آل زياد وقامت بامرهِ عمتهُ وعبد من عبيد حسين بن سلامة اسمهُ مرجان وكان لمرجان المذكور عبدان قد تغلبا على اموره وهما قيس ونجاح وهذا نجاح هو جد ملوك زبيد على ما سيذكر فوقع التنافس بين قيس ونجاح على الوزارة وكان قيس عسوفًا ونجاح روؤفًا وكان مرجان يميل الى قيس اما عمة الطفل فكانت تميل الى نجاح. فشكا قيس ذلك الى مولاهُ فقبض مرجان على الملك واسمهُ عبد الله وقيل ابرهيم وعلى عمتهِ وسلمها الى قيس فبنى قيس عليهما جدارًا وكان عبد الله المذكور اخر ملوك اليمن من الزياديين وكان ذلك (سنة ٤٠٧ — ١٠١٦) وانتقل ملكهم الى عبد عبيدهم نجاح وذلك انهُ لما قتل قيس ابرهيم وعمتهُ وتملك عظم الامر على نجاح واستنصر الاسود والاحمر وقصد قيسًا وجرى بينهما قتال عنيد

انجلى عن قتل قيس على باب زبيد وفتح نجاح زبيدًا (في ذي القعدة سنة ٤١٢) وسال نجاح مرجان ماذا عمل بالصبي وعمتهِ فدلهُ على مكانهما فاخرجهما وصلى عليهما ودفنهما واقام لهما مشهدًا وجعل نجاح قيسًا وسيدهُ مرجان موضعهما وارجع الجدار كما كان وتملك نجاح وركب في المظلة وضرب السكة باسمهِ واستقل بملك اليمن وهو اصل دولة زبيد (انتهى ملخصًا ابو الفدا)

وكان المامون يحب العلماء من كل نوع ويكرمهم لا سيما علماء الافلاك ومن المنجمين في ايامهِ كان حبش الحاسب المروزي الاصل البغدادي الدار ولهُ ثلاثة ازياج اولها المولف على مذهب السند هند والثاني الممتحن وهو اشهرها الفهُ بعد ان رجع الى معاناة الرصد واوجبهُ الامتحان في زمانهِ والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه ولهُ خلافها وبلغ من العمر مائة سنة ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل الى علم الافلاك يحتوي على جوامع كتب بطليموس باعذب لفظ وابين عبارة ومنهم عبدالله بن ابي سهل ابن نوبخت كبير القوم في فن النجوم ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي وكان الناس قبل الرصد وبعدهُ يعولون على زيجيهِ الاول والثاني ويعرف بالسندهند ومنهم ما شا الله اليهودي كان في زمان المنصور وعاش الى ايام المامون وكان فاضلا اوحد زمانهِ ولهُ حظ قوي في سهم الغيب ومنهم يحيى بن ابي منصور رجل فاضل كبير القدر مكين المكان ولما عزم المامون على رصد الكواكب تقدم اليهِ والى جماعة من العلما فاصلحوا الاتهِ بشماسية بغداد وجبل قاسيون بدمشق ... قال ابو معشر الفلكي اخبرني محمد بن موسى المنجم الجليس لا ابو الخوارزمي قال حدثني يحيى بن ابي منصور قال „ دخلت الى المامون وعندهُ جماعة من المنجمين ورجل يدعى النبوه وقد دعا لهُ المامون بالعصي ولم تحضر بعد ونحن لا نعلم فقال لي ولمن حضر من المنجمين اذهبوا وخذوا الطالع لدعوى الرجل في شي يدعيهِ وعرفوني ما يدل عليهِ الفلك من صدقهِ وكذبهِ ولم يعلمنا المامون انهُ متنبي قال فحملنا الى بعض تلك الصحون فاحكمنا امر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم العادة منها وسهم الغيب في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشتري في السنبلة ينظر اليهِ والزهرة وعطارد في العقرب ينظران اليهِ فقال كل من حضر من القوم ما يدعيهِ صحيح وانا ساكت فقال لي المامون ما قلت انت فقلت هو في طلب تصحيحهِ ولهُ حجة زهرية عطاردية وتصحيح الذي يدعيهِ لا يتم لهُ ولا ينتظم فقال لي من اين قلت هذا قلت لان صحة الدعاوي من المشتري ومن تثليث الشمس وتسديسها اذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفهُ لانهُ هبوط المشتري والمشتري ينظر اليهِ نظر موافقة الا انهُ كاره لهذا البرج والبرج كاره لهُ فلا يتم التصديق والتصحيح والذي قال من حجة زهرية وعطاردية انما هو ضرب من التخمين والتزويق والخداع يتعجب منهُ ويستحسن فقال المامون لله درك انت ثم قال

اتدرون من الرجل قلنا لهُ لا قال هذا يدعي النبوة فقلت يا اميرالمومنين امعهُ شي يحتج بهِ فسالهُ فقال نعم معي خاتم ذو فصين البسهُ انا فلا يتعين منهُ شي يحتج بهِ و يلبسهُ غيري فيضحك ولا يمالك من الضحك حتى ينزعهُ ومعي قلم شامي اخذهُ فاكتب بهِ وياخذهُ غيري فلا ينطلق اصبعهُ فقلت ياسيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملها فامرهُ المامون بعمل ما ادعاهُ فقلنا لهُ هذا ضربٌ من الطلسمات فما زال بهِ المامون اياماً كثيرة حتى اقر وتبرا من الدعوى ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم فوهب لهُ الف دينار فتلقيناهُ بعد ذلك فاذا هو اعلم الناس بعلم النجوم » قال ابو معشر وهذا هو الذي عمل طلسم الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد انتهى قال ابو معشر المذكور لو كنت حاضرًا مكان القوم لقلت له اشيا ذهبت عليهم . كنت اقول الدعوى باطلة لان البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهو العقرب

ومن الحكما يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المامون كان امينًا على ترجمة الكتب الحكمية حسن التادية للمعاني الكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة اغلب عليهِ من الطب

ومن الاطباء سهل بن شابور ويعرف با لكوسج كان بالاهواز في لسانهِ خوزية وتقدم بالطب في ايام المامون وكان اذا اجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى ابن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة لا في العلاج ومنهم جبريل الكحال وكان لهُ كل شهر الف درهم وكان اول من يدخل الى المامون كل يوم ثم سقطت مرتبتهُ لانهُ كان ينقل اخبارًا فقال لهُ المامون يومًا اني جعلتك كحالاً لا عاملاً للاخبار وعزلهُ براتب مائة وخمسين درهما كل شهر قلت لو كان في زمان المامون جرائد ولا سيما مثل الجوائب في القسطنطينية ومصر في الاسكندرية لكان عذر المامون جبريل

وكان المامون قد قرا ان في كتب الاوائل يجعل دور الارض اربعة وعشرين الف ميل فاراد تحقيق ذلك فامر بني موسى الثلاثة المشهورين وهم محمد واحمد والحسين اولاد موسى المذكور ابن شاكر وكانوا يعلمون جيدًا علم الهندسة والحبل والموسيقى بان يحققوا ذلك ويحرروهُ فسالوا عن الارض المتساوية فاخبروا بصحراء سنجار ووطاءة الكوفة فارسل معهم المامون جماعة يثق الى اقوالهم فساروا الى صحراء سنجار وحققوا ارتفاع القطب الشمالي وضربوا هناك وتدًا وربطوا فيهِ حبلاً ومشوا الى الجهة الشمالية على الاستواء من دون انحراف حسب الامكان وبقوا كلما فرغ حبل نصبوا في الارض وتدًا اخر وربطوهُ الى حبل اخر كفعلهم الاول حتى انتهوا كذلك الى موضع قد زاد فيهِ ارتفاع القطب الشمالي المذكور درجة محققة ومسحوا ذلك القدر فكان ستة وستين ميلاً وثلثي ميل ثم وقفوا عند موقفهم الاول وربطوا الى الوتد حبلاً ومشوا الى جهة الجنوب من غير انحراف كالاول حتى وصلوا

الى موضع انحط فيهِ ارتفاع القطب الشمالي درجة ومسحوا ذلك القدر فكان كالاول ثم عادوا الى المامون واخبروهُ بذلك فاراد المامون تحققهُ في موضع اخر فسيرهم الى ارض الكوفة فساروا اليها وفعلوا كالعادة فوافق الحسابات ثم ضربوا الاميال المذكورة بعدد الدرج (٣٦٠) وهي درج الفلك فكان الحاصل موافقًا لقول الاوائل قال ابو الفدى كذا قال ابن خلكان وقال غيرهُ ان الذي وجدوهُ في ايام المامون كان ستة وخمسين ميلاً لا غير وانّ الاول هو ما كان عند القدما قلت وقالوا نحو ستين ميلاً للدرجة

وكان المامون اكرم الخلفاء ذكر ابو الفدى ان المامون كان مرة في دمشق وقد قل معهُ المال فشكى الى اخيهِ المعتصم وكان يتولى الشام ومصر فقال لهُ يا اميرالمومنين كانك بالمال وقد وافاك بعد جمعة وحمل اليهِ المعتصم من خراج ما يتولاهُ ثلاثين الف الف الف (ولعله درهم) فلما ورد ذلك قال ليحيي بن اكتم اخرج بنا ننظر الى هذا المال فخرجا ونظرا اليهِ وقد هيىء باحسن هيئة وحليت اباعره فاستكثر المامون ذلك واستحسنهُ واستبشر بهِ الناس والناس ينظرون ويتعجبون فقال المامون يا ابا احمد انصرف بالمال ويرجع اصحابنا خائبين ان هذا للوم فدعا محمد بن رداد وقال لهُ وقع لآل فلان بكذا ولآل فلان بكذا فما زال كذلك حتى فرّق اربعة اخماسهِ ورجلهُ في الركاب

في خلافة المعتصم بالله وهو ثامنهم (من سنة ٢١٨ – ٨٣٣ الى سنة ٢٢٧ – ٨٤١

ولما حصلت المبايعة للمعتصم حصل شغب فيما بين الجند ونادوا باسم العباس ابن المامون فارسل المعتصم الى العباس فحضر وبايع المعتصم وخرج نفسهُ الى الجند واعلمهم بانهُ بايع لعمهِ فسكتوا وقام المعتصم الى بغداد وصحبتهُ العباس ففي (سنة ٢٢٣) خرج طيوفيل قيصر الروم في جمع عظيم وبلغ زبطره وسبي وقتل واغار على ملطية وغيرها وسبى المسلمات واسر المسلمين وقطع انافًا واذانًا كثيرة وبلغ ذلك المعتصم وان امراة هاشمية سمعت تصيح وهي في ايدي الروم وامعتصماه فلعبت بهِ الحماسة العربية واستعظم الامر ونهض من وقتهِ بعساكرهِ في اخر جمادى الاولى ودخل بلاد الروم طالبًا عمورية لانهُ كان قد سمع انها عين النصرانية واشرف من بزنطية عند الروم وكان جهازهُ لم يسبق اليهِ قبلاً. ونزل على نهر قرب البحر يومًا من طرسوس وجعل عسكرهُ ثلث فرق فرقة مع الافشين خيذر بن كاووس في الميمنة وفرقة مع اشناس التركي في الميسرة وفرقة معهُ في القلب وكان بين كل واحدة والاخرى فرسخان وامرهم المعتصم بالحريق والتخريب ففعلوا ذلك حتى وصلوا الى عمورية وكان اول من قدمها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين فاقاموا عليها المنجنيقات واحدقوا بها

من كل جانب وجرى بين المسلمين والروم حرب شديدة وانجلى الامر اخيرًا عن انتصار المسلمين وخراب السور وقتل الاهلين وسبي النساء والاولاد ونهب الاموال واحراق البلد بعد حصاره خمسة وخمسين يومًا وقيل انهم قتلوا ثلثين الفًا وسبوا مثلها . ثم قام راجعًا الى الثغور فبلغهُ وهو في اثناء الطريق ان جماعة من القواد كانوا قد بايعوا العباس بن المامون فدعا المعتصم بالعباس وسلمهُ للافشين خيذر فامانهُ عطشًا في منبج

ومن الحوادث المهمة في عهد المعتصم كان اولاً خروج محمد بن قاسم من اولاد الحسين بن علي فتقاتل مع عبد الله بن طاهر مرارًا واخيرًا خرج ناجيًا بنفسو مر «بنسا» فوشي بهِ الى عاملها فقبض عليهِ و بعثهُ الى عبد الله فبعثهُ عبد الله الى المعتصم (سنة ٢١٩) فحبسهُ عند الخادم مسرور الكبير فهرب من حبسهِ ليلة الفطر ولم يوقف لهُ على خبر

ومنها حرب الزط وهم قوم من اخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا وولوا عليهم رجلاً منهم اسمهُ محمد بن عثمان وقام بامرهِ آخر منهم اسمهُ سماق فارسل الى حربهم المعتصم عجيف بن عنبسة فسار الى واسط وحاربهم سبعة اشهر الى ان استامنوا اليهِ وجاءوا باجمعهم في سبعة وعشرين الفًا المقاتلة منهم اثنا عشر الفًا فعبام عجيف في السفن على هيئتهم الحربية ودخل بهم بغداد في عاشوراء (سنة ٢٢٠) وركب المعتصم الى الشماسية في سفينة حتى رآهم ثم غربهم الى عين زربة فاغارت عليهم الروم فلم يفلت منهم واحد

ومنها اكمال مدينة سامرا التي كان ابتداها الرشيد ولم يستتمها وخربت فجددها المعتصم وبناها (سنة ٢٢٠) وسماها سرّ من راى فرخمها الناس سامرا وصارت دارًا للملك العباسيين من لدن المعتصم

ومنها نكبة الفضل بن مروان الكاتب وكان المعتصم قد استكتبهُ بعد موت كاتبهِ يحيى الجرمقاني واخذه معهُ الى الشام فاثرى جدًا ولما استخلف المعتصم تولى على هواه واستتبع الدواوين واحتجر الاموال ثم صار يرد اوامر المعتصم في العطايا فاختلفت فيهِ السعايات ودسوا عليهِ عند سيده فحقد عليهِ وصادرهُ (سنة ٢٢٠) وجميع اهل بيتهِ واقام عوضهُ محمد بن عبد الملك بن الزيات وغرّب الفضل الى بعض قرى الموصل

ومنها انتقاض مازيار بن قارن بن وندا هرمز صاحب طبرستان وكان منافرًا لعبد الله بن طاهر فلا يحمل اليهِ الخراج وعظمت الفتنة بينهما وكان عبد الله بن طاهر شديد السعاية على المازيار عند المعتصم حتى استوحش منهُ فعند ظفر الافشين ببابك وعظم محلهِ عند المعتصم طمع في ولاية خراسان فاستمال مازيار وحزبهُ على عداوة ابن طاهر طمعًا في ان يودي ذلك الخلاف ويرسلهُ المعتصم عليهِ فيتخذ ذلك فرصة للاستيلاء على خراسان وكان ذلك سببًا لحرب وقتل المازيار ثم

علم امر الافشين باغرائهِ له على العصاوة

فصل

في الربع الثاني من القرن الثالث

فغضب المعتصم على خيذر الافشين وحبسهُ حتى مات (سنة ٢٣٦) . ثم اخرج من السجن ميتًا وصلب واحرقت جثتهُ والافشين المذكور هو الذي قاتل بابك المجوسي الذي كان قد استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنة وعظم امرهُ وهزم مرارًا عساكر المعتصم حتى ارسل عليهِ المعتصم الافشين خيذر بن كاوس المذكور فقاتلهُ قتالاً عنيدًا وانتصر عليهِ واسرهُ واخذ مدينتهُ «البذ» وارسلهُ الى المعتصم فقتلهُ وقيل انهُ كان من نيتهِ نقل الملك الى الاعجام وانهُ كان اقلف ويعبد الوثن سرًّا وقد وجدوا في منزلهِ اصنامًا . وقد ابقى لنا التاريخ نوع مناظرتهِ فيما قرف بهِ وكان ذلك عند الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات بحضر القاضي احمد بن ابي داود واسحق بن ابرهيم وجماعة القواد والاعيان وقد جيء بالمازيار من حبسهِ والموبد والمرزبان بن تركش احد ملوك الصغد وبرجلين من اهل الصغد يدعيان ان الافشين ضربهما احدهما امام والثاني موذن بمسجد . فكشفا عن ظهريهما وهما عاريان من اللحم فقال ابن الزيات للافشين ما بال هذين كذلك قال عهدا الى معاهدين ووثبا على بيت عبادتهم فكسرا اصنامهم واتخذا البيت مسجدًا فعاقبتهما على ذلك قال ابن الزيات ما بال عندك كتاب محلى بالذهب والجوهر وفيهِ الكفر قال الافشين كتاب ورثتهُ عن ابائي واوصوني بما فيهِ من ادابهم فكنت اخذها منهُ واترك كفرهم ولم احتج الى نزع حليتهِ وما ظننت ان مثل هذا يخرج عن الاسلام ثم قال الموبد انهُ ياكل لحم المخنوقة ويحملني على اكلها ويقول هو ارطب من لحم المذبوحة فقال الافشين أثقة هذا عندكم في دينهِ وكان مجوسيًا قالوا لا قال فكيف تقبلونهُ على ثم قال لهُ المرزبان كيف يكاتبك اهل اشروسنه قال ما ادري قال اليس يكاتبونك بما تفسيره عربيًا «الى اله الالهة من عبده فلان» قال الافشين بلى قال ابن الزيات «فما ابقيت لفرعون» قال هذه عادة منهم لابي وجدي ولي قبل الاسلام ولو منعتهم لفسدت علي طاعتهم ثم قال لهُ ابن الزيات هل كاتبت هذا واشار الى المازيار فقال المازيار كتب اخوهُ الى اخي قوهيار انهُ لن ينصر هذا الدين غيري وغيرك وغير بابك فاما بابك فقد قتل نفسهُ بحمقه ولقد عهدت ان امنعهُ فابى الا حمقهُ وانت ان خالفت ارسلوني عليك ومعي اهل النجدة فان توجهت اليك لم يبقَ احد يحاربنا الا العرب والمغاربة والترك فالعربي كلب تناولهُ لقمة وتضرب راسهُ والمغاربة اكلة راس والاتراك لم صدمة ثم تجول الخيل جولة فتاتي عليهم ويعود هذا الدين الى ما كان عليهِ ايام العجم فقال الافشين ان

ان هذا يدعي ان اخي كتب الى اخيو فما يجب علي وعلى فرض الصحة فانا استميلهُ مكرًا بهِ لاحظي عند الخليفة كما حظي بهِ ابن طاهر فزجرهُ ابن ابي داود فقال لهُ الافشين ترفع طيلسانك فلا تضعهُ حتى تقتل جماعة فقال امتطهر انت قال لا قال فما يمنعك وهو شعار الاسلام قال خشيت على نفسي من القطع قال فكيف وانت تلقى الرماح والسيوف قال تلك ضرورة اصبر عليها فقال ابن ابي داود لبغا الكبير قد بان لكم امرهُ يا بغا عليك بهِ فدفعهُ بغا بيديهِ وردهُ الى حبسهِ وضرب مازيار اربع مئة سوط فمات منها . قلت ان في هذه المحاكمة ما يشير الى ان قصاص ذلك العصر كان مغايرًا لما في زماننا لان ما حكم بهِ على الافشين بالموت وقتئذٍ لم يكن كافيًا لهُ في عهدنا هذا على ان اكثر الذنوب المدعى بها عليهِ ليست بذنوب قطعًا وكل ذلك اختلاف زمان ورجال

و(في سنة ٢٢٧) اسر المبرقع المعروف بابي حرب اليماني واسر معهُ ابن بيهس وكان المبرقع خرج على الخليفة واختفى في جبال الاردن لابسًا برقعًا وكان يامر بالمعروف وينهي عن المنكر وادعى انهُ اموي واجتمع اليهِ قوم واجابهُ قوم من رؤساء اليمانية منهم ابن بيهس وصار لهُ مئة الف فارس فارسل عليهِ المعتصم رجاء بن ايوب فانتظر ان تتفرق اصحابهُ عنهُ زمان الزراعة وفي هذه المدة توفي المعتصم وثارت الفتنة في دمشق فامرهُ الواثق بقتل من اثار الفتنة والعود الى المبرقع ففعل وقاتلهُ احتى اسره وقتل من اصحابهِ كثيرٌ وذلك (سنة ٢٢٧)

وكان ابتداء خروج بابك (سنة ٢٠١) وهزم جيش الخليفة عدة مرار وقتل من قوادهِ جماعة ودخل الناس رعب شديد واحتوى اليهِ قطاع الطرق واهل الفتن وتكاثفت جموعهُ فكان يركب على عشرين الف فارس ما عدا الرجالة وكان اصحابهُ لا يدعون مسلمًا او ذميًا الا قطعوهُ واحصي عدد من قتلوهم بايديهم فكان مائتين وخمسة وخمسين الفًا وخمسمائة

و(في سنة ٢٢٧) توفي المعتصم لثماني عشرة خلت من ربيع الاول بسامرا وولادتهُ (سنة ١٩٧ فيها وكانت خلافتهُ ثماني سنين وثمانية اشهر وهو ثامن الخلفاء والثامن من ولد العباس ومات عن ثمانية بنين وثماني بنات ولذلك دعي المثمن وكان ابيض اصهب اللحية طويلها مربوعًا مشرب اللون بحمرة وهو اول من اضاف الى لقبهِ اسم الله فقيل المعتصم بالله وكان طيب الاخلاق لكنهُ غضوب اذا غضب لا يبالي من قتل او ما فعل . وحكى عن المعتصم انهُ انفرد يومًا عن اصحابهِ وكان مطر فراى شيخًا معهُ حمار يحمل شوكًا قد توحل الحمار ووقع الحمل وهو ينتظر مارًا بهِ لمساعده فنزل المعتصم عن طرفهِ وخلص الحمار ورفع معهُ الحمل ثم قدم اصحابهُ فامر لصاحب الحمار باربعة الاف درهم وقالوا ان المعتصم تصدق عن يد واحد فقط بمائة الف الف درهم

وكان طبيب المعتصم حنين بن سلمويه وقد حزن عليهِ المعتصم جدًّا لما مات وقال اني سالحق بهِ لانهُ

كان يمسك حياتي وامتنع من الاكل كل ذلك النهار وامر باحضار جنازته الى الدار وان يصلي عليها بالشمع والبخور على عادة النصارى وسلمويه المذكور كان مع الافشين في المعسكر وهو يحارب بابك وقد اخبر قال جرى وقتئذٍ ذكر الصيادلة فقلت اعز الله الامير ان الصيدلاني لا يطلب منه شيء الا قال عنده منه فدعا الامير بدفتر من دفاتر الاسروشنيه واخرج منه نحو عشرين اسمًا ووجه الى الصيادلة في طلب ذلك فبعضهم انكرها والبعض ادعى معرفتها واخذ الدراهم من الرسل ودفع اليهم شيئًا من حانوته فامر الافشين باحضارهم جميعًا فمن انكر معرفتها اذن له بالمقام ونفى الباقين

والمعتصم كان اول من استخدم الاتراك في العسكر وذلك عند ما راى قوتهم في الحروب وقد قلت حماسة العرب وقتئذٍ وارتاحوا للعيشة الرافهة ففي حرب الروم انما كان الاتراك الذين ربحوا اليوم وقد انهزمت العرب امام العدو

في خلافة الواثق بالله وهو التاسع (من سنة ٢٢٧ - ٨٤١ الى سنة ٢٣١ - ٨٤٥)

بويع هرون بن المعتصم يوم وفاة ابيه ولقب بالواثق وكانت امه رومية ام ولد اسمها قراطيس وفي الوقت المذكور توفي طيوفيل ملك الروم واوصى لولده ميخائيل وكان صغيرًا فقامت امه ثيودوره في امره

وعند موت المعتصم تجددت الفتن في الشام بين القيسية وحاصروا اميرهم في دمشق فجهز اليهم الواثق بن ايوب فلقيهم عند مرج راهط واقتتلوا فقتل من العصاة نحو الف وخمسمائة وانهزم الباقي

و(في سنة ٢٢٨) اكرم الواثق على اشناس التركي بتاج ووشاحين وغزا المسلمون جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسيني . اما سبب حرب صقلية فهو ان شابًا اسمه ايوفاميوس احب راهبة فخطفها ثم قبض عليه وحكم بقطع لسانه ففر والتجا الى افريقيا فقبله العرب ورحبوا به وجهزوا معه عسكرًا من سبعمائة فارس وعشرة الاف راجل وارسلوهم بمائة سفينة والبسوه الولاية على الجزيرة فقصدوا اولًا «مازر» وظهروا على الروم قليلًا الا ان الروم تكاثروا وظفروا بهم اخيرًا ونجت منهم سيراكوسه وقتل ايوفاميوس وتضايق الاسلام جدًا من الجوع وعادوا يذبحون الخيل وياكلون لحومها ثم انهم نجدات من الاندلس وفتحوا اولًا القسم الغربي من الجزيرة وهو الاكبر واختاروا فالرمس مقر مراكبهم والجنود اما سيراكوسة فقاومتهم خمسين سنة الى ان حاصروها حصارًا شديدًا والقوا عليها المنجنيقات بكثرة وانشبوا بها الحرب من كل جانب عشرين يومًا وفتحوها عنوةً وقيل ان الذي ساعدهم على اخذها هو غياب عمارة الروم وقتئذٍ فانها كانت سارت لتاخذ لوازم كنيسة كانت تبنى باسم السيدة في القسطنطينية ولولا ذلك لما كان تسهل لهم فتحها وبعد دخولهم اسروا الاكليروس

كلهم وارسلوهم الى فالرمس والقوهم في السجن وكانوا يتهددونهم بالقتل ما لم يسلموا وهذه صورة كتاب من الراهب ثيودوسيوس (سنة ٢٦٧ ـ ٨٨٠) الحاضر في تلك الحرب الى صاحبه ليون رئيس الشمامسة وهي « لقد قاومنا العدو عشرة اشهر ولم نغفل عن شيء محار بين الليل والنهار فوق الارض وتحتها لكي نوقع بالمحاصرين ونخرب اعمالهم وكان قوتنا سحيق الاعشاب التي تنبت على السطوح وعظام الحيوانات ثم عدنا نبتلع الاطفال من الجوع وتبع ذلك امراض مخيفة وكنا دائمًا بانتظار المساعدة الموعود بها واثقين بمتانة اسوارنا الى ان هبطت قلعة قوية من قلاعنا كانت عمدة عظيمة لنا ومع ذلك بقينا نقاوم ثلثة اسابيع ولم نجد نا شجاعتنا نفعًا لان بينما كان عساكرنا يرتاحون قليلا من كثرة التعب والحر الشديد واذ فاجأتنا عساكر الاسلام من كل جانب وفتحوا المدينة فالتجأنا الى كنيسة المخلص فتبعنا الاعداء الى هناك وذبحوا بحد السيف القضاة والكهنة والرهبان والشيوخ والنساء والاولاد واخرجوا اعيان الاهالي الى خارج السور وقتلوا الوفًا منهم بالعصي والحجارة وسحقوا راس نقيطس والي طرسوس بعد ان سلخوهُ حيًا واخرجوا امعاءهُ وقد احرقوا البيوت وهدموا القلاع واعدوا الرهبان والكهنة الاسرى مع رئيس الاساقفة للحريق يوم عيد الاضحى عندهم وقد خلصنا من هذه الميتة رجل شيخ له سلطان عظيم عليهم . كتبت هذا من فالرمس من سجن اربعة عشر قدمًا تحت الارض ما بين عدد وافر من المحابيس يهود وافريقية ولومباردية ونصارى وكفار انتهى »

وكانت سيراكوسه قد ضعفت وقتئذٍ وافتقرت بعد حرب قرطاجنة والروم ونحوهم الا ان العرب وجدوا فيها من النهب ما يساوي مليون ذهب فان الفضة التي وجدت في الكنيسة الكاتدرائية كانت نحو الف واربعمائة اقة والعرب نفوا النصرانية واللغة الرومية من كل صقلية والتزم كثير بالاسلام وقد تطهر يوم طهور ابن الخليفة الفاطمي خمسة عشر الفًا

و(في سنة ٢٢٩) وجد الواثق ان الكتاب كانوا قد اختصوا لانفسهم اموال بيت المسلمين فامر بمحاسبتهم والزامهم بمبالغ وافرة

و(في سنة ٢٣٠) خرج المجوس في اقاصي الاندلس بحرًا الى بلاد الاسلام وجرى بينهم جملة مواقع وتوصلوا الى شبيليه ثم تكوثر عليهم وطردوا واخذ منهم اربعة مراكب بما فيها وهربوا في مراكبهم الى بلادهم وفيها مات اشناس و(سنة ٢٣١) توفي ابن طاهر وابن الاعرابي الكوفي وهو محمد بن زياد صاحب اللغة ومن مصنفاته العديدة كتاب النوادر وكتاب تاريخ القبائل

وفيها كان الفدا بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد واجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وامر الواثق خاقان ان يمتحن اسرى المسلمين فمن قال بخلق القران وان الله لا يرى في الاخرة بالابصار فودي به واعطى دينارًا ومن لم يقل ذلك ترك في ايدي الروم

فلما كان في يوم عاشوراء اتت الروم ومن معهم من الاسرى وكان الامرين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون اسيرًا والروم اسيرًا فيلتقيان وسط الجسر فاذا وصل المسلم الى قومه كبروا واذا وصل الرومي الى الروم صاحوا كيرياليسون حتى فرغوا وكان عدة اسارى المسلمين اربعة الاف واربعمائة وستين نفسًا والصبيان ثماني مية ومية من اهل الذمة ثم غزا المسلمون شتاء فاصابهم مطر وثلج فمات مايتان واسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير

وتوفي الواثق بالله لست بقين من ذي الحجة (سنة ٢٣١) بمرض الاستسقا وكان قد عولج بالاقعاد في تنور سخن فوجد على ذلك راحة فعاوده وشدد سخونته وقعد فيه اكثر من الاول فمات ودفن بالهاروني . ولما اشتد مرضه امر باحضار المنجمين منهم الحسن بن ابي سهل بن نوبخت فنظروا في مولده وقدروا انه يعيش خمسين سنة مستانفة من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم ذلك الا عشرة ايام وكان الواثق ابيض مشربًا بحمرة في عينيه اليسرى نكتة بيضاء وكانت خلافته نحو خمس سنين وتسعة اشهر وعمره اثنين وثلاثين سنة وكان يحب العلويين ويبالغ في اكرامهم وفرق في الحروب اموالاً عظيمة وعند ما سمع اهل المدينة بموته حزنوا جدًا وخرجت نساوهم الى البقيع يبكين مدة طويلة ويندبن موته لفرط احسانه وكان كابيه وعمه في خلق القران وكان يلزم الناس الى مذهبه

من الحوادث المهمة في عهد الواثق مصادرة الكتاب خوفًا من اثرائهم واستبدادهم عليه نظير البرامكة على الرشيد فاخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار ومن سليمان بن وهب اربعمائة الف ومن الحسن بن وهب اربعةعشر الفًا ومن ابرهيم بن رباح مئة الف ومن ابي الوزير مئة واربعين الفًا

ومنها وقعة بغا في الاعراب وذلك ان بني سليم كانوا يفسدون ويتسلطون بنواحي المدينة واوقعوا بقوم من كنانة وباهلة فبعث محمد بن صالح اليهم مسلحة المدينة ومعهم متطوعة من قريش والانصار فهزمهم بنو سليم ونهبوا القرى بين مكة والمدينة وانقطع الطريق فبعث الواثق بغا الكبير عليهم فقاتلهم وغلبهم وقبض على الف رجل منهم ممن يعرف بالفساد وحبسهم في المدينة (سنة ٢٣٠) ثم خرج الى ذات عرق وعرض على بني هلال مثل بني سليم واخذ من المفسدين منهم ثلاث مئة وحبسهم في المدينة واطلق الباقين ثم خرج بغا الى بني مرة فنقب الاسرى الحبس وقتلوا الحراس فاجتمع عليهم اهل المدينة ليلاً ومنعوهم الخروج وقاتلوهم الى الصبح وقتلوهم وشق الامر على بغا وكان سبب غيبته ان فزارة وبني مرة تغلبوا على فدك فخرج اليهم وارسل رجلاً من قواده يعرض عليهم الامان فهربوا منه الى الشام واتبعهم الى تخوم الحجاز واقام اربعين ليلة ثم رجع الى المدينة بمن اخذ منهم وجاء اليه قوم من بطون غفار وفزارة واشجع وثعلبة فاستحلفهم على الطاعة ثم سار الى بني كلاب فاتوه في

ثلاثة الاف رجل فحبس الفًا في المدينة واطلق الباقين وسار (سنة ٢٣٢) بامر الواثق الى بني نمير باليمامة ولقي جماعة الشريف منهم وقتل منهم خمسين واسر اربعين ثم ذهب الى مرة فامرهم بالطاعة فابوا وقاموا الى جبال السند فطف اليمامة وارسل سراياهُ فاوقع بهم في كل ناحية ثم سار اليهم فلقيهم بقرب اضاخ فكشفوا مقدمتهُ وميسرته واثخنوا في عسكرهِ ثم ساروا تحت الليل فتبعهم يدعوهم الى الطاعة وبعد قتال وخداع واتفاقات حربية انجلى الامر عن ظفرهِ عليهم ولم يخلص منهم الا من بقي سالمًا على ظهور الخيل وقتل منهم نحو الف وخمسمائة واقام بمكان الوقعة الى ان استامن لهُ امراؤهم فقيدهم وحبسهم بالبصرة ثم قدم عليهِ واجن الاشروسني في ٧٠٠ مقاتل مددًا فارسلهُ الى اتباعهم الى ان بلغ تبالة من اعمال اليمن ورجع ونهض بغا الى بغداد بمن كان معهُ منهم نحو الفين ومائتي رجل وكتب الى صالح امير المدينة بان يوافيهُ بمن عندهُ منهم الى بغداد ففعل

ومنها مقتل احمد بن نصر احد النقباء وذلك لان احمد كان نسيبة لاهل الحديث وكانوا يكرهون الواثق لقولهِ بخلق القرآن فقام لهُ اناس مثل هرون السراج وطالب وغيرهما فدعوا الناس اليهِ وبايعهُ خلق على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفرقوا الاموال في الناس دينارًا لكل رجل ففشا امرهُ وعلم وقبض عليهِ وعلى طالب ونحوهما وارسلوا الى الواثق في سامرا وجلس لهم مجلس عام حضرهُ احمد بن ابي داود ولم يسالهُ الواثق عن خروجهِ بل سالهُ عن خلق القرآن فقال هو كلام الله ثم سالهُ عن الرؤية فقال جاءت بها الاخبار الصحيحة ونصيحتي ان لا يخالف حديث رسول الله صلعم ثم سال واثق العلماء حولهُ فاجابوا باستباحة دمهِ فدعا الواثق بالصمصامة فانتضاها ومشى اليهِ فضربهُ على حبل عاتقهِ ثم على راسهِ ثم وخزهُ في بطنهِ ثم اجهز سيما الدمشقي عليهِ وحز راسهُ ونصبه ببغداد وصلب شلوهُ عند بابها. قلت ان هذا الامر يدلنا على شيئين اولاً ان المحاكمة كانت ظالمة لانها لم تثبت جنحة على ابن نصر ثانيًا ان الواثق لم يكن يحسن ضرب السيف نظير سلفائهِ

وحدث احمد بن هرون الشرابي بصران المتوكل على الله حدثهُ انهُ في خلافة الواثق كان يوحنا بن ماسويه معهُ على دكان في دجلة وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد القاها في النهر ليصيد سمكًا فحرم الصيد فالتفت الى يوحنا وكان على يمينهِ وقال لهُ قم يامشئوم عن يميني فقال يوحنا يا امير المومنين لا تتكلم بالمحال يوحنا ابوهُ ماسويه الخوزي وامهُ رسالة الصقلبية المبتاعة بثمانماية درهم واقبلت بهِ السعاده الى ان صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم وغمرتهُ الدنيا فنال منها ما لم يبلغهُ املهُ فمن اعظم المحال ان يكون هذا مشئومًا ولكن ان احب امير المومنين اخبرتهُ بالمشئوم من هو فقال من هو فقال من ولده اربعة خلفاء ثم ساق اليهِ الخلافة فترك خلافتهُ وقصورها وقعد في مكان مقدار عشرين ذراعًا في مثلها وسط دجلة لا يامن من عصف الريح عليهِ فيغرقهُ وتشبه بافقر قوم في الدنيا

واشرهم وهم صيادو السمك قال المتوكل فرايت الكلام قد نجع فيه

فصل في خلافة المتوكل على الله وهو العاشر (من سنة ٢٣٢ـ٨٤٦ الى ٢٤٦ـ ٨٦٠)

لما توفي الواثق اتوا بولده محمد وكان صغيرًا والبسوهُ قلنسوة ودراعة سوداء فلم يروا ذلك مصلحة فاحضروا اخاهُ جعفر بن المعتصم وبايعوهُ ولقب بالمتوكل وذلك في ٦ ذي الحجة (سنة ٢٣٢ـ٨٤٦

وبحال تولي المتوكل قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات واخذ جميع ماله والقاه في السجن وعذبهُ بالسهر ثم وضعهُ في تنور خشب فيهِ مسامير روه وسها الى داخلهِ الى ان مات وابن الزيات هذا هو الذي امات بن اسباط المصري بمثل ذلك واخذ امواله ثم ولى المتوكل ابنهُ المنتصر الحرمين واليمن والطائف و(في سنة ٢٣٣ـ ٨٤٧) وثب ميخائيل بن طوفيل بامهِ ثيودورا والزمها الرهبانية وقتل حبيبها و(سنة ٢٣٥ـ ٨٤٩ (عقد المتوكل البيعة لبنيهِ الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمويد واعطى لكل منهم سواه وولى المنتصر العراق والحجاز واليمن وولى المعتز خراسان والري والمويد الشام وفي السنة المذكورة ظهر رجل بسامرة يقال له محمود بن فرج وادعى النبوة فكان يقول انهُ ذو القرنين وتبعهُ سبعة وعشرون رجلاً فاتي بهِ وباصحابهِ الى المتوكل فامر اصحابهُ فصفعهُ كل منهم عشر صفعات ثم ضرب حتى مات وحبس اصحابهُ وفي وقتهِ توفي اسحق بن ابرهيم الموصلي الموسيقي الشهير و(سنة ٢٣٦ ـ ٨٥) امر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وملاشاة ما حولهُ من المنازل ومنع الناس من زيارتهِ وكان المتوكل يكره جدًا العلويين وفيها توفي بن رغبان الشاعر الشهير المعروف بديك الجن ومن جيد شعره ما قال

وقم انت فاحثث كاسها غير صاغرٍ ولا تسق الا خمرها وعصارها
مشعشعةً من كف ظبي كانما تناولها من خده وادارها

ومنع المتوكل الناس من القول بخلق القران و(سنة ٢٣٧ ـ ٨٥١) ولى يوسف بن محمد ارمينية واذربيجان ولما وصل الى اخلاط جاء ابقراط بن اسوط البطريق فامر باخذه وارساله حقيرًا الى المتوكل فاغتاظ بقية البطارقة وتحالفوا علي قتل ابن يوسف المذكور ووافقهم على ذلك يوسف بن زرارة زوج ابنة ابقراط فوثبوا بيوسف وهو في قلعة موسى في رمضان وكان البرد شديدًا فخرج اليهم ابن يوسف وقاتل حتى قتل هو وكل من معهُ اما الذين لم يقاتلوا فانهم انزعوهم ثيابهم واطلقوهم عراة حفاة فهلك اكثرهم من البرد

ولما بلغ ذلك المتوكل سير عليهم بغا الكبير فسار واناخ طالبًا بثار يوسف وقتل منهم زها ثلثين

الفًا وسبى خلقًا كثيرًا ثم قام الى مدينة تفليس وحاصرها ودعا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار وهي من خشب الصنوبر فاحترقت واحترق فيها نحو خمسين الفًا و(سنة ٢٣٧) ايضًا توفي محمد بن عبد الله امير صقليه وتولى موضعهُ العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة وفتح فتوحات جليلة فاخذ العاصمة (قصريانه) وكان الملك قبلاً يسكن مرقوسه ثم انتقل الى قصريانه عندما استولى العرب على بعض الجزيرة لحصانتها

وفيها قدم ثلاث مئة مركب من الروم بثلاثة امراء واناخ احدهم بمئة مركب بدمياط وكان بينها وبين الشط شبيه البحيرة ماؤها لصدر الرجل فمن جازها الى الارض امن من مراكب البحر. وجازها قوم من المسلمين فسلموا وغرق كثيرٌ من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار الى مصر واتفق وصول الروم ودمياط فارغة من الجند فنهبوا واحرقوا وسبوا مسلمات وذميات نحو ست مئة وساروا الى مصر ونهبوها ورجعوا ولم يتعرض لهم احد و(سنة ٢٤٣) حدثت زلازل هائلة واصوات منكرة بقومس ورساتيقها في شهر شعبان وتهدمت الدور وهلك بشر كثير قيل نحو خمسة وار بعين الفًا وكان اكثر من ذلك بالدامغان وامتد ذلك الى الشام وفارس وخراسان واليمن وخسف وانقطع الجبل الاقرع وسقط في البحر فمات اهل اللاذقية من ذلك. وفيها توفي ابو العباس محمدُ بن ابرهيم بن اغلب امير افريقية وخلفهُ ابنهُ ابرهيم احمد وتوجه المتوكل (سنة ٢٤٤ـ ٨٥٨) الى دمشق وعزم على الاقامة هناك ونقل دواوين الملك اليها فقال يزيد بن محمد المهلبي في ذلك شعرًا

اظن الشام يشمت بالعراقِ اذا عزم الامام على انطلاقِ
فان تدع العراق وساكنيهِ فقد تبكي المليحة بالطلاقِ

لكنهُ كرهها حالاً ووجد ماءها قليلا واستوبأ ها فنقل الى سامرا وكان قيامهُ بدمشق شهرين وبدا بعمار الجعفري (سنة ٢٤٥) وانفق عليهِ اموالا غزيرة ونقل اليهِ (سنة ٢٤٦) وكان يقال لموضعهِ الماحوزه . ثم اتفق البعض مع بغا الصغير الشرابي والمنتصر بن المتوكل وارسلوا على المتوكل جماعة بالسيوف وهو في مجلس شرابهِ ليلا فقتلوهُ ومعهُ وزيره الفتح بن خاقان وكان ذلك ليلة الاربعاء (٤ شوال سنة ٢٤٧ ـ ٨٦١) وكانت خلافتهُ نحو الاربع عشرة سنة وعمرهُ نحو الاربعين وكان اسمر خفيف العارضين

ومما يستحق الذكر في عهد المتوكل نكبة ايتاخ وقتله وكان ايتاخ مولى لسلام الابرش فاشتراه المعتصم (سنة ١٩٩) وكان شجاعا فتقدم في دولتهِ ودولة الواثق وكان لهُ المعونه بسامرا مع ...

بن ابرهيم بن مصعب وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديهِ وحبسهم في داره مثل اولاد المامون وابن الزيات وصالح وعجيف وعمر بن الفرج وابن الجنيد وامثالهم وكان له البريد والحجابة والجيش والمغاربة والاتراك فاتفق انهُ شرب ذات ليلة مع المتوكل فعربد المتوكل عليهِ فهم ايتاخ بقتلهِ ثم غدا عليهِ المتوكل فاعتذر له ورمى عليهِ من زين له الحج فاستاذن المتوكل فاذن له وخلع عليهِ وجعله امير كل بلد يمر بهِ فسار (سنة ٢٣٣ او سنة ٢٣٤) والعسكر امامهُ وجعلت الحجابة الى وصيف الخادم وعند رجوعهِ من الحج بعث اليهِ المتوكل بالالطاف والهدايا وكتب سرًّا الى اسحق بن ابرهيم المذكور بحبسه فلما قارب بغداد كتب اليهِ اسحق بان المتوكل امر ان يدخل بغداد وان تلقاهُ بنو هاشم ووجوه الناس وان يقعد بدار خزيمة بن خازم فيامر للناس بالجوائز على قدر طبقاتهم ففعل وكان ان وقف اسحق بالباب فمنع اصحابهُ من الدخول اليهِ ثم قبض على ولديهِ منصور ومظفر وكاتبيهِ سليمان بن وهب وقدامة بن زياد واودع ايتاخ السجن الى ان مات

ومنها اغارة البجاة وكانت بين اهل مصر والبجاة هدنة من لدن الفتح وكان في بلاد البجاة معادن الذهب يودون منها الخمس الى اهل مصر فامتنعوا ايام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن وكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار في غزوهم فقالوا له انهم اهل ابل وشاه وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيها من الزاد وان فنيت الازواد هلك العسكر فامسك عنهم وخاف اهل الصعد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وارمنت وامره بحرب البجاة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معهُ فسيره في عشرين الفًا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقًا وتمرًا وادمًا الى سواحل بلاد البجاة وانتهى الى حصونهم وقلاعهم فزحف اليهِ ملكهم واسمهُ علي بابا في اضعاف عساكر القمي على المهارى وطاول علي بابا الاسلام علهُ ان تفنى ازوادهم ثم جات المراكب وفرقها القمي في اصحابهِ فناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورة وامر القمي عسكره باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهزموا واثخن فيهم قتلاً حتى استامنوا على اداء الخراج عما مضى ولما ياتي.

الصوائف

وغزا بالصائفة (سنة ٢٣٨) علي بن يحيى الارمني صاحب الصوائف وكان الفدا (سنة ٢٣٤) في عهد تيودورة ملكة الروم وكانت قد حملت الاسرى على التنصر فتنصر اكثرهم ثم طلبت المفاداة في من بقي فبعث المتوكل سيفًا الخادم بالفدا ومعهُ قاضي بغداد جعفر بن عبد الواحد وكان الفدا على نهر اللامس (الامبس) ثم اغارت الروم بعد ذلك على روبة فاسروا من كان هناك من الزط وسبوا النساء والاولاد ولما رجع علي بن يحيى الارمني من الصائفة خرجت الروم وانتهوا الى آمد واكتسحوا

نواحي الثغور والخزر به نهبًا واسروا نحو عشرة الاف وارسل المتوكل بغا الكبير بالصائفة فدخل بلاد الروم ودوخ واكتسحها من جملة نواحٍ ورجع و (في سنة ٢٤٥) اغارت الروم على سميساط فغنموا وغزا على بن يحيي الارميني بالصائفة كركرة فانتقض اهلها على بطريقهم وسلموه الى موالي المتوكل فاطلق ملك الروم في فدائهِ الف اسير . وغزا (سنة ٢٤٦) عمر بن عبيدالله الاقطع بالصائفه فجاءوا باربعة الاف راس وغزا قرشاس فجاء بخمسة الاف راس وغزا الفضل بن قاران في الاسطول فافتتح حصن انطاكية وكان الفداء تلك السنة على الفين وثلاث ماية من الاسرى

وعلى ما يظهر ان الصوائف مع الوقت عادت نوع سرقة مرتبة بين الامتين وبها حفظ الضغن والعداوة بين العرب والروم مدة طويلة فان تلك الحروب لم تكن حروب افتتاح بل نهب وسلب وتخريب واذية تليق بالعيشة البربرية لا غير وقد انقضت في هذه الازمنة والحمد لله

وفي عهدهِ كان بختيشوع الطبيب الذي توفي (سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩) واشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي في علم الطب والعباديون قوم من نصارى العرب اجتمعوا من قبائل شتى وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة وتلقبوا بالعباد لانهُ بخلاف العبيد لا يضاف الا الى الخالق وكان اسحق والد حنين صيدلانيًا في الحيرة ولما شب حنين مال الى العلم فقصد بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وخدمهُ وقرا عليهِ وكان حنين صاحب سوال ويوحنا ضيق الخلق فسالهُ حنين يومًا مسئلة فاجابهُ يوحنا ما لاهل الحيرة والطب . عليك ببيع الفلوس في الطريق . وامر بهِ فاخرج من دارهِ فخرج حنين باكيًا متاثرًا وقصد بلاد الروم واقام بها سنتين حتى احكم اللغة اليونانية وتوصل الى تحصيل كتب الحكمة وعاد الى بغداد ونهض من بغداد الى فارس ولزم الخليل بن احمد في البصرة حتى برع في اللغة العربية ثم قفل الى بغداد قال يوسف الطبيب دخلت يومًا على جبريل بن بختيشوع فوجدت عندهُ حنينًا وقد ترجم لهُ بعض قضايا تشريح وجبريل يخاطبهُ بالتبجيل ويسميهِ الربان فاستعظمت ما رايت وتبين ذلك لجبريل مني فقال لا تستكثر هذا في امر هذا الفتى فوالله لئن مد الله تعالى لهُ في العمر ليفضحن سرجيس وسرجيس هذا هو الراس عيني اليعقوبي ناقل علوم اليونان الى السريانية ولم يزل امر حنين يقوى وعلمهُ يتزايد وعجائبهُ تظهر في النقل والتفاسير حتى انفرد ينبوعًا للعلوم ومعدنًا للفضائل واتصل خبرهُ بالخليفة المتوكل فامر باحضارهِ واكرمهُ واقطعهُ اقطاعًا سنيًا واقر لهُ جارجيد واحب امتحانهُ يومًا خوفًا من ان يكون محتالًا من قبل الروم فاستدعاهُ وامر ان يخلع عليهِ واخرج لهُ توقيعًا وفيهِ اقطاع يشتمل على خمسين الف درهم فشكرهُ حنين ثم قال بعد اشياء جرت اريد ان تصف لي دواء اقتل بهِ عدوًا لا يمكن اشهارهُ فاجاب حنين مولاي اني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولا فكرت ان امير المومنين

يطلب اليّ غيرها فان احب ان امضي واتعلم ذلك فعلت فقال هذا شيء يطول ثم رغبهُ وتهددهُ وارسلهُ الى السجن في بعض القلاع وتركهُ سنة ثم احضرهُ واعاد عليهِ الطلب واحضر سيفًا ونطعًا فقال حنين قد قلت لامير المومنين ما فيهِ الكفاءة قال الخليفة نقتلك ان لم تفعل قال حنين ان لي ربًا ياخذ بحقي غدًا في الموقف الاعظم فتبسم المتوكل وقال له طب نفسًا فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك فقبل حنين الارض وشكر فقال الخليفة بعد ان سكن روع حنين ما الذي منعك عن الاجابة مع ما رايتهُ من صدق الامر منا في الحالين قال حنين شيئان الدين والصناعة اما الدين فانهُ يامرنا باصطناع الجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء وقد يكون المطلوب قتلهُ صديقًا لي واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الاطباء عهد موكد بايمان مغلظة الاَّ يعطوا دواء قتالاً لاحد فقال الخليفة انهما شرعان جليلان وانعم عليهِ فحمل انعامهُ وخرج وهو ارقى الناس حالاً وجاهًا وكان الطينوري النصراني الكاتب يحسد حنينًا ويكرههُ فاجتمعا يومًا في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل قدامها فقال حنين لصاحب البيت لمَ تضيع الزيت فليس هذا بالمسيح ولا هولاء بالتلاميذ وانما هي صور فانكر ذلك الطينوري وقال ان لم تستحق الاكرام فابصق عليها فبصق حنين فاشهد عليهِ الطينوري ورفعهُ الى المتوكل وطلب اباحة الحكم عليهِ لروساء الملة فبعث الى الجاثليق والاساقفة وسالوا عن ذلك فاوجبوا حرم حنين وقطع زنارهِ فانصرف حنين الى دارهِ ومات من ليلتهِ فجأة وقيل انهُ شرب سمًا وكان لحنين ولدان داود واسحق اما اسحق فخدم على الترجمة واتقنها واحسن فيها وكانت نفسهُ اميل الى الفلسفة واما داود فكان طبيبًا للعامة وكان لهُ ابن اخت يقال لهُ حبيش بن الاعسم احد الناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي وكان يقدمهُ على تلاميذهِ وكثيرًا ما يرى الجهال شيئًا من الكتب القديمة مترجمًا بنقل حبيش فيظن الغر منهم انهُ حنين وقد صحف فيكشطهُ ويجعلهُ حنينًا

في خلافة المنتصر وهو الحادي عشر (من سنة ٢٤٧ – ٨٦١ الى ٢٤٨ – ٨٦٢)

ولما كان صباح الاربعاء حضر الناس والقواد والعساكر الى الجعفري وخرج احمد بن الخصيب وتلا كتابًا من المنتصر مفادهُ ان الفتح بن خاقان قتل والدي فقتلتهُ بهِ ويطلب المبايعة لنفسهِ فصدق الناس وبايعوهُ

وفي هذه السنة توفي امير صقلية فقام عوضهُ ابنهُ عبد الله ثم حضر من افريقية خفاجة بن سفيان اميرًا فغزا وفتح في الجزيرة ثم اغتالهُ رجل من عسكرهِ وهرب فاقاموا عوضهُ محمدًا ولدهُ ثم

اقره محمد بن احمد بن اغلب صاحب القيروان فبقي الى ان قتلة خصيانة (سنة ٢٥٧ ـ ٨٧٠) وهربوا فادركهم الناس وقتلوهم ٠٠ و(سنة ٢٤٨ ـ ٨٦٢) جد وصيف و بغا و باقي الاتراك في خلع المعتز والمويد والحوا على المنتصر فخلعهما و بايع ولده عبد الوهاب كرهًا منه ومنهما ثم دعاهما وقال « اتظنان اني خلعتكما طمعًا في ان اعيش واری ولدي صالحًا للخلافة والله ما طمعت بذلك ساعةً ولكن هولاء » (واوما الى سائر الموالي والاتراك من هو قائم وقاعد) الحوا عليَّ في خلعكما

وفي هذه السنة قضي المنتصر نحبهُ نهار الاحد بسامرا في (٥) ربيع الاول بالذبحة ومرض ثلثة ايام وعمرهُ نحو ٢٥ سنة وخلافتة ستة اشهر قيل كان كثير يقولون حين افضت الخلافة اليهِ انهُ لا يعيش اكثر من ستة اشهر نظير شيرويه بن كسرى قاتل ابيهِ وكان المنتصر اعين اقنى قصيرًا مهيبًا عظيم اللحية عاقلاً منصفًا وكان قد رجع قبر الحسين وامن العلويين بخلاف سلفائهِ

في خلافة المستعين بالله وهو الثاني عشر (من ٢٤٨ ـ ٨٦٢ الى ٢٥٢ ـ ٨٦٦)

ولما توفي المنتصر اتفق عظماء الدولة من الاتراك وغيرهم على مبايعة ابي العباس المستعين فبايعوا له ليلة الاثنين (في ٦ ربيع الاخر سنة ٢٤٨) فعقد لمحمد بن طاهر بن عبد الله على خراسان بسبب موت طاهر ابيهِ وجعل موسى بن بغا الكبير عوض ابيهِ لموتهِ ايضًا . وفيها تحرك يعقوب بن ليث الصفار من سجستان على هراة وثارت الحرب بين المسلمين والروم (سنة ٢٤٩) وتواقعوا في مرج الاسقف وقتل فيها عمر بن الاقطع مقدم عسكر المستعين وكان من الابطال وانهزمت جنودهُ وقتل منهم خلق كثير واغار الروم على الثغور الجزرية وشغبت الجنود الشاكرية والعامة في بغداد ضد الاتراك لاستيلائهم على مصالح المسلمين يقتلون ويستخلصون من بدا لهم من دون تروٍ ولا نظر ووقعت فتنة بسامرا وفتحوا الحبوس واطلقوا من بها وركبت الاتراك واوقعوا في الشعب الى ان سكنت الثورة وفيها قامت الموالي على اتامش الترك فقتلوه ونهبوا دارهُ وذلك لان المستعين كان اطلق يد والدته و يد اتامش ويد شاهك الخادم فكانوا يتناولون من بيوت المال على هواهم ثم احرقوا احد الجسرين وقطعوا الاخر وانتهبوا دور اهل الايسار واخرجوا اموالاً كثيرة وفرقوها فيمن نهض لحفظ الثغور ٠ وفيها توفي ابو ابرهيم بن اغلب صاحب افريقية وولي موضعهُ اخوهُ زياده ثم توفي زياده ثاني سنة وخلفهُ ابن اخيهِ ابو عبد الله .

فصل

في الربع الثالث من القرن الثالث

ومن الحوادث التاريخية في عهد المستعين ظهور يحيي بن عمرو ومقتله وهو يحيي بن عمرو بن يحيي

بن زيد الشهيد وكان على الطالبيين بالكوفة ويكنى ابا الحسين وامه من ولد عبدالله بن جعفر وبعد من سراتهم ووجوههم وكان عمر بن فرج يتولى زمان المتوكل على الطالبيين فعرض له ابو الحسين المذكور عند قدومه من خراسان وطلب منه صلة لدين عليه فاغلظ له عمر الجواب وحبسه حتى اخذ عليه الكفلاء ثم انطلق الى بغداد وذهب الى سامرا وقد املق فتعرض لوصيف في رزق يجري له فاساءهُ الوصيف عليه فرجع الى الكوفة وعاملها وقتئذٍ ايوب بن الحسين من قبل محمد بن عبدالله بن طاهر فاعتزم على الخروج والتف عليه جمع من العرب واهل الكوفة ودعا للرضى من آل محمد وفتق السجون ونهبها وطرد العمال واخذ من بيت المال الفي دينار وسبعين الف درهم وكان صاحب البريد قد طير بخبره الى ابن طاهر فكتب الى عامله بالسواد عبدالله بن محمود السرخسي ان يبعث بالمدد الى الكوفة ففعل فلقيهم يحيي وقاتلهم وهزمهم وانتهب ما معهم وخرج الى سواد الكوفة وتبعه خلق من الزيدية وانتهى الى ناحية واسط وكثر جموعه وسرح ابن طاهر الى محاربته اسمعيل بن ابرهيم في العساكر فسار اليه وقد كان يحيي قصد الكوفة فلقيه عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلس فهزمه يحيي الى ناحية ساهي ودخل الكوفة واجتمعت عليه الزيدية ثم وصل ابن اسمعيل بن ابرهيم وانضم اليه ابن الخطاب فخرج يحيي من الكوفة ليعاجلهم الحرب فاسرى ليلته وصبح العساكر فساروا اليه فهزموه بعد حرب عنيدة ووضعوا السيف في اصحابه واسروا منهم كثيرًا وانجلى الامر عن قتل يحيي واحتز راسه وارسل الى ابن طاهر وهو ارسله الى بغداد الى المستعين وذلك (سنة ٢٥٠)

ومنها ظهور الحسن بن زيد من العلوية بطبرستان واستبداده بها وذلك انه لما تقوى ابن طاهر على يحيي بن عمرو كما تقدم وكان يحيي غنيًا وقد عثر هو على كل ذلك واشتهر اقطعه المستعين قطائع من صوافي السلطان بطبرستان منها قطعة بقرب ثغر الديلم تسمى روسالوس وفيها ارض موات ذات غياض واشجار وكلها مباحة لمصالح الناس من الاحتطاب والرعى وكان عامل طبرستان وقتئذٍ من قبل ابن طاهر عمه سليمان بن عبدالله وهو اخو محمد صاحب القطائع المذكورة وكان سليمان مكفولاً لامه وقد حظي عندها وتقدم وفرق اولاده في اعمال طبرستان فاساوا السيرة في الرعايا ثم دخل محمد بن اوس بلاد الديلم وهم مسالمون فسبى منهم وشق الامر عليهم ثم جاء نائب محمد بن عبدالله لقبض القطائع وقد ضمنها الارض المذكورة المباحة لمنافع الناس فانكر عليه ذلك الناظر على تلك الارض وكان من امر كل هذا ان لحق النائب بسليمان اخي سيده يستنجدهُ وكتب ابنا رستم نظار الارض الى الديلم يستغيثان ومثله الى محمد بن ابرهيم من طبرستان يدعوانه الى القيام بامره لانه علوى فامتنع ودلهم على كبير العلوية بالري الحسن بن زيد المقدم ذكره فكاتبه ابنا رستم محمد وجعفر فشخص اليها وقد اجتمع اهل كلار وسالوس واهل الريان ومعهم الديلم باسرهم فبايعوهُ جميعًا

وطردوا عمال سليمان وابن اوس ثم انضم اليهم رجال طبرستان وزحف الحسن بن معهُ الى مدينة آمد وخرج ابن اوس من سارية لمدافعتهِ فانهزم ولحق بسليمان في سارية فخرج سليمان لحرب الحسن ولما التقى الجمعان بعث الحسن بعض قواده خالف سليمان الى سارية وسمع بذلك سليمان فانهزم واخذ الحسن سارية وبعث باولاد سليمان وعياله الى جرجان بحرًا ثم بعث الحسن ابن عمهِ الى الري وهو القاسم بن علي وبعث المستعين جندًا الى همذان ليمنعها ولما ملك محمد بن جعفر قائد الحسن الري اساء التصرف فبعث بن طاهر عليهِ من نزعها منهُ واسره فبعث الحسن بن زيد عليهِ قائدهُ دواجن فهزم رجال ابن طاهر وقتل رئيسهم ابن ميكال واسترد الري ثم جاء موسى بن بغا بالعساكر فملك الري من يدي ابي دلف وبعث مفلحًا الى طبرستان فحارب الحسن بن زيد وهزمهُ واستولى على طبرستان ولحق الحسن بالديلم ودخل مفلح آمد وخرب منازل الحسن ورجع الى موسى بالري

والحسن بن زيد بقي مستوليًا الديلم الى ان قتل (سنة ٢٨٧ ـ ٨٠٢) وخلفهُ الحسن بن علي الملقب بالناصر

وفيها ايضًا هي و (سنة ٢٥٠) عصت حمص على العامل الفضل بن قارن اخي مازيار وقتلوهُ فجهز المستعين عليهم موسى بن بغا الاكبر فحاربهم بين حمص والرستن وهزمهم وفتح حمص واحرقها وقتل كثيرًا من اهلها

وفيها اتفق بغا الصغير ووصيف فقتلا باغر التركي فشغبت الترك وحصروا المستعين وبغا الصغير ووصيفًا في القصر بسامرا فهرب المستعين وبغا ووصيف في حراقة وانحدروا الى بغداد فاخرجوا المعتز من الحبس وولوهُ على اموال المستعين بسامرا واموال امهِ وفرق على الجند وعقد المعتز لاخيهِ ابي احمد طلحة بن المتوكل وجهزهُ مع خمسين الفًا من الترك لحرب المستعين وتحصن المستعين ببغداد وجرى بين الفريقين قتال كثير ثم اتفق الكبرا على خلع المستعين والزموهُ بذلك ثم دخلت سنة ٢٥٢

في خلافة المعتز وهو الثالث عشر (من سنة ٢٥٢ ـ ٨٦٦ الى سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩)

وبعد خلع المستعين كما تقدم بويع المعتز ابن المتوكل بن المعتصم وخطب لهُ ببغداد يوم الجمعة رابع محرم (سنة ٢٥٢) وقام المستعين من قصر الرصافة بعيالهِ الى قصر الحسن بن سهل واستلموا منهُ البردة والقضيب والخاتم ثم طلب المستعين ان يكون بمكة فمنع فاختار البصرة ووكل بهِ جماعة وانحدر الى واسط ثم امر المعتز بقتلهِ وكتب بهِ الى احمد بن طولون فامتنع احمد بل سار بهِ

الى القاطول وسلمه الى الحاجب سعيد بن صالح فامانه ضربًا وحمل راسه الى المعتز وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة اشهر وعمرهُ نحو اربع وثلاثين سنة . وفيها عقد لابن الشيخ عيسى على الرملة فارسل عنه نائبًا عليها وكان عيسى شيبانيًا وهو عيسى بن الشيخ بن السليك من ولد جساس بن مره فلما كان ما كان من فتنة الاتراك في العراق تغلب عيسى المذكور علي دمشق واعمالها وقطع ما كان يحمل منها الى الخليفة واستبد بالامر و(سنة ٢٥٣) تملك يعقوب الصفار هراة وبوشنج وعظم امرهُ وهابه امير خراسان . و(سنة ٢٥٤) ولي احمد بن طولون على مصر واستولى الصفار على كرمان وفارس ودخل شيراز ونادى بالامان (سنة ٢٥٥) وكتب للخليفة بطاعته واهداهُ هدية جميلة منها عشرة بزاة ومائة منٍّ من المسك وكان طولون مملوكًا تركيًا للمامون وولد له احمد (سنة ٢٢٠) في بغداد وكان احمد عالي الهمة يستقل بعقول الاتراك ودينهم وموثوقًا به في العظائم وتشاغل بالخير والصلاح فتمكنت محبتهُ في القلوب

وكان قد خرج بناحية الموصل (سنة ٢٤٨) في ايام المستعين محمد بن عمر الشاري فسرح عليه المنتصر اسحق بن ثابت الفرغاني فحاربه واسرهُ في عدة من اصحابه وفيها غزا وصيف بالصائفة وامره المنتصر بالمقام بملطية اربع سنين يغزو في اوقات الغزو وكان مقيمًا في الثغر الشامي فدخل بلاد الروم وفتح حصن قدوريه وخرج الروم الى الثغور الخزرية فاستباحوها وبلغ ذلك علي بن يحيى الارميني وقد كان صرف على الثغور الشامية وعقد له على ارمينية واذربيجان فلما سمع بخبرهم نفر اليهم وقاتلهم فانهزم وقتل في اربع مئة من المسلمين وغزا محمد بن معاذ (سنة ٢٥٣) في ايام المعتز من ناحية ملطيه فانهزم واسر

وفي تلك المدة خرج مساور بن عبد الله بن مساور البجلي وله حروب شهيرة مع حسان بن بكير صاحب الشرطة بالحديثة من اعمال الموصل ومع محمد بن جعفر الخزاعي والي الموصل ومع بندار ومظفر بن مشبك ومع خطرمش رئيس الجند ومع حمدون بن الحرث بن لقمان جد الامراء الحمدانية ومع محمد بن عبد الله بن السيد بن انس في نواحي الموصل انتصر فيها جميعًا (سنة ٢٥٣ ٢٥٤) ثم كانت الفتنة (سنة ٢٥٥) وخلع المعتز وبويع للمهتدي وولي على الموصل عبد الله بن سليمان فزحف اليه مساور وحام عبد الله عن لقائه فملك مساور البلد وبقي فيه جمعة وصلى وخطب ثم خرج الى الحديثة وكانت دار هجرته ثم انتقض عليه احد الخوارج واسمه عبيدة بن زهير العمري بسبب الخلاف في توبة الخاطي . وقال عبيدة لا تقبل وكان قتال شديد بينهما قتل فيه عبيدة وانهزم اصحابه واستولى مساور على اكثر الفرات ومنع الاموال وسار اليه بغا بالعساكر ثم بلغهم خبر الاتراك مع المهتدي فاقاموا ثم زحفوا بخلع المهتدي ولما نهض المعتمد بعث عليه مفلحًا في عسكر كبير فترك مساور الحديثة الى

الجبال واعتصم بها وله مواقع عديدة مع مفلح ولما كثرت الجراحة في اصحاب مساور من حين حربه مع عبيدة الى ذلك الوقت ترك الجبل فاصبح مفلح وقد فقدهم فسار مفلح الى الموصل ثم الى ديار ربيعة وسنجار ونصيبين والخابور فاصلح امورها ثم جاء مساور يتخطف من اعقابهم ويقاتلهم وعاد الى الحديثة ورجع مفلح الى بغداد (سنة ٢٥٥)

وفيها خلع المعتز نهار الاربعا لثلث بقين من رجب واختلف في اسمه قيل محمد وقيل الزبير وكنيته ابو عبد الله وتوفي في ٢ شعبان وكان السبب ان الاتراك طلبوا ارزاقهم فلم يكن عند المعتز مال فنزلوا معه الى خمسين الف دينار فارسل المعتز وسال امه واسمها قبيحة تعاكسًا لانها كانت جميلة جدًا وغنية فاجابت « ما عندي شيء » فاتفق الاتراك والمغاربة والفراعنة على خلعه وساروا الى بابه وطلبوه فقال اني شربت امس دواء وقد افرط فيَّ العمل فان كان لا بد من الاجتماع فليدخل بعضكم اليَّ فدخل منهم جماعة وجروهُ برجلهِ الى باب الحجرة وضربوهُ بالدبابيس ومزقوا قميصهُ واقاموهُ بالشمس ثم ادخلوهُ الى حجرتهِ واحضروا القاضي واشهدوه وخلافة على خلعهِ نفسهُ ثم سلموه لمن يعذبهُ ومنعوا عنهُ الطعام والشراب ثلاثة ايام ثم ادخلوهُ سردابًا وجصصوه عليهِ فمات ودفنوهُ بسامرا مع المنتصر وكانت خلافتهُ اربع سنين ونصفًا وعمرهُ اربعًا وعشرين سنة وكان ابيض اسود الشعر

وفي ذلك الوقت توفي سابور بن سهل النصراني صاحب بيمارستان جندي سابور وكان فاضلاً في عصرهِ وله تصانيف مشهورة منها كتب القراباذين المعول عليهِ في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة وفيهِ اثنان وعشرون بابًا

في خلافة المهتدي وهو الرابع عشر (من سنة ٢٥٥ ـ ٨٦٨ الى سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩)

بويع المهتدي وهو محمد بن الواثق يوم الاربعاء لثلث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) وكنيته ابو عبد الله وامه رومية وفي هذه السنة ظهرت قبيحة من خباها وكان لها مطمور تحت الارض فيه الف الف دينار ووجد لها في سفط قدر مكوك زمرد وفي اخر قدر مكوك لولوء ومقدار كيلجة ياقوت احمر لامثيل له فنبش ذلك كله واعطى الى صالح بن وصيف فقال صالح قبح الله قبيحة فقد عرضت ابنها للقتل لاجل خمسين الف دينار وعندها هذا كله والمكوك هو (نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون او اربع وعشرون مدًّا بمد النبي او) ثلاث كيلجات والكيلجة منٌّ وسبعة اثمان المنّ والمنّ رطلان والرطل اثنا عشرة اوقية والاوقية استار وثلثا استار والاستار اربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة اسباع الدرهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة شعيرتان

والشعيرة ست خرادل او مساحة ست شعرات من شعر بغل عرضًا

وفي هذه السنة ظهر صاحب الزنج وهو علي بن محمد من ولد عبد القيس وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ في جهة البصره وادعى انه علي بن احمد بن عيسى من ولد علي واستفحل امره وبث اتباعه للاغارة والنهب الى كل ناحية

و(في سنة ٢٥٦) خلع المهتدي انصاف رجب وتوفي لاثنتي عشرة بقين منه وكان السبب انه اراد قتل موسى بن بغا لقتله صالح بن وصيف وكان موسى معسكرًا قبالة بعض الخوارج وكتب الى بليكبال من مقدمي الاتراك بان يقتله ويأخذ موضعه وكانت النتيجة اتفاق الاثنين عليه فسار الى سامرا ودخل بليكبال على المهتدي فحبسه المهتدي وقتله . وركب لقتال موسى فخان الاتراك الذين معه وتوجهوا مع اتراك موسى فهرب وانتهى الامر بخلعه وقتله وكانت خلافته اقل من سنة وعمره ٣٨ سنة وكان اسمر عظيم البطن قصيرًا طويل اللحية ورعًا كثير العبادة

في خلافة المعتمد وهو الخامس عشر (من سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩ الى ٢٧٩ ـ ٨٩٢)

ولما فشا خلع المهتدي وموته اتوا بابي العباس احمد بن المتوكل من سجن وبايعوا له بالخلافة ولقب المعتمد على الله واتخذله وزيرًا عبد الله بن يحيى بن خاقان

وفيها ملك صاحب الزنج ابلة عنوة واحرقها وقتل فيها خلقًا كثيرًا ثم استولى على عبادان فالاهواز بالسيف وفيها عزل عيسى بن الشيخ عن الشام قهرًا وعقد له علي ارمينية وولى اماجور الشام وكان بعد ان توجه مفلح الى بغداد و(سنة ٢٥٨) اشتدت شوكة مساور واستولى على البلاد فاوقع به مسرور البلخي (سنة ٢٥٨) وجهز عليه جعلان احد قواد الاتراك و(سنة ٢٥٧) اخذ الزنج البصرة واخربوها وقتلوا من وجدوه وملك يعقوب الصفار بلخ ثم مضى الى كابل فاستولى عليها وارسل هدايا الى الخليفة وفيها اصنام من تلك البلاد

وفيها اخذ الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان جرجان وقتل خفاجة امير صقليه واستخلف ابن اغلب عوضه احمد بن يعقوب . وفيها وثب على ملك الروم ميخائيل احد اقربائه وقتله بعد ملك اربع وعشرين سنة وملك مكانه

و(سنة ٢٥٨) جهز المعتمد اخاه ابا احمد الموفق على الزنج . و(سنة ٢٥٩) استولى الصفار على نيسابور وخرجت عساكر الروم فنازلوا سمياط ثم ملطيه وقاتلهم اهلها فانهزموا وقتل احد بطارقتهم

وفيها توفي محمد بن موسى بن شاكر احد الاخوة الثلثة الذين ينسب اليهم حيل بني موسى المشهورين واسم اخويه احمد والحسين وكان لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكان الغالب عليهم الحيل

والموسيقى وهم الذين حققوا بامر المامون قياس دور الارض ومقدار الدرجة كما سياتي

والمعتمد (سنة ٢٦١) عهد بالخلافة لابنهِ جعفر ولقبهُ المفوض الى الله وولى اخاهُ ابا احمد العهد بعد جعفر ولقبهُ الموفق بالله ثم قتل مساور يحيي بن جعفر من ولاة خراسان وسار مسرور بطلبهِ وتبعهُ الموفق فلم يدركاه

وفيها ابتدا امر الساماني وهو نصر بن احمد بن اسد بن سامان اخذه بن جثمان بن طغاث بن بهرام جوبين وهو بهرام جوبين المذكور في اخبار كسرى برويز

فاسد بن سامان كان لهُ اربعة بنين . نوح . واحمد . ويحيى . والياس . وكانوا حين تولى المامون في خراسان فقربهم واكرمهم واستعملهم ولما رجع الى العراق استخلف على خراسان غسان بن عباد فولى غسان احمد على فرغانه (سنة ٢٠٤–٨١٩) . ويحيى على الشاس واسرشنة . والياس على هراة . ونوحًا على سمرقند وعند تولي طاهر بن حسين على خراسان اقرهم في اماكنهم ثم مات نوح ثم الياس بهراة وبقي مكانهُ ابنهُ محمد بن الياس

وكان لاحمد سبعة بنين . نصر . ويعقوب . ويحيى . واسد . واسمعيل . واسحق . وحميد ثم مات احمد المذكور فاستخلف ابنهُ نصر على اعمالهِ وكان اسمعيل في خدمة اخيهِ نصر المذكور فولاهُ نصر بخارى في السنة المذكورة (اي سنة ٢٦١) ثم سعت الوشاة بين الاخوين حتى اقتتلا (سنة ٢٧٥) وظفر اسمعيل باخيهِ ولما حمل اليهِ ترجل لهُ اسمعيل وقبل يديهِ وردهُ الى موضعهِ وبقي اسمعيل ببخارى وكان خيرًا يحب العلماء ويكرمهم فدام ملكهُ وملك اولادهِ وطالت ايامهم

وفيها توفي محمد الاغلبي بعد ولايةٍ عشر سنين وكسر وولى اخوهُ ابرهيم ثم سار ابرهيم الى صقلية وفتح فتوحات عظيمة كما تقدم وتوفي في الذرب (سنة ٢٨٩–٩٠١) بصقلية وجعل في تابوت وحمل الى افريقية ودفن بالقيروان وكانت ولايتهُ خمسًا وعشرين سنة

و(سنة ٢٦٢) خرج صاحب الزنج الى جهة بطائح واسط وقتل وسبى واحرق و(سنة ٢٦٣) تولى الصفار على الاهواز

لما سار احمد بن موسى بن بغا الى الجزيرة وولى موسى بن اتامش على ديار ربيعة فارق اسحق بن كنداج عسكره واوقع بالاكراد اليعقوبية وانتهب اموالهم ثم لقي ابن مساور الخارجي (سنة ٢٦٣) فقتلهُ وسار الى الموصل فقاطع اهلها على مال وكان عليهم علي بن داود قائدًا فدفعهُ وسار ابن كنداج اليهِ فخرج علي بن داود واجتمع حمدان بن حمدون التغلبي واسحق بن عمر بن ايوب التغلبي العدوي فكانوا خمسة عشر ثم جاءهم علي بن داود فلقيهم ابن كنداج في ثلثة الاف فهزمهم بدسيسة من اهل معسكرهم وسار حمدان وعلي بن داود الى نيسابور وابن ايوب الى نصيبين وابن كنداج في

اثره فسار عنها واستغاث بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد وبابي العز موسى بن زرارة وهو عامل اردن فانجداه وبعث المعتمد الى اسحق بن كنداج بولاية الموصل فدخلها فارسل اليه ابن الشيخ وابن زرارة مئة الف دينار على ان يقرها على اعمالها فامتنع فاجتمعوا على حربه فرجع الى اجابة طلبهم ثم حاربوه (سنة ٢٦٧) واجتمع لحربه اسحق بن ايوب وعيسى بن الشيخ وابن حمدان في ربيعة وتغلب وبكر واليمن فهزمهم بن كنداج الى نصيبين ثم الى آمد

وبعد قتل بن مساور كما تقدم اراد اصحابه ولاية محمد بن حرداد بشهرزور فامتنع وبايعوا ايوب بن حيان المعروف بالغلام فقتل فبايعوا هرون بن عبد الله البجلي وكثر اتباعه واستولى على الموصل وخرج عليه من اصحابه محمد بن حرداد وكان كثير العبادة والزهد يجلس على الارض ويلبس الصوف الخشن ويركب البقر لئلا يفرّ في الحرب فنزل واسطوقدم اليه وجوه اهل الموصل وهرون غائب في الاحداد فبادر اليه واقتتلا فانهزم هرون وقصد بني تغلب مستنجدًا فانجدوه وسار معه حمدان بن حمدون ودخل معه الموصل ثم استمال هرون جماعة ابن حرداد ولم يبقَ معه الا قليل من الاكراد ثم خرج واوقع بابن حرداد فقتله واوقع بالاكراد الجلالية وكثر اتباعه وتغلب على القرى والرساتيق وجعل على دجلة من ياخذ الزكوة من الاموال المصعدة والمنحدرة ووضع في الرساتيق من يقبض اعشار الغلات واستقام امره . ثم جاء بنو سامان لقتاله (سنة ٢٧٦) واستنجد بحمدان بن حمدون فجاءه بنفسه الى نهر الخازن وانهزمت طليعتهم وانهزموا لانهزامها وجاء بنو شيبان الى قسوى فهرب اهلها واقام هرون واصحابه بالحديثة

وخرج (سنة ٢٦٤) خارجي مجهول في الصين وعظم امره فقصد مدينة خانتقو وحصرها ولها نهر عظيم وبها عالم جزيل من النصارى والمسلمين واليهود والمجوس وغيرهم وفتحها عنوة وقتل بها خلقًا كثيرًا واستولى على بلدان واسعة من الصين ثم عدم وتفرقت اصحابه فلم يعلم عنه شيء بعد ذلك . وفيها انتهى عمار رقاده التي بناها ابرهيم بن الاغلب وانتقل اليها وسكنها

ودخل (سنة ٢٦٥) الزنج العمانية وسبوا واحرقوا ثم توجهوا الى جرجرايا ودخل اهل السواد بغداد وفيها مات يعقوب بن ليث الصفار بجندي سابور من الاهواز وكان المعتمد ارسل اليه رسولاً يستميله وهو مريض فاستاذن بالدخول اليه فقدم وكان عند يعقوب سيف ورغيف من الخشكار وبصل فقال للرسول قل للخليفة ان مت فقد استراح مني واسترحت منه وان عوفيت فليس بيني وبينه الاّ هذا السيف فان كسرني وافقرني عدت الى اكل هذا الخبز والبصل . وكان يعقوب قد فتح الرخج وقتل ملكها واسلم اهلها عن يده وكان ملك الرخج يجلس على سرير من ذهب ويدعي الربوبية ويعقوب كان عاقلاً حازمًا وكان يعمل الصفر في زمانه فقيل له الصفار لذلك وصحب

في زمانهِ رجلاً من اهل سجستان كان مشهورًا بالتطوع في قتال الخوارج يقال لهُ صالح بن النضر الكناني ثم هلك صالح المذكور فتولى مكانهُ درهم بن الحسين فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان درهم غير ضابط لامور العسكر فلما راى اصحاب درهم ضعفهُ وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث وملكوهُ امرهم ودرهم لم ينازعهُ بذلك فاستبد يعقوب وقويت شوكتهُ ولما مات يعقوب قام بالامر بعدهُ اخوهُ عمرو بن الليث وكتب الى الخليفة بطاعتهِ فولاهُ الموفق خراسان واصفهان وسجستان والسند وكرمان وسير اليهِ الخلع مع الولاية

و(سنة ٢٦٦)صار الناس في ضنكٍ عظيم تحت حكم الخليفة بسبب تغلب الاجناد والقواد على الامر وقلة خوفهم من القصاص لاشتغال الموفق بقتال الزنج وعجز المعتمد عن ذلك واشتدت الحرب بين الموفق والزنج وانكشفوا عن الاهواز(سنة ٢٦٧) واستولى عليها الموفق وسار الى مدينة صاحب الزنج وحصرها فخرج اليهِ اكثر اهلها بالامان وضعف الباقون فسلموها وكانت محصنة جدًّا واسمها المختارهو. (سنة ٢٦٨)خامر لولو غلام احمد بن طولون على سيدهِ وكان في يدهِ حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة وكاتب الموفق في المسير اليهِ ثم سار اليهِ و(في سنة ٢٧٠)قتل صاحب الزنج وتفرقت شيعتهُ وكان خروجهُ (٢٦ رمضان سنة ٢٥٥) وقتلهُ يوم السبت في اثنين صفر (سنة ٢٧٠)وكانت المدة اربع عشرة سنة

الصوائف

وفي (سنة ٢٦٣) استولى الروم على قلعة الصقالبة وكانت ثغرًا لطرسوس وتدعى قلعة كركرة فرد المعتمد ولاية ثغر طرسوس لابن طولون وكان احمد بن طولون قد خطب ولايتها من الموفق يريد ان يجعلها ركابًا لجهادهِ لخبرتهِ باحوالها وكان يردد الغزو من هناك الى بلاد الروم قبل ولاية مصر فلم يجبهُ الموفق الى طلبهِ وولى عليها محمد بن هرون الثعلبي واعترضهُ السراة اصحاب مساور وهو مسافر في دجلة فقتلوهُ فولي مكانهُ اماجور بن اولغ بن طرخان من الترك وكان غرًّا جاهلاً فسار اليها واساء السيرة ومنع اقران اهل كركرة ميرتهم وكتبوا الى اهل طرسوس يشكون فجمعوا لهم خمسة عشر الف دينار فاخذها اماجور لنفسهِ وابطا على اهل القلعة شانها فنزلوا عنها واعطوها الروم وكثر اسف اهل طرسوس لذلك لانها كانت ثغرهم وعينًا لهم على العدو فبلغ الامر المعتمد فكتب لاحمد بن طولون بولايتها وفوض اليهِ امر الثغور فوليها وولى فيها من يحفظ الثغور ويقيم الغزو وقارن ذلك وفاة اماجور عامل دمشق وصار ابن طولون من مصر الى دمشق ثم الى حمص ثم الى حماة ثم حلب فملكها جميعًا ثم سار الى انطاكية ودعا اميرها سيما الطويل الى الطاعة

فابي محاصرهُ وفتح البلد وقتل سيما وملك قنسرين والرقه ومضى الى طرسوس بنية الاقامة بها للجهاد فارتفعت الاسعار وغلا القوت فعاد الى الشام. وامر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر فلعن ببغداد وسائر العراق ولعن ابن طولون المعتمد ايضًا على جميع منابر مصر ونحوها وكل ذلك كان ظاهرًا وضد ارادة المعتمد لان المعتمد كان يميل الى ابن طولون ويخاف الموفق حتى انهُ كان قد قصد اللحوق بابن طولون بمصر لينجدهُ على الموفق وسار عن بغداد في غياب اخيهِ الموفق في حرب الزنج فامسك عامل الموصل القواد الذين كانوا معهُ وارجعهُ الى بغداد. وملك ابن طولون الشام جميعها و(في سنة ٢٦٤) غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاوس في اربعة الاف فارس وقيل في اربعين الفًا من اهل الثغور الشامية فاثخن وغنم ورجع ولما رحل عن البدندون خرج عليهِ بطريق سلوقية وقره كوكب وجرسية واحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون واستلحمهم الروم بالقتل ونجا فلّهم الى الثغر واسر عبد الله بن كاوس وحمل الى القسطنطينية وخرج (سنة ٢٦٥) خمسة من بطارقة الروم الى اذنه فقتلوا واسروا والي الثغور اوخرد فعزل عنها واقام مرابطًا وبعث ملك الروم بعبد الله بن كاوس ومن معهُ من الاسرى الى احمد بن طولون واهدى اليهِ عدة مصاحف ولقي (سنة ٢٦٦) اسطول المسلمين اسطول الروم عند صقليه فظفر الروم بهم ولحق من سلم منهم بصقليه وفيها خرج الروم على ديار ربيعة واستنفر الناس وفروا ولم يطيقوا دخول الدرب لشدة البرد فيها وغزا عامل ابن طولون في ثلاثمائة من اهل طرسوس واعترضهم اربعة الاف من الروم من بلاد هرقل فنال المسلمون منهم اعظم النيل. وخرج (سنة ٢٦٨) ملك الروم وفيها غزا بالصائفة خلف الفرغاني عامل ابن طولون فاثخن ورجع وزحف الروم (سنة ٢٧٠) في مائة الف ونزلوا قلمية على ستة اميال من طرسوس فخرج اليهم بازيار فهزمهم وقتل منهم كثيرًا وجماعة من البطارقة ومقدمهم وغنم منهم سبعة صلبان من الذهب والفضة وكان اعظمها مكللاً بالجواهر وغنم خمسة عشر الف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك واربع كراسي من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علمًا من الديباج وآنية كثيرة

وفيها توفي احمد بن طولون وكانت امارتهُ نحو ست وعشرين سنة وكان حازمًا عاقلاً وهو الذي اقام قلعة يافا وبنى بين مصر والقاهرة الجامع المعروف باسمهِ وترك سبعة عشر ابنًا احدهم خمارويه وسبع عشرة بنتًا وترك اموالاً كثيرة ومماليك عديدة وكان كثير الصدقات وولي عوضهُ ابنهُ خمارويه وقام بتدبير الملك احسن قيام و(سنة ٢٧١) صار قتال بين خمارويه والمعتضد بن الموفق وانهزم ابن الموفق وكان ذلك بين دمشق والرملة

فصل

في الربع الرابع من القرن الثالث

وتوفي الموفق بالله في شهر صفر (سنة ٢٧٨) من داء الفيل وعلى يديهِ جرت اكثر الحروب مع الزنج وباقي الخوارج ولما مات اجتمع القواد وبايعوا ابنهُ ابا العباس بولاية العهد بعد المفوض ولقب المعتضد بالله

وفيها تحرك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطه وكان الذي دعاهم الى مذهبهِ رجل قد مرض بقرية من سواد الكوفة فاخذهُ رجل من اهل القرية اسمهُ (كرميته) ومعناه باللغة النبطية احمر العين ولما تعافي مريضهُ دعي باسمهِ ثم اختصر الى قرمط ثم دعا قرمط قومًا من السواد والبادية ممن لا يدينون بشيءٍ الى دينهِ فاجابوهُ اليهِ والمعروف من مذهبهم ومعلمهم انهُ جاء بكتاب فيهِ « باسم الله الرحمن الرحيم » يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانه انهُ داعية المسيح وهو عيسى والكلمة والمهدي واحمد بن محمد بن الحنفية وجبريل . وان المسيح تصور بجسم انسان وقال لهُ انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك الروح القدس وعرفهُ ان الصلوة اربع ركعات ثنتان قبل طلوع الشمس وثنتان قبل الغروب وان الاذان في كل صلاة ان يقول الموذن الله اكبر ثلاث مرار .. اشهد ان لا اله الا الله مرتين . اشهد ان ادم رسول الله اشهد ان نوحًا رسول الله واشهد ان ابرهيم رسول الله واشهد ان عيسى رسول الله واشهد ان محمدًا رسول الله واشهد ان احمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله كل ذلك مرة وان القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شي ويقرا في كل ركعة الاستفتاح المنزل على احمد بن محمد بن الحنفية وهو الحمد لله بكلمتهِ وتعالى باسمهِ المنجد لاوليائهِ باوليائهِ قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام و باطنها لاوليائي الذين عرفوا من عبادي سبلي . واتقوني يا اولي الالباب انا الذي لا اسال عما افعل وانا العليم الحكيم انا الذي ابلو عبادي وامتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ادخلتهُ في جنتي واخلدتهُ في نعيمي ومن زال عن امري وكذب رسلي اخلدتهُ مهانًا في عذابي واتممت اجلي واظهرت امري على السنة رسلي انا الذي لم يعلُ جبار الا وضعتهُ ولا عزيز الا اذللتهُ وبئس الذي اصر على امرهِ ودام على جهالتهِ وقال لن نبرح عليهِ عاكفين وبهِ موقنين اولئك هم الكافرون » ثم يركع ومن شرائعهِ ان يصام يومان في السنة المهرجان والنيروز وحرم النبيذ وحلل الخمر ومنع اكل ذي ناب وذي مخلب وقال لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلوة وقيل غير ذلك وسنذكره فيما بعد

و(سنة ٢٧٩) خلع المعتمد ولدهُ جعفر المفوض لامر الله من ولاية العهد وجعل المعتضد بن الموفق ولي عهده وتوفي المعتمد لاحد عشر بقي من رجب ببغداد وكان الامر في كل شيء لاخيهِ الموفق وكان الموفق يضيق عليهِ حتى في مصروفهِ فلم يكن يملك شيئًا وهو الذي قال

اليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل ممتنعًا عليهِ
وتوخذ باسمهِ الدنيا جميعًا وما من ذاك شيء في يديهِ

في خلافة ابي العباس احمد المعتضد وهو السادس عشر (من سنة ٢٧٩ ـ ٨٩٢ الى سنة ٢٨٩ ـ ٩٠١)

بويع ابو العباس احمد بن الموفق صبيحة مات المعتمد ولقب المعتضد بالله وبوقتهِ توفي نصر بن احمد الساماني وقام اخوهُ اسمعيل بما كان اليهِ ما وراء النهر . وقدم ابن الجصاص بهدايا عظيمة للمعتضد من خمارويه بسبب تزوج المعتضد ابنتهُ و(سنة ٢٨١ ـ ٨٩٤) خرج المعتضد الى الموصل قاصدًا الاعراب والاكراد واوقع بهم وغرق منهم كثير في الراب واخذ القلعة وهدمها ونقل ما فيها الى بغداد وكانت لابن حمدان ثم ظفر بابن حمدان بعد رجوعهِ الى بغداد وفيها دخل طغج بن جف عامل دمشق من طرسوس الى بلاد الروم من قبل خمارويه ونهب وسبا و(سنة ٢٨٢ ـ ٨٩٥) قتل خمارويه على فراشهِ قتلهُ جماعة من الخدم وبويع ولدهُ جيش ثم خلع طغج بن جف جيش بن خمارويه لانهُ كان صبيًا واختلف جندهُ عليهِ لذلك ولتقريبهِ الاراذل وثاروا بهِ وقتلوهُ ونهبوا دارهُ ونهبوا مصر واحرقوها واجلسوا اخاه هرون والتزم ان يحمل من مصر الى المعتضد كل سنة الف الف دينار وخمسماية الف دينار وكانت ولاية جيش تسعة اشهر و(سنة ٢٨٣ ـ ٨٩٦) سارت الصقالبة الى الروم وحاصروا بزنطية وقتلوا من اهلها خلقًا كثيرًا وخربوا البلاد ولما لم يجد ملك الروم منهم خلاصًا جمع من عندهُ من اسرى المسلمين وسلحهم وسالهم معونتهُ على الصقالبة ففعلوا وهزموهم واراحوا القسطنطينية واذ راى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسهِ فاخذ سلاحهم وفرقهم في البلاد وفيها كان الفدا بين المسلمين والروم وكان جملة من فودي من المسلمين رجالاً ونساء وصبيانًا الفين وخمسمائة واربعة انفس

و(سنة ٢٨٤) قال المنجمون بغرق اكثر الاقاليم الا اقليم بابل فانهُ يسلم منهُ اليسير وان ذلك يكون عن غزارة الامطار وزيادة المياه والانهار والعيون واتفق انهُ صار العكس وغارت المياه حتى استسقى الناس ببغداد مرارًا وكان من ذلك قحط عظيم

و(سنة ٢٨٥) اختل حال هارون بن خمارويه بمصر واختلف القواد عليهِ وانحل نظام ملكهِ وكان على دمشق من جهتهِ طغج بن جف وفيها بنى المعتضد سورًا على البصرة من تعدي ابي سعيد

القرمطي وصرف عليه اربعة عشر الف دينار وقوي امر القرمطي وهو ابو سعيد الجنابي (سنة ٢٨٦) بالبحرين وعظم جمعه وقتل جماعة وسبى بالقطيف والقرى . و (سنة ٢٨٧) استولى اسمعيل بن احمد الساماني صاحب ما وراء النهر على خراسان بعد قتال واسر اميرها عمرو بن ليث الصفار وارسله الى المعتضد فحبسه ثم قتل (سنة ٢٨٩) قالوا انه عندما أُخذ عمرو وأُرسل الى الخليفة قال له اخبرني هل تزعمون ان روح الله يحل في اجسادكم فقال له الرجل يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك فلا تسال عما لا يعنيك وسل عما خصك فقال ماذا تقول فيما خصني . قال ان النبي مات وابوكم حي فهل طلب الخلافة او بايعه احد من الصحابة على ذلك ثم مات ابو بكر واستخلف عمر وكان يرى موضع العباس ولم يوصِ اليه ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة انفس ولم يوصِ الى العباس ولا ادخله فيهم فبماذا تستحقون الخلافة وقد اتفق الصحابة على اخراج جدك منها . فامر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداهُ ثم رجلاهُ ثم قتل

وفيها اوفي التي قبلها سار محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان الى خراسان لما بلغه اسر الصفار ليستولي عليها فجرى بينه وبين اسمعيل الساماني قتال شديد انهزم فيه عسكر العلوي وجرح وأُسر ولدهُ زيد واتى به الى اسمعيل فاكرمه ووسع عليهِ . وكان محمد بن زيد اديبًا فاضلاً شاعرًا حسن السيرة ثم خلفه الناصر للحق الحسن بن علي المعروف بالاطروش (وسنة ٢٨٩) كان حرب بين القرامطة وطغج بن جف امير دمشق

ومن الحوادث التاريخية في عهد المعتضد مقتل رافع بن الليث فانه كان وضع يده على قرى السلطان بالري وكتب اليهِ المعتضد برفع يدهِ فلم يفعل فكاتب الخليفة احمد بن عبد العزيز بن ابي دلف فحاربه واخرجه عن الري فسار رافع الى جرجان ودخل نيسابور (سنة ٢٨٣) فوقع بينه وبين عمرو بن الليث حرب وانهزم رافع وخلص عمرو ابني اخيهِ وهما المعدل والليث ابنا علي بن الليث من يد رافع ثم سار رافع الى هراة ورصدهُ عمرو بسرخس فشعر رافع به فرجع الى نيسابور في مسالك صعبة وطرق ضيقة واتبعه عمرو وحاصرهُ في نيسابور ثم تلاقيا وترك رافع بعض قوادهِ الى عمرو فانهزم رافع وارسل اخاهُ محمد بن هرثمة الى محمد بن زيد يستمده فلم يفعل وقد تركه اكثر اصحابه فلحق رافع بخوارزم في فل من العسكر ومعه بقية اموالهِ فغدر به ابو سعيد الدرغاني وقتله وحمل راسه الى عمرو بن الليث (سنة ٢٨٣)

ومنها انه خرج (سنة ٢٨٠) محمد بن عبادة ويعرف بابي جوزة من بني زهير من البقعاء وكان فقيرًا ويظهر الزهد فجمع الجموع وحكم واستجمع اليهِ الاعراب من تلك النواحي وقبض الزكوات والاعشار وبنى عند سنجار حصنًا وانزل به ابنه ابا هلال في مئة وخمسين رجلاً . فجمع هرون الشاري

الذي كان تغلب بعد مساور على خوارج الموصل من الشراة وبدا بحصار الحصن واحاط به . وكان محمد بن عبادة المذكور غائبًا وفتح الحصن وقيد ابا هلال ونثرًا معهُ . ثم ساروا الى محمد فالقيهم وهزمهم اولاثم تشددوا وهجموا عليهِ فهزموهُ وقتلوا من اصحابهِ الفًا واربع مئة فلحق محمد بآمد فحاربهُ صاحبها احمد بن عيسى بن الشيخ فظفر بهِ وبعثهُ الى المعتضد فسلخهُ حيًا « والشراة جمع شار اي الخوارج وسموا كذلك لانهم يقولون انهم شروا انفسهم لله بالجنة او باعوها لاجل الجنة »

ومنها ايقاع المعتضد ببني شيبان واخذه ماردين وذلك انهُ بلغ المعتضد ان احمد بن حمدون كان ممالئًا لهرون الشاري وداخلاً في دعوتهِ . فسار المعتضد اليهِ (سنة ٢٨١) واجتمع الاعراب من بني ثعلب وغيرهم للقائهِ فقتل منهم وغرق في الزاب كثيرًا وسار الى الموصل ثم بلغهُ ان احمد هرب عن ماردين وخلف بها ابنهُ فسار المعتضد اليهِ وقاتلهُ يومًا ثم صعد من الغد الى باب القلعة وصاح بابن حمدان واستفتح الباب ففتح لهُ دهشًا فامر بنقل ما في القلعة وهدمها وبعث في طلب حمدان واخذ امواله

ومنها عقد المعتضد (سنة ٢٨١) لابنهِ علي "وهو المكتفي على الري وقزوين وزنجان وابهر وقم وهمذان والدينور

ومنها هزيمة هرون الشاري ومهلكه وذلك عند ما كثر عبث الخوارج واخذوا يقاومون عمال الخليفة في كل جهة تجرد لهرون الشاري حسين بن حمدون (سنة ٢٨٣) على انهُ ان جاء بهِ اطلق لهُ المعتضد ابنهُ حمدان وبعد مداورات كثيرة قبض عليهِ واتى بهِ الى المعتضد اخر ربيع اول . فخلع على الحسين واخوته وطوقه وادخل هرون على الفيل وهو ينادي لا حكم الا لله ولو كره المشركون وكان هرون صغديًا وامر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدون والاحسان اليهِ واطلاقهِ

والمعتضد كان دائمًا في حركة وركوب على عمال النواحي ليودب ثوراتهم وعصاتهم ولمصادرة من كان منهم قد اثرى بمال المملكة . مثل عمر بن عبد العزيز بن ابي دلف وبكر اخيهِ واحمد بن عيسى بن الشيخ ونحوهم واخذ آمد من ابن الشيخ وسار الى الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من يد عمال هرون بن خمارويه لانهُ كان كتب اليهِ ان يقاطعهُ على الشام ومصر ويسلم اليهِ اعمال قنسرين وانهُ يحمل اليهِ اربع مئة وخمسين الف دينار فتوجه واستلم البلاد وعقد لابنهِ علي ولقبهُ بالمكتفي واقامهُ على الجزيرة وقنسرين والعواصم (سنة ٢٨٦) واستكتب لهُ الحسن بن عمر النصراني

واستقدم راغبًا مولى الموفق من طرسوس وحبسهُ وغلامهُ واستصفى اموالها ومات راغب لايام في حبسهِ وكان قد استبد بطرسوس

الصوائف

وكان (سنة ٢٨٥) قد غزا راغب المذكور بالصائفة من طرسوس بحرًا فغنم مراكب الروم وقتل نحو ثلثة الاف واحرقها . وخرج الروم (سنة ٢٨٧) ونازلوا طرسوس فقاتلهم اميرها واتبعهم الى نهر الرجال فاسروهُ . و بعث الحسن بن علي كوره صاحب الثغور بالصائفة فغزا وفتح حصونًا وعاد بالاسرى فخرج الروم في اثره برًّا و بحرًا الى كيسوم من نواحي حلب فاسروا نحو خمسة عشر الفًا

(سنة ٢٨٨)

وفيها توفي المعتضد لثماني بقين من ربيع الاخر ودفن ليلاً في دار محمد بن طاهر وكان مولده سنة ٢٤٢ وخلافتهُ تحت العشر سنين وترك بنين عليًا وجعفرًا وهرون واحدى عشرة بنتًا وكان شهمًا مهيبًا عند اصحابهِ يتقون سطوتهُ ويكفون عن المظالم خوفًا من باسهِ الا انهُ كان شحيحًا ولهُ شعرٌ منهُ ما قال عند موتهِ

ولا تامنن الدهر اني امنتهُ فلم يبقِ لي خلاً ولم يرعَ لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم ادع عدوًّا ولم امهل على طغيهِ خلقا
واخليت دار الملك من كل نازعٍ فشردتهم غربًا ومزقتهم شرقا
ولما بلغت النجم عزًّا ورفعة وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى سهمًا فاخمد جمرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً القى

وفي ايام المعتضد علت منزلة بنو موسى بن شاكر وهم ثلثة محمد واحمد والحسن وكان موسى صاحب المامون ولم يكن من اهل العلم بل كان في حداثتهِ حراميًا يقطع الطرق ثم تاب ومات وخلف الاولاد الثلثة المذكورين صغارًا فوصى بهم المامون اسحق بن ابرهيم المصعبي واثبتهم مع يحيي بن ابي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة على ان ارزاق اصحاب المامون كلهم كانت قليلة فخرج بنو موسى نهاية في علومهم وكان اكبرهم واجلهم ابو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد الى ان غلب الاتراك على الدولة وكان احمد دونهُ في العلم الا صناعة الحيل فانهُ فتح لهُ فيها ما لم يفتح مثله لاحد وكان الحسن وهو الثالث منفردًا بالهندسة ولهُ طبع عجيب فيها لا يدانيه احد فانهُ علم كل ما علم بطبعهِ ولم يقرا من كتب الهندسة الا ست مقالات من كتاب اوقليدس في الاصول فقط وهي اقل من نصف الكتاب ولكن ذكرهُ كان عجيبًا وتخيلهُ قويًا وحكي ان المروزي قال عنهُ يومًا للمامون انهُ لم يقرا من كتاب اوقليدس الا ست مقالات مريدًا بذلك تحقيرهُ . فقال الحسن يا امير المومنين لم يكن يسالني عن شكل من اشكال المقالات التي لم اقراها الا استخرجتهُ بفكري واتيتهُ بهِ ولم يكن يضرني انني لم اقراها ولا تنفعهُ قراءتهُ لما اذ كان

من الضعف فيها بحيث لم تغنو قرائه في اصغر مسئلة من الهندسة فانه لا يحسن ان يستخرجها فقال له المامون ما ادفع قولك ولكن ما اعذرك ومحلك من الهندسة محل ان يبلغ بك الكسل أن لا تقرا كلمة وهو للهندسة كحرف ا ب ت ث للكلام والكتابة

وفي دار محمد بن موسى تعلم ثابت بن قره بن مروان الصابي الحراني نزيل بغداد فوجبت على محمد حقه فوصله بالمعتضد وادخاله في جملة المنجمين . وبلغ ثابت هذا مع المعتضد اجل المراتب واعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلا ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وله مصنفات كثيرة في التعليمات الرياضية والطب والمنطق وله تصانيف بالسريانية فيما يتعلق بمذهب الصابئه في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم وفي الطهارة والنجاسة وما يصلح من الحيوان للضحاية وما لا يصلح وفي اوقات العبادات وترتيب القراءة في الصلوة والمترجح من مذهب الصابئة ان دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها وقبلتهم القطب الشمالي ولزموا فضائل النفس الاربع والمفترض عليهم ثلث صلوات اولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة او اقل لتنقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلث سجدات . والثانية انقضاؤها مع نصف النهار والزوال خمس ركعات في كل ركعة ثلث سجدات . والثالثة كالثانية تنتقض مع الغروب . والصيام المفروض عليهم ثلثون يومًا اولها الثامن من اجتماع اذار . وتسعة ايام اولها التاسع من اجتماع كانون الاول . وسبعة ايام اولها ثامن شباط ويدعون الكواكب وقرابينهم عديدة لا ياكلون منها بل يحرقونها ولا ياكلون الباقلي والثوم وبعضهم اللوبيا والقنبيط والكرنب والعدس . واقوالهم قريبة من اقوال الحكماء ومقالاتهم في التوحيد على غاية الاتقان ويزعمون ان نفس الفاسق تعذب تسعة الاف دور ثم تصير الى رحمة الله تعالى وكان في دولة المعتضد احمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي احد فلاسفة الاسلام وله تآليف جليلة في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب وكان حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف وكان اولاً معلمًا للمعتضد ثم نادمه وخصه وكان يفضي اليه باسراره كلها ويستشيره في امور مملكته وكان الغالب على احمد هذا علمه لا عقله واتفق ان افضى اليه المعتضد بسر فاذاعه فامر بقتله

في خلافة المكتفي وهو السابع عشر (من سنة ٢٨٩ - ٩٠١ الى سنة ٢٩٥ - ٩٠٧)

وبعد المعتضد اخذت البيعة لولده محمد وكان وقتئذٍ بالرقة فسار الى بغداد ولقب المكتفي بالله وتوفي وقتئذٍ ابرهيم بن احمد الاغلبي صاحب افريقية وخلفه ولده عبد الله الذي قتل (سنة ٢٩٠) وظهر رجل في الشام من القرامطة وجمع جموعًا من الاعراب وبها طغج بن جف من طرف هرون بن

خمارويه بن احمد بن طولون وصارت بينهم معارك وقتل مقدم القرامطة المعروف بالشيخ يحيى وخلفه اخوه الحسين وسمي احمد . وكانت آيته انه اظهر شامة في وجهه وكثر جمعه وصالحه اهل دمشق على مال فانصرف الى حمص وملكها وخطب له على منابرها باسم المهدي اميرالمومنين . وعهد الى ابن عمه عبد الله ولقبه بالمدثر اشارة الى المدثر المذكور في القرآن . ثم ذهب الى حماة والمعرة وغيرها فقتل اهلها حتى النساء والاطفال . ثم قام الى سلمية فاخذها بالامان ثم ذبح اهلها حتى اولاد المكتب

ولما اشتد امر صاحب الشامة المذكور نهض المكتفي من بغداد ودخل الرقة وارسل اليه الجيوش وتلاقت عساكرها على اثنى عشر ميلاً من حماة (سنة ٢٩١ - ٩٠٣) فهرب صاحب الشامة ومعه ابن عمه المدثر وغلام له رومي فقبض عليهم في البرية واخذوهم الى الخليفة فسار بهم الى بغداد وقتلوا هناك وطوّف براس صاحب الشامة ويقال ان موضع الموقعة كان قرية (يمنع) من المعرة على طريق حماة الى حلب

وفي السنة هذه خرج الترك في عدد لايحصى الى ما وراء النهر وكان فيهم سبعمائة خركاه أي سرادق امير فالتقى بهم عساكر المسلمين وظفروا بهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وهزموا الباقين وخرج الروم كذلك الى الثغور بعشر رايات صليب عبارة عن مئة الف فاغاروا واحرقوا وسبوا

وفي سنة ٢٩٢ - ٩٠٤) ركب المكتفي على هرون بن خمارويه برًا وبحرًا وحاصرهُ بمصر وانتهت الحرب بقتل هرون وانقضى امر بني طولون ودولتهم واستولى محمد بن سليمان على مصر وقبض على بني طولون وكانوا بضع عشر رجلاً واصطفي مالهم وارسلوا مقيدين الى بغداد قال بن خلدون «ولي خاقان المفلحي على الري ثم اسمعيل بن احمد بن سامان وعيسى النوشري على مصر بعد انتزاعها من بني طولون وابو العشائر احمد بن نصر على طرسوس (سنة ٢٩٠) ثم عزل ابو العشائر وولى رستم بن بردو (سنة ٢٩٢) وانتزع الليث بن علي بن الليث بلاد فارس من يد طاهر بن محمد (سنة ٢٩٣) وولي ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان فيها على الموصل وتغلب داعية القرامطة على صنعاء وكثير من مدن اليمن »

وفي السنة التي بعدها غزا الروم قورس (او هي موارس) من اعمال حلب ودخلوها واحرقوا جامعها وساقوا من بقي من اهلها . وفيها خرج الخلنجي في مصر وقوي وسار اليه احمد بن كيغلغ عامل دمشق فطمعت القرامطة وقصدوا دمشق في غيابه فنهبوها ونهبوا طبرية وساروا الى جهة الكوفة فارسل اليهم المكتفي وصيف بن صوارتكين التركي والفضل بن موسى بن بغا و بشر الخادم الافشيني ورائق الجزري وكانت الهزيمة لعساكر الخليفة وغنم القرامطة منهم شيئًا كثيرًا .

وفيها عقد المكتفي على الموصل واعمالها لابي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون العدوي

الشعاني فقدمها اول المحرم وجاء الصريخ من نينوى بان الاكراد الهدبانية ومقدمهم محمد بن سلال قد اغاروا على البلاد وعاثوا فخرج ابو الهيجاء بالعساكر ولقيهم على الخارد الى شرقي الجسر فلم يقدر عليهم واستنجد بالخليفة فابطأ عليه المدد الى ربيع (سنة ٢٩٤) ولما جاءهُ ذهب اليهم وهم مجتمعون في خمسة الاف بيت فذهبوا امامهُ واعتصموا بجبل السلق المشرف على الزاب فحاصرهم حتى عرفوهُ . وخذلهُ اميرهم محمد بن سلال بالمراسلة في الطاعة والرهن وحث اصحابه خلال ذلك في المسير الى اذربيجان فاتبعهم ابو الهيجاء ولحقهم صاعدين الى جبل القنديل فنال منهم وامتنعوا بذروته فرجع ابو الهيجاء عنهم ولحقوا باذربيجان ثم انجدهُ المكتفي ورجع يحارب الاكراد في جبل السلق ودخله بفتنةٍ وقهرهم واستامنوا اليهِ واستامن كذلك احمد بن سلال واستقام امرهُ (ثم انتقض سنة ٣٠١ فبعث اليهِ المقتدر وتلميذهِ مونسًا الخادم فجاء اليهِ بنفسهِ مستامنًا ورجع بهِ الى بغداد فقبلهُ المقتدر واكرمهُ وبقي ببغداد الى ان انتقض اخوهُ الحسين بديار ربيعة (سنة ٣٠٥) فسارت العساكر بطلبهِ واتي بهِ اسيرًا وحبس المقتدر عند ذلك ابا الهيجاء واولاده وجميع اخوتهِ بداره ثم اطلقهم سنة ٣٠٥)

الصوائف

ثم غزا بالصائفة غلام زرافة من طرسوس ففتح مدينة انطاكية عنوة وقتل خمسة الاف مقاتل واسر مثلها واستنقذ من اسرى المسلمين نحو ذلك وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها وقسم الغنائم فكان سهم الواحد الف دينار واغار الروم (سنة ٢٩٣) على مرعش ونواحيها فخرج اهل المصيصة واهل طرسوس فاصيب منهم جماعة وكان سببًا لعزل ابي العشائر عن الثغور وتولية رستم بن بردو فكان على يديهِ الفدى وفودي الف من المسلمين وغزا (سنة ٢٩٤) ابن كيغلغ من طرسوس فاصاب اربعة الاف من الروم سبيًا واستامن بطريق منهم واسلم ثم عاد ابن كيغلغ الغزو وبلغ اسكند ودوخ واخذ نحو خمسين الف راس وقتل خلقًا واستامن البطريق المتولي الثغور الى المكتفي وخرج بمائتين من اسرى المسلمين وكان ملك الروم قد شعر بامره فارسل عليهِ من يقبضهُ فدافع عنهُ اسرى المسلمين واجتمع الروم على البطريق المذكور وتحاشد المسلمون لخلاصهِ فبلغوا قونية وخربوها وانصرف الروم ومر المسلمون بحصن البطريق ورحل معهم باهلهِ الى بغداد وافتتح اسمعيل الساماني (سنة ٢٩٣) مدائن كثيرة من بلاد الترك . . .

وفيها توفي بن الراوندي المتكلم واسمهُ احمد بن يحيي بن اسحق وهو صاحب مولفات عديدة في نقض شريعة المسلمين منها قضيب الذهب واللامع والفرند والزمردة وطعن في القرآن كقولهِ في كتاب الزمردة انا نجد في كلام اكثم بن صيفي ما هو احسن من قولهِ انا اعطيناك الكوثر وقرف الانبياء

عليهم سلام الله بطلسمات جذبوا بها الخلق كما يجذب المغناطيس الحديد وله غير ذلك من الاعتراضات على الاديان كلها ما لا محل لها هنا و(في سنة ٢٩٤) اخذت القرامطة الحجاج من طريق العراق وقتلوهم عن اخرهم نحو عشرين الفًا وغنموا منهم اموالاً جزيلة وكان كبير القرامطة ذكرويه فارسل المكتفي اليهم عسكرًا وقتلهم وهزمهم واسر ذكرويه وجرح ومات بعد ستة ايام و(سنة ٢٩٥) توفي اسمعيل بن احمد بن اسد الساماني صاحب ما وراء النهر وخراسان وولي بعدهُ ولدهُ احمد ابو نصر وارسل اليهِ المكتفي التقليد

وتوفي المكتفي في ١٢ ذي القعدة (سنة ٢٩٥ـ٩٠٧) وهو ابو احمد علي بن المعتضد بالله احمد بن الموفق طلحة بن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد بن هرون الرشيد وكانت خلافتهُ نحو ست سنين ونصف وعمرهُ ثلاثًا وثلاثين سنة وكان ربعة جميلاً رقيق السمرة حسن الوجه والشعر وافر اللحية امهُ ام ولد تركية تدعى جُجُك بعد مرض طال ودفن في دار محمد بن طاهر . . .

في خلافة المقتدر بالله وهو الثامن عشر (من سنة ٢٩٥ ـ ٩٠٧ الى سنة ٣٢٠ ـ ٩٣٢)

ولما توفي المكتفي بويع جعفر ابن المعتضد ولقب بالمقتدر بالله وكان العباس ابن الحسن وزير المكتفي يستصغرهُ فعزم على خلعهِ فاجتمع الوزير والقواد (سنة ٢٩٦ ـ ٩٠٨) على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز ثم عدل الوزير لنفعهِ وبدا له خلاف ذلك فوثب بهِ الحسين ابن حمدان وقتلهُ وخلع المقتدر. وبايع الناس ابن المعتز ولقب المرتضي بالله وطلب المرتضي من المقتدر الانتقال الى دارهِ لينتقل هو الى دار الخلافة فاجابهُ طالبًا مهلة الى الليل فجاء الوقت ولم يفعل فتوجه ابن حمدان صباحًا الى دار الخلافة فقاتلهُ الغلمان والرجالة من وراء الستور طول النهار فانصرف عنهم وصار باهلهِ ليلاً عن بغداد الى الموصل ولا يعلم لماذا فعل ذلك . ولم يكن من القواد مع المقتدر غير مونس الخادم ومونس الخازن ثم ركب المرتضي وصحبته الوزير محمد بن داود وغلام لهُ الى نحو الصحراء طمعًا في ان يتبعهم الجنود الذين بايعوا المرتضي فلم يتبعهم احد فرجعوا واختفوا ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وتقوى رعاع الشعب فخرج المقتدر بالعسكر وقبض على جماعة وقتلهم وكتب الى ابي الهيجاء ابن حمدان يامرهُ بارسال اخيهِ الحسين فانهزم الحسين وارسل ابرهيم اخوهُ يطلب الامان فقبلهُ المقتدر واجابهُ الى طلبهِ واقطعهُ قم وقاشان فسار اليهما ثم قبض على ابن المعتز واسمهُ عبد الله وقتل خنقًا واشاعوا انهُ مات حتف انفهِ وكان فاضلاً شاعرًا ولهُ اشعار مشهورة واخذ العلم عن المبرد وثعلب وتولى الخلافة يومًا ومن كلامهِ لما تولى قد آن للحق ان يتضح وللباطل ان يفتضح ولهُ حكم جيلة منها قولهُ يشفيك من الحاسد انهُ يغتم وقت سرورك

وكان منعكفًا على طلب العلم والشعر ولم يترشح للخلافة وقد حمله على قبولها اصحابه الذين خذلوهُ بعد بيعتهِ وقد رثاهُ محمدبن بسام بشعر منه قوله

ما فيهِ لولا ولا ليت فتنقصهُ وانما ادركتهُ حرفة الادبِ

و(في سنة ٢٩٦) انتهى ملك الاغلبية في افريقية في زمان ابي نصرزيادة الله بن عبدالله بن ابرهيم بن احمد بن محمد بن اغلب. وكان اول من تولى منهم على افريقية ابرهيم بن احمد ولاه الرشيد (سنة ١٩٤) وكان المتغلب عليهم ابو عبدالله الحسين بن احمد بن محمد بن زكريا الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب وكان زيادة المذكور رجلاً سكريًا سفاكًا للدما وقد قتل كل من قدر عليهِ من اعمامهِ واخوتهِ فأُرسل عليهِ من اجلاه عن مملكتهِ ومات غريبًا مقهورًا بعد امراض متطاولة وسقط شعر لحيتهِ وكان ذلك بالرملة قرب القدس وبعد موتهِ لم يبق من الاغلبية احد

وفيها ابتدات دولة الخلفاء العلويين في افريقية ودامت بمصر الى (سنة ٥٦٧-١١٨١) كما سياتي واولهم كان ابا محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسمعيل بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وقيل بغير ذلك ومنهم من جعل نسبهم مدخولاً به ومنهم من نسبهم الى اليهود فقالوا لم يكن اسم المهدي عبدالله بل كان اسمهُ سعيد بن احمد بن عبدالله القداح بن ميمون ابن ديصان وقيل سعيد بن الحسين وان الحسين تزوج بامراة رجل يهودي ولها ابن فاحبهُ الحسين وادبهُ ومات الحسين ولم يكن له ولد فعهد الى ابن اليهودي الحداد وهو المهدي عبيد الله وعرّفهُ اسرار الدعوة واعطاه الاموال والعلامات واختلف المورخون في كل ذلك فلا حاجة لذكرهِ هنا. وكان امر اتصال الشيعي بالمهدية المذكورين هو ان الدعاة بالمغرب كانوا يدعون لمحمد والد المهدي وكان بسليمة ثم توفي فعهد الى ابنهِ المذكور وكان في عهد المكتفي بالله فهرب المهدي وولده محمد نحو المغرب وجاز مصر ووصلا الى طرابلس وكان المكتفي قد وقّع لعيسى النوشري في مصر ولزيادة الله ابن الاغلب في افريقية وهذان كتبا الى كل العمال ضدهما ثم قبض عليهما اليسع ابن مدرار عامل سجلماسة والقاهما في السجن. وكان قبل ذلك عبدالله المهدي المقول انهُ القداح قام من نواحي كرج واصفهان الى الاهواز والبصرة. وسلمية من ارض حمص يدعو الناس اليهِ. ثم توفي وقام ابنهُ احمد او محمد مقامهُ وصحبهُ انسان يقال له رستم ابن الحوشب من اهل الكوفة فارسلهُ احمد الى الشيعة باليمن ليدعو الناس الى المهدي فذهب رستم وسمع بهِ ابو عبيد الله الشيعي من صنعاء فتوجه الى رستم وصار من حزبهِ وكان رستم ارسل الدعاة الى المغرب وقد اجابهُ اهل كتامة فارسل ابن حوشب الشيعي اليهم وجهزهُ بالاموال فذهب الى مكة واجتمع بحجاج المغاربة من كتامة وتوجه معهم الى المغرب (سنة ٢٨٠) فاتاه البربر من كل جانب وعظم امره

وكانوا يدعونهُ ابا عبد الله المشرقي . وكان الاغالبيون يستصغرون امرهُ ولم ينتبهوا اليهِ فذهب الى تاهرت فاحتفلوا بهِ وقدمت اليهِ القبائل من كل جانب الى ان تولى ابو نصر زيادة الله اخر بني الاغلب فقتل عمه ابرهيم الاحول واخذ النزاع والقتال بينهُ وبين الشيعي المذكور . ثم تقدم امر الشيعي واستولى على افريقية وهرب زياده وركب الشيعي من رقادة (سنة ٢٩٦) الى سجلماسه مستخلفًا اخاه ابا العباس فخرج اليسع صاحبها ليقاتلهُ فلم يقدر عليهِ وهرب فدخل الشيعي المدينة واخرج المهدي وولده من السجن واركبهما ومشى هو ورؤوس القبائل بين ايديهما ثم سار المهدي الى رقادة (سنة ٢٩٧) فدون الدواوين وجبى الاموال وبعث العمال الى سائر البلاد واستعمل على الجزيرة صقلية ابن حنتر بروانتهى ملك الاغالبة وبني مدرار وبني رستم من تاهرت بعد ان حكم المدرارية مئة وثلاثين سنة والرستمية مئة وستين سنة

و(في سنة ٢٩٨) قتل المهدي ولي نعمتهِ ابا عبد الله الشيعي واخاهُ ابا العباس ليهنا لهُ العيش بعدهما كما هو داب اصحاب القوة لانهم لا يذكرون النعم الأ عند الحصول عليها فاذا تم مرامهم اهلكوا من سعى لهم بها خوفًا من العواقب كما انهُ بدخول (سنة ٢٩٩) قبض المقتدر على وزيرهِ ابي الحسن بن الفرات ونهب دارهُ وهتك حرمهُ وولى الوزارة ابا علي محمد بن يحيى الخاقاني وكان رجلاً هوائيًا يعزل ويولي الواحد مرارًا في اليوم فانهُ ولى ماء الكوفة في عشرين يومًا سبعة من العمال وقد قيل فيهِ

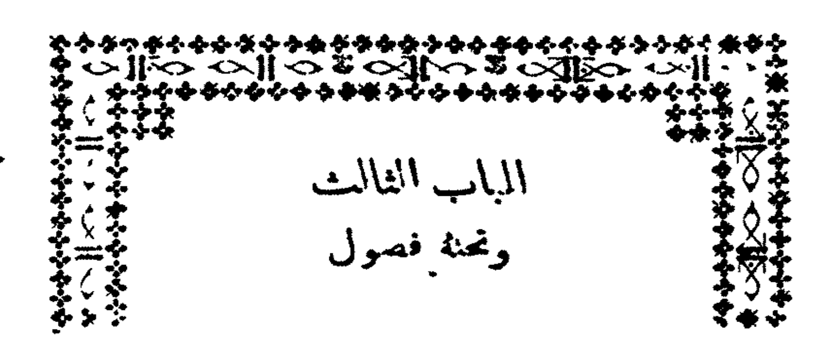
وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
اذا اهل الرشا اجتمعوا عليهِ فخير القوم اوفرهم بضاعة

ثم انتقضت صقلية على المهدي العلوي وارادوا قتل واليهم احمد بن موهب فدعا الى طاعة المقتدر العباسي وخطب لهُ بصقلية وقطع خطبة المهدي وبعث اسطولاً الى ساحل افريقية فلقوا اسطول المهدي وعليهِ الحسن بن ابي خنزير فاحرقوه وقتلوا الحسن ووصلت خلع السواد ورايات لابن موهب من بغداد ثم فسد امره وانتهى بالقبض عليهِ وقتلهِ ورجوع صقلية لطاعة المهدي (سنة ٣٠٠)

وكان المقتدر يتصرف على مقتضى اشارة النساء والخدام فخربت الممالك وطمعت العمال في الاطراف

وختم الجيل الثالث من الهجرة بعزل الخاقاني وتولية علي بن عيسى الوزارة وفيهِ عيد المسلمين حسب العادة وعملوا احتفالات نهاية القرن الا ان افراحهم كانت ممزوجة باتراح كثيرة لما حل بالمملكة من الحروب والانقسامات والفتن في تلك المدة الاخيرة اي في النصف الاخير من ذلك القرن

واذ قد بلغنا الان في سياق هذه الاخبار الى زمان مملوءٍ من الامور المهمة وقد شاهدنا سرعة نمو القوة الاسلامية وافتتاح احسن الاماكن المعمورة ثم حصول الاختلافات والانشقاقات والفتن في ما بين الخلفاء والاحزاب وقد اخذت السلطة العربية البغدادية بالانحطاط وتكاثرت المواد المهمة الواجب على المورخ ذكرها والملاحظة عليها لا سيما على من كانت غايته تاريخ المسالة التي نحن في صددها اذ المراد من ذكر كل هذه الحوادث من التواريخ القديمة ليس هو ابراز تاريخ فيها لانه وجد كثيرون تقدمونا باكثر استحقاق في ذلك بل المراد اخذ ملخص صادق يوصلنا الى المرغوب ولهذا وجدنا من الضروري ان نترك قليلاً الدولة العباسية ونذكر شيئاً عن بني امية في اسبانيا ثم نعود الى العباسيين وننهي الجزء الاول في اخذ خلاصة عامة وقد جعلنا لذلك كله باباً خاصاً لاشتماله على مواد كثيرة والله ولي التوفيق



الباب الثالث
وفيه فصول

فصل

في امراء الاندلس الامويين
من عبد الرحمن الداخل الى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٠

سبق كيف ان عبد الرحمن الداخل بن معاوية الاموي خلص من ايدي العباسيين و بقي متغلغلاً الى ان دخل الاندلس (سنة ١٣٨) واسس دولة منفصلة عن دولة بني العباس في المشرق ولكن ذلك كان على وجه مختصر في نبذات متقطعة وقد اردنا الان جعله خبرًا متصل الحلقات الى ان ناتي الى قيام عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٠٠) من الهجرة

قالوا ان عبد الرحمن المذكور اختفى ولحق اولاً بمغيلة وقيل بمكناسة وقيل بقوم من زناتة وكلهم من البربر ثم لحق بمليلة وارسل بدرًا مولاه الى جماعة من موالي المروانيين في الاندلس واشياعهم فبثوا دعوته ونشروا ذكره وصادف ذلك عندما كان اختلاف بين اليمنية والمصرية فاصطفت اليمنيه على امره وكان الامير يوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل من المصرية ثم رجع بدر بالخبر فاجتاز عبد الرحمن البحر (سنة ١٣٨ ـ ٧٥٥) في خلافة ابي جعفر المنصور ونزل بساحل المنكب واتاه قوم من اشبيلية فبايعوهُ ثم انتقل الى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم الى (شذونة) فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ثم الى (مورور) فبايعه ابن الصباح . ونهد الى قرطبة فاجتمعت اليه اليمنية ونما خبرهُ الى والي الاندلس يوسف المذكور وكان غازيًا في جليقية فرجع الى قرطبة واراد المكر به فلم يتم له ذلك وارتحل عبد الرحمن من المنكب الى مالقه فبايعه جندها . ثم الى رنده . ثم شريش . ثم اشبيلية فتوافت اليه جنود الامصار وتسايلت المصرية اليه ايضًا حتى لم يبقَ مع الفهري غير الفهرية والقيسية . فزحف عبد الرحمن حينئذٍ وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجا الى غرناطه وتحصن بها فتبعه عبد الرحمن ثم رغب يوسف الصلح فعقد له على

ان يسكن في قرطبة واقفله معهُ ثم نقض يوسف عهدهُ وخرج (سنة ١٤١ــ ٧٥٨) ولحق بطليطلة واجتمع اليهِ نحو عشرين الفًا من البربر فارسل عليهِ عبد الرحمن عبد الملك بن عمر المرواني وكان قد وفد عليهِ من المشرق وكان ابوهُ عمر بن مروان بن الحكم في كفالة اخيهِ عبد العزيز بن مروان بمصر فلما دخلت المسودة ارض مصر خرج عبد الملك يطلب الاندلس ونزل على عبد الرحمن (سنة ١٤٠ــ٧٥٧) وعقد لهُ على اشبلية ولابنهِ عمر على مورور . وسار اليهِ يوسف وتناجز الفريقان وكانت الدائرة على يوسف وابعد المفر فاغتالهُ بعض اصحابهِ بنواحي طليطلة واحتز راسهُ وقدمهُ الى عبد الرحمن وثبت قدم عبد الرحمن واستقل في احكام الاندلس واجدّ ببناء المسجد الجامع والقصر في قرطبة وانفق على الجامع ثمانين الف دينار وقيل انهُ دفع هذا المبلغ ثمن المكان والكنيسة التي كانت قبلاً هناك وانهُ انفق عليهِ ما عدا ذلك مئة الف دينار ومات قبل تمامهِ وبنى اماكن وقصورًا ومساجد اخرى واتاه جماعة من اهلهِ من المشرق قالوا وكان عبد الرحمن يدعو اولاً للمنصور ثم قطع دعوتهُ واستبد ومهد الدولة بالاندلس واثل بها الملك العظيم لبني مروان وجدد ما طمس لهم من معالم الخلافة وآثارها واستلحم الثوار المقاومين لسلطتهِ على كثرتهم وتوفي (سنة ١٧٢ــ٧٨٨) وكان ابو جعفر المنصور يسميهِ صقر قريش ولم يكن لهُ سوى لقب امير وعليهِ جرى بنوهُ من بعدهِ ولم يدعُ احد منهم بامير المومنين تادبًا مع الخلافة الكبرى في مقر الاسلام ومنتدى العرب حتى عبد الرحمن الناصر ثامنهم بالاندلس فتلقب بامير المومنين كما سياتي بمحلهِ وذلك من ضعف خلفاء بني العباس وغلبة الاعاجم عليهم وعدم تركهم لهم سوى الاسم . وتوارث اولاد الناصر لقب امير المومنين واحد بعد الآخر الى ما بعد المئة الرابعة من الهجرة

وعند ما اشتغل المسلمون بامر عبد الرحمن الداخل قوي امر الجلالقة وعمد فرويليه بن اذفونس ملكهم الى الثغور فاخرج المسلمين منها وتملك مدينة لك وبرتقال وسموره وقشتاله وشقوبيه وصارت للجلالقة حتى استردها المنصور بن ابي عامر اخر الدولة . ثم عادت للافرنج بعدهُ لما استعادوا البلاد كلها . وكاتب عبد الرحمن قارله (شارل) ملك الافرنج بعد ان تمرس بهِ مدة فوجده صلب المكر تام الرجولية فمال معهُ الى المداراة ودعاهُ الى المصاهرة والسلم فاجابهُ قارله الثاني لا الاول . وعبد الرحمن وجد الاندلس ثغرًا قاصيًا عاطلا عن حلية الملك فارهف اهلهُ بالطاعة السلطانية واخذهم بالاداب فاكسبهم المروة واقامهم على الطريقة ودون الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية واعطى الالوية وجند الاجناد واوثق الاوتاد حتى اعترف لهُ بذلك اكابر الملوك وحذروهُ ولم يلبث ان دانت لهُ بلاد الاندلس واستقل لهُ امرها فانقاد لهُ عصيها وذل لهُ ابيها واستولى على اريكته ملكًا قاهرًا لعدوهِ حاميًا لذمارهِ وكان من رجال ابي جعفر المنصور في الصلابة والاستيلاء والصرامة

والاجتراء وكانت ام كلٍّ منهما بربرية كما قال ابن حيان وكان عبد الرحمن يقعد للناس ويسمع منهم ويقضي بينهم ويتوصل اليهِ من اراد ذكر ابن خلدون ما مفادهُ ان العلا بن مغيث اليحصبي سار من افريقية الى الاندلس ونزل بباجة البلاد داعيًا لابي جعفر المنصور واجتمع اليهِ خلق فسار اليهِ عبد الرحمن وقاتله وهزمهُ ثم قتل ومعهُ سبعة الاف من اصحابهِ وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم الى القيروان ومكناسة فالقيت سرًّا في اسواقها ومعها اللواء الاسود وكتاب المنصور لابن العلا فارتاع المنصور لذلك وشكر الله الذي جعل بينهما البحر وكثرت ثورات العرب على عبد الرحمن ونافسوه الملك وكانت العاقبة لهُ فاستراب اخيرًا من العرب واراد اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي وغزا الفرنج والبشكنس ورجع ظافرًا وكان من نيتهِ ان يجدد دولة بني مروان الاموية في الاندلس فمات وخلافتهُ نحو ثلاث وثلاثين سنة ومن اعمالهِ الحسنة ادارة قرطبة بسور

وبعد عبد الرحمن بويع لولده هشام وهذا بعد اختلاف بينهُ وبين اخويهِ سليمان وعبد الله استقر لهُ الامر وانصرف اخواهُ الى بر العدو . قالوا ان هذا كان يعتقد بعلم الاحكام واقتضاء من النجوم فاستطلع الضبي المنجم الشهير بان ينظر لهُ وكان سكنه في الجزيرة الخضراء فجاء الى قرطبة عند ما نهض هشام فنظر ولكنهُ ابى ان يخبر هشام بذلك لانهُ راى في طالعهِ من الامور التي لا تسرهُ واعتذر بانهُ نظر ولكنهُ لم يتحقق الامر لجلالتهِ في نفسهِ فقال لهُ هشام قد اجلتك لذلك فتفرغ للنظر فيما بقي عليك فيهِ ثم احضرهُ بعد ايام وقال لهُ ان الذي سالتك عنهُ جدٌّ عندي مع اني لا يجب ان اثق بحقيقتهِ اذ كان من غيب الله غير اني احب ان اسمع ما عندك فيهِ فان النفس طُلَعة والزمهُ فقال الضبي اعلم ايها الامير انهُ سوف يستقر ملكك سعيدًا ظافرًا الا ان مدتك فيهِ تكون ثمانية اعوام او نحو ذلك فاطرق هشام ساعة ثم رفع راسهُ وقال ياضبي ما اخوفني ان يكون النذير كلمني بلسانك وخلع عليهِ وزهد في الدنيا وكان يذهب في سيرتهِ مذهب عمر بن عبد العزيز فكان يرسل اناسًا من ثقاتهِ الى الكور يستقصون عن سيرة العمال في الناس فاذا انتهى اليهِ حيف من قبلهم اوقع بهم واسقطهم وانصف منهم ولم يستعملهم بعد وفي ايامهِ فتحت اربونه الشهيرة واشترط على المعاهدين من جليقية انتقال عدد من احمال التراب من سور اربونه الى باب قصرهِ بقرطبه وبنى منهُ المسجد الذي قدام باب الجنان وفضلت منهُ فضلة بقيت مكومة . وتحارب مع المخالفين لهُ من اهل بيتهِ وانتصر على حركاتهم . وغزا وقصد البة والقلاع ولقي العدو وظفر بهِ وفتح الفتوحات (سنة ١٧٥ — ٧٩١) وبعث العساكر الى جليقية مع يوسف بن بخت فلقي ملكها ابن مندة وهزمهُ واثخن بالعدو . وبعث (سنة ١٧٦ — ٧٩٢) وزيرهُ عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث للغزو

العدو فبلغ البة والقلاع واثخن فيها . ثم بعثة (سنة ١٧٧ ـ ٧٩٢) الى اريونه وجريدة فاثخن فيها ووطي ارض بريطانية وتوغل في بلاد العدو وهزمهم ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد (سنة ١٧٨ ـ ٧٩٤) الى البة والقلاع وارسل اخاهُ عبد الملك الى بلاد جليقية فانتهى الى استرقة فجمع لهُ ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع فاتبعهُ عبد الملك وكان هشام قد بعث جيوشًا من جهة اخرى فالتقوا بعبد الملك واثخنوا جميعًا في البلاد فاعترضتهم عساكر الفرنج ووقفوا مسيرهم ونالوا منهم فرجعوا غانمين سالمين ومن محاسن هشام تجديد القنطرة التي يضرب بها المثل في قرطبة وكان قد بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز واحكم هشام بناها للغاية واذ سمع ان اهل قرطبه قالوا انهُ انما بناها ليمر عليها الى الصيد والقنص حلف ووفى بعدم المرور عليها بعدهُ وتوفي (سنة ١٨٠ ـ ٧٩٦) وعمرهُ ثلث واربعون سنة وامارتهُ سبع سنين وتسعة اشهر واكمل الجامع الذي كان ابتداهُ ابوهُ

وبعد هشام نهض الحكم ولدهُ واكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكهُ وفي خلال الفتنة التي كانت بينهُ وبين عميهِ لاجل الملك اغتنم العدو فرصة وقصد برشلونه فملكها (سنة ١٨٥) وتاخرت عساكر المسلمين فجهز الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الجلالقة فاثخنوا فيها فخالفهم العدو الى المنافذ وظفر بهم وخرج الى بلاد المسلمين ظافرًا . وكانت للحكم الوقعة الشهيرة مع اهل الربض من قرطبه لانهُ في صدر ولايتهِ كان قد انهمك في اللذات واهمل الاحكام فثاروا عليهِ في قرطبه وخلعوهُ وبايعوا بعض قرابتهِ فقاتلهم الحكم وظفر بهم وخرب دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من اهل العدوة وباسكندرية مصر فنزلوا فيها ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمامون فغلبهم واجازهم الى جزيرة اقريطش وكان في ايام الحكم حروب وفتن مع المخالفين لهُ من الثوار في طليطله وغيرها

و(في سنة ١٩٢) جمع لذريق (رودريكس) بن قارله ملك الفرنج جموعهُ وسار الى حصار طرسونه فشيع الحكم ابنهُ عبد الرحمن فهزمهم ثم اشتد عيث الفرنج مع وجود الفتن الداخلية فسار بنفسهِ اليهم (سنة ١٩٦)وفتح ثغورًا وحصونًا وخرب النواحي وعاد . وبعث (سنة ٢٠٠) العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدة حصون واقبل على البوط ملك الجلالقة في جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا اياماً واقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الامطار ومدَّ النهر فقفل المسلمون بالغنائم

والحكم اول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان افحل بني امية بالاندلس واشدهم وكان يشبه بابي جعفر المنصور العباسي في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعدا وكان خاتمهُ منقوشًا هكذا

«بالله يثق الحاكم وبعتصم» وكان له من الذكور عشرون ومن الاناث مثلة وامة جارية اسمها زخرف احمر طويلاً نحيفًا وملك ستًا وعشرين سنة . وقال بعضهم هو اول من جعل ابهة للملك في الاندلس واستعد بالماليك حتى بلغوا خمسة الاف منهم ثلاثة الاف فارس والفان رجالة وتوفي اخر (سنة ٢٠٦) وكان له عيون يطالعونه باحوال الناس ويباشر الامور بنفسهِ ويقرّب العلماء والصالحين وكان له الفا فرس مرتبطة على شاطي النهر قبلي قصره يجمعها داران وهو القائل لما قتل اهل الربض وهدم ديارهم وحرثها

فهذي بلادي انني قد تركتها مهادًا ولم اترك عليها منازعا

ونقل انه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء وكان يمسك اولاد الناس ويخصيهم ولذلك ثارت عليه العلماء والفقهاء واهل الصلاح ومنهم من نسب اليهِ بناء قصر العمبرة الموجودة فضلاته للان في الاندلس وهي من الاثار الغريبة والحق ان العمبرة مكسر عن العامرية ولا يبعد ان تكون اثار الزاهرة وهو قصر العامرية نسبة الى المنصور بن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر او قصر الزهراء الشهير الذي بناهُ عبد الرحمن الناصر كما سياتي خبرهُ في محلهِ وكان قد عهد لولده عبد الرحمن ومن بعدهِ لاخيهِ المغيرة فلما توفي بويع لولدهِ عبد الرحمن المذكور المعروف بالاوسط

وغزا عبد الرحمن لاول ولايته الى بلاد الجلالقة وابعد واطال المغيب واثخن في امم المسيحيين ورجع

وقدم عليهِ زرياب المغني من العراق وهو مولى المهدي واسمهُ علي بن نافع . فركب عبد الرحمن للقائهِ وبالغ في اكرامهِ واورث زرياب صناعة الغناء بالاندلس وكان الاول بعده ولده عبد الرحمن واغزا عبد الرحمن الاوسط (سنة ٢٠٨) حاجبه عبد الكريم الى البة والقلاع فخرب كثيرًا من البلاد وانتسفها وفتح حصونًا كثيرة وصالح بعضها على الخراج واطلاق اسرى المسلمين ورجع غانمًا . وارسل سنة (٢٢٤) قريبهُ عبد الله بن البلنسي لغزو البة

ثم خرج لذريق ملك الجلالقة واغار على مدينة سالم بالثغر فتوجه اليهِ فرتون بن موسى وقاتله فهزمهُ . ثم سار الى الحصن الذي بناه اهل البة بالثغر نكاية للمسلمين فهدمهُ . ثم قصد بلاد جليقية فدوخ فيها وفتح جملة حصون ورجع غانمًا وبعث سنة (٢٢٦) عساكره الى الفرنجة فانتهوا الى ارض برطانية وكان على العساكر موسى بن موسى عامل نطيلة فاتى العدو وصبر الى ان هزم وبعث (سنة ٢٢٩) ابنهُ محمدًا بالعساكر وتقدم الى بنبلونه وقتل غرسيه صاحبها وفي ايامهِ ظهر المجوس (وهم من سكان بر المذوج غير المسلمين) ودخلوا اشبيليه فارسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد فنزل المجوس من مراكبهم وقاتلوا المسلمين وكان قتال عظيم وانجلى الامر عن انكسار المسلمين اولاً . ثم

حضرتهم نجدات من قرطبة فهزموا العدو وغنموا بعض مراكبهم واحرقوها وقام المجوس الى شذونة فاقاموا عليها يومين وغنموا بعض الشيء . ثم وصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيليه فاقلع المجوس الى لبلة واغاروا وسبوا ثم الى باجة. ثم اشبونه. ثم انقطع خبرهم (سنة ٢٣٠) وتقدم عبد الرحمن باصلاح ما افسدوه من البلاد واكتنف حاميتها

وجهز سنة ٢٣١ العساكر الى جليقية فدخلوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق وهرب اهلها عنها ونهب المسلمون ما فيها واحرقوها وارادوا هدم سورها فلم يقدروا لان عرضهُ سبع عشرة ذراعًا فثلموا فيهِ ثلمة وعادوا .

ثم اغزا عبد الرحمن عبد الكريم الى بلاد برشلونه فعاث في نواحيها واجاز الدروب التي تسمى البرت او البرتات الى الفرنجة وحاصر مدينتها العظمى جرندة

وبعث توفلس ملك الروم (سنة ٢٢٥) بهدية الى عبد الرحمن يطلب مواصلته ويرغبهُ في ملك سلفهِ بالمشرق من اجل ما ضيق بهِ المامون والمعتصم وذكرهما لهُ في كتابهِ تحت اسم ابني مراجل ومارده فكافاهُ الامير عبد الرحمن عن الهدية وارسل اليهِ يحيى الغزال من اكبر اهل الدولة وكان مشهورًا في الشعر والحكمة وارتفع لعبد الرحمن ذكر في المشرق

وتوفي عبد الرحمن (سنة ٢٣٨) بعد ولاية احدى وثلاثين سنة ومولدهُ طليطله (سنة ١٧٦) وكان عالمًا بالشرع والفلسفة وايامهُ هدو وسكينة وكثرت ثروتهُ واتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وجعلهُ لقصرهِ مصنعًا اتخذه الناس شريعة . واقام الجسور وبنيت في ايامهِ جوامع في كور الاندلس وزاد في جامع قرطبة رواقين ومات قبل ان يستتمهما فاتم ذلك ابنهُ محمد واقام في الاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة وكان لهُ خمسة واربعون ابنًا كما ذكرهُ ابو الفدا وابن الاثير وعمر بن الوردي وغيرهم اما المقري في كتاب نفح الطيب فيقول ان اولاده الذكور مائة وخمسون و بناته خمسون والاول اقرب للعقل على انهُ لا يبعد ان يكون صادقًا وانهُ جاء لهُ هذا العدد وسلم منهم خمسة واربعون ذكرًا وكان نقش خاتمهِ « عابد الرحمن بقضاء الله راض » قال ابن سعيد وفي ايامهِ انتهى مال الجباية الى الف الف دينار في السنة وكان قبلاً لا يزيد عن ستمائة الف وكان كثير الميل للنساء ومولعًا بجاريتهِ طروب وقد كلف بها كلفًا شديدًا وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنت عليهِ واعطاها حليًا قيمتهُ مائة الف دينار فقيل لهُ ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسهُ انفس منهُ خطرًا وارفع قدرًا واكرم جوهرًا واشرف عنصرًا وامر بدر المال هو انهُ كان قد اغضبها فهجرتهُ وصدت عنهُ ولزمت مقصورتها فارسل من خاصة خصيانهِ من يكرهها على الوصول اليهِ فاغلقت الباب في وجوههم وحلفت

ان لاتخرج اليهم طائعة فامرهم بسد الباب عليها من خارج ببدر المال ففعلوا ثم حضر ووقف في الباب وكلمها مسترضيًا راغبًا في المراجعة على ان يكون لها جميع ما سد بهِ الباب فاجابت وفتحت فانهالت البدر في غرفتها . وكان لهُ اخرى يحبها اسمها مدثرة واخرى اسمها شفا . وكان لهُ جارية اسمها قلم اديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للاخبار وكان مولعًا بالسماع ولهُ اخبار كثيرة

ونهض بعدهُ ابنهُ محمد وهذا اغزى نواحي البة والقلاع وبرشلونه وما وراها ورجع عسكره غانمًا وكان لما ثارت عليهِ طليطله واستمدت لذلك ملكي جليقيه والبشكنس لقيهم محمد على وادي سليطه وقد اكمن لهم فقتل منهم نحو عشرين الفًا . واغزى (سنة ٢٤٧) الى جهة بنبلونه وصاحبها غرسيه بن ونقه وكان يظاهر اردن بن ادفنش فدوخ وفتح حصونًا واسر فورتون ابن صاحبها وبقي اسيرًا في قرطبه عشرين سنة واغزى اخاه المنذر ٢٥١ الى نواحي البة والقلاع فعاثوا فيها وجمع لذريق للقائهم وكان النصر للمسلمين وغزا محمد بنفسهِ بلاد الجلالقه فيها . و(في سنة ٢٦٢) ارسل ولده المنذر الى دار النصارى (وسنة ٢٦٤) الى بنبلونه واغزاه ايضًا (سنة ٢٦٨) الى دار الحرب وفي ايامهِ خربت ماردة ولم يبق لها اثر وذكر بعضهم انهُ راى هذه الابيات في المشرق (سنة ٣٥٤) قبل ان تخرب ماردة

ويل لماردة التي مردت وتكبرت عن عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهرٌ فخلت من الزهرات كالقفر
فالويل ثم الويح حين غزا بجميعهم من صاحب الامر

وتوفي محمد (سنة ٢٧٣) لخمس وثلاثين سنة من امارتهِ وولد (سنة ٢٠٧) وخلفهُ ولده المنذر واقام نحو سنتين ومات (سنة ٢٧٥) وفيهِ قيل

بالمنذر بن محمدٍ صلحت بلاد الاندلس

وكانت اعمالهُ قليلة نظرًا لقصر مدة ولايتهِ وكان جيد السيرة محب الاصلاح والصلاح وقام بعده اخوه عبد الله وكانت مدتهُ رخاء ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر قال « ابن خلدون كان خراج الاندلس قبلهُ ثلاث مئة الف دينار مئة الف للجيوش ومئة الف للنفقة في النوائب وما يعرض ومئة الف ذخيرة ووفر . فانفق الوفر حين اضطربت عليهِ بلاد الاندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنين وقل الخراج اه »

وتوفي الامير عبد الله (سنة ٣٠٠) ومدة ملكهِ نحو خمس وعشرين سنة وكان ابيض اصهب ازرق ربعة ورزق احد عشر ولدًا ذكرًا احدهم محمد وقتلهُ ابوهُ في حد من الحدود . وولي بعده حافده عبد الرحمن الناصر واخذ الملك شابًا واعمامهُ واعمام ابيهِ حاضرون وسنذكر خبره في الجزء الثاني ان شاء الله

فصل

في الربع الاول من القرن الرابع

و(في سنة ٣٠١) قتل احمد بن اسمعيل الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر ذبحهُ جماعة من غلمانهِ ليلاً وولي بعدهُ ابنهُ ابو الحسن نصر

وفيها قتل ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي كبير القرامطة قتلهُ خادم لهُ صقلبي في الحمام · ولما قتلهُ استدعى رجلاً اخر من اكابر رؤسائهم وقال لهُ ان الرئيس يستدعيك فلما دخل قتلهُ الى ان قتل اربعة من الكبراء فعلموا غدرهُ واجتمعوا عليهِ وقتلوهُ · وكان ابو سعيد قد عهد لولدهِ الاكبر سعيد فعجز عن القيام بالامر وتغلب عليهِ اخوهُ ابو طاهر سليمان وكان شهماً شجاعاً · وكان عند قتل ابيهِ واليًا على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين

وفيها سير المهدي العلوي جيشًا مع ولدهِ محمد الى مصر فاخذ الاسكندرية والفيوم فارسل المقتدر جيشًا مع مونس الخادم واجلاهم فعادوا الى المغرب · و(في سنة ٣٠٢) قبض المقتدر على الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص الجوهري واخذ منهُ من صنوف الاموال ما قيمتهُ اربعة الاف الف دينار او اكثر

وفيها ركب المهدي العلوي ثانية على مصر وارسل اليهِ المقتدر مونسًا الخادم فاقتتلوا بين مصر والاسكندرية اربع دفعات واخيرًا ثبت النصر للمقتدر وقتل من الفريقين خلق وافر وهي السنة التي فيها انهى الطبري (ابو جعفر) تاريخهُ الشهير

وفيها بنيت المهدية بناها المهدي على ساحل البحر في شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند وجعل لها سورًا حصينًا وابوابًا عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار · وفيها اغارت الروم على الثغور الجزرية وسبوا وقتلوا وغنموا كثيرًا · وفيها توفي الاطروش وهو الناصر العلوي صاحب طبرستان واسمهُ الحسن بن علي وهو الثامن من نسل علي بن ابي طالب · وكان قد ملك طبرستان (سنة ٣٠١) ثم قام بعدهُ الحسن بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل (سنة ٣١٦) وانقرض بموتهِ ملكهم من طبرستان

وخرج (سنة ٣٠٣) الحسين بن حمدان عن طاعة المقتدر في الجزيرة فارسل الخليفة عليهِ الوزير رائق الكبير في جيش فاقتتلا وانهزم رائق فبلغ الخبر مونسًا فذهب اليهِ ففر الحسين الى ارمينيه مع اولاده وثقلهُ وتشتت عسكرهُ فادركهُ عسكر مونس واسروهُ مع ابنهِ عبد الوهاب وذهب بهما الى

بغداد راكبين جملاً وعليها البرانس اللبوداء وقمصان الشعر الاحمر

و(سنة ٣٠٥-٩١٧)حضرت رسل ملك الروم يطلبون المهادنة والفدا فاكرموا اكراماً تاماً وصار قبولهم في اعظم هيئة . وسير الخليفة معهم مونساً الخادم وانفذ معهُ الفداء عن الاسرى ماية وعشرين الف دينار . وفيها أُطلق ابو الهيجا بن حمدان واخوتهُ واهل بيتهِ من السجن

و(سنة ٣٠٦ - ٩١٨) جعل على شرطة بغداد نجح الطولوني فاقام في الارباع فقهاء يعمل الشرطة بفتواهم فضعفت هيبة السلطنة بسبب ذلك وكثر الخلل وقطاعة الطرق . وفيها جهز المهدي العلوي ابنهُ القائم على مصر فاخذ الاسكندرية ووصل الى الجيزة وملك اشمونين وبعض الصعيد وحضرت لهُ ثمانون مركبًا من افريقيه وجهز المقتدر عليهم مونسًا وارسل خمسًا وعشرين مركبًا من طرسوس لقتال مراكب القائم فالتقت العساكر في البر والمراكب في رشيد واقتتلوا قتالاً شديدًا وانجلى الامر بهزيمة المهديين وعادوا الى افريقيه

وفي هذه السنة (وهي سنة ٣٠٦-٩١٨) انقرضت دولة الادارسة العلويين قد تقدم ابتداء هذه الدولة الى محمد بن ادريس بن ادريس (سنة ٢١٤ - ٨٢٩) وكان محمد قد اعطى اخاهُ عمر صنهاجة وغمارة وابقى لنفسهِ الامامة الكبرى وبقي محمد حتى مات وتاريخ موتهِ مجهول . فملك بعدهُ ابن اخيهِ المذكور علي ولكنهُ لم يفلح فخلع وولي بعد علي ابن اخيهِ يحيى بن ادريس بن عمر وهذا يحيى هو اخرايتهم بفاس وانقرضت دولتهم (سنة ٣٠٧) وتغلب عليهم قضاله بن جبوس . ثم ظهر من الادارسة حسن بن محمد بن القاسم بن ادريس وقصد استرداد الدولة وقد اخذت بالاختلال ودولة المهدي في الاقبال فملك عامين ولم يتم لهُ ارب وانقرضت دولتهم من جميع المغرب الاقصى واخذ اكثر الادارسة الى المهدي ثم ثار بعد الاربعين وثلاثماية ادريس من ولد محمد بن القاسم فاعاد لهم الامامة . ثم تغلب على بر العدوة عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر وخطب فيها لبني امية ثم عاد عبد الملك الى الاندلس فضعفت سلطتهُ ببر العدوة وتغلب على فاس بنو ابي العافية الزناتيون ثم اخذ يوسف بن تاشفين اميرالمسلمين تلك البلاد

و(في سنة ٣٠٦ - ٩٢١) قتل حامد الوزير الحسين بن منصور الصوفي المعروف بالحلاج لدعواه النبوة وخداعه الناس بشعبذات كاخراجهِ فاكهة الشتا صيفًا وفاكهة الصيف شتاء وكمده يده الى الهواء واعادتها مملوة دراهم عليها مكتوب «قل هو الله احد» وكان يسميها دراهم القدرة . وكاخباره الناس بما اكلوه وما صنعوه في بيوتهم واخراج ضمائرهم حتى افتتن الناس بهِ واعتقدوا فيهِ الحلول فانقسم عليهِ اراء الناس فمنهم من قال انهُ مظهر من مظاهر الله تع . ومنهم انهُ ولي . ومنهم قال انهُ مشعوذ وغيرهم ساحر وكذاب . وكان قد قدم الحلاج من خراسان ومضى الى مكة واقام بها سنة

بالحجر لا ياوى البيوت لا صيفًا ولا شتاء · ونظر على جبل ابي قبيس فوق صخرة حافيًا مكشوف الراس والعرق يجري منه الى الارض من حرارة التوسلات · وكان يصوم الدهر ويفطر على الماء ويأكل ثلاث قضمات من قرص ولا ياخذ شيئًا اخر · ثم نقل عنه الى الوزير حامد انه كان يحيي الموتى فاستدعاه وساله عن ذلك فانكر وقال اعوذ بالله وما انا الا انسان اعبد الله تع · قالوا وبقي الوزير في استخلاصه واستنطاقه الى ان وجد معه كتابًا فيه ان الانسان اذا اراد الحج ولم يمكنه افرد من داره بيتًا طاهرًا فاذا حضرت ايام الحج طاف حوله وفعل ما يفعل الحجاج ثم يطعم ثلثين يتيمًا ويكسوهم ويعطي كلاً منهم سبعة دراهم . فاحضر الوزير القضاة ووجوه الفقهاء وامر بقراءة ذلك امامهم · فساله ابو عمرو القاضي من اين لك هذا فقال من كتاب الاخلاص للحسن البصري · فقال له القاضي كذبت وافتوا باباحة دمه · وسلم الى صاحب الشرطة فضربه الف سوط فما تاوه لها ثم قطعوا يده الواحدة ثم الاخرى ثم الرجل الواحدة ثم الاخرى ثم قتل واحرق والقى رماده في دجلة « قلت ان في عمل الوزير قساوة وحشية لا حاجة لها تنفر من تلاوتها اذان العصر وقد وافقه القضاة لغاية سياسية او لخوف دني منهم لا غير والا فان القصاص على رجل متعيش بتلبيسه على الناس انما يكون بتربيته واطلاقه لا بقتله وتعذيبه ولسنا نرى فيما قاله هذا الرجل من ضرر على الدين فالحمد لله اننا لسنا في عصر مثل عصر ابن حامد »

والحلاج كان من خراسان ونيسابور وقيل من مرو وقيل من الطالقان وقيل من الرى · وكان على الاصح رجلاً محتالاً مشعبذًا يميل الى راي الصوفية وربما ادعى حلول الالهية فيه وقيل له وهو مصلوب في الشمس قل لا اله الا الله · فقال ان بيتًا انت ساكنه غير محتاج الى السرج · وقيل كان صفرًا من العلوم حتى ان علي بن عيسى عندما امتحنه قال له ان تعلمك فروضك اجدى بك من رسائل لا تعرف معناها وان تكتب للناس بقولك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته فما احوجك الى الادب · وقال ابو الحسين بن الجندي انه راى الحلاج ونظر من شعابذه اشيا منها تصويره بين يديه جنينة فيها زروع وماء

و(سنة ٣١١) كبست القرامطة وكبيرهم ابو طاهر البصرة ليلاً ودخلوا من فوق السور وقتلوا وسلبوا مدة سبعة عشر يومًا · و(سنة ٣١٢) اخذوا الحجاج ونهبوا منهم اموالاً عظيمة · وفيها قبض المقتدر على وزيره ابي الحسن بن الفرات وذبحه مع ولده المحسن · وفيها سار ابو طاهر القرمطي الى الكوفة واخذها بالسيف وقتل وسبي ستة ايام

وسنة (٣١٤) قلد المقتدر يوسف بن ابي الساج نواحي المشرق وامره بالمسير الى واسط وحرب القرامطة فالتقى سنة (٣١٥) ومعه نحو اربعين الفًا بابي طاهر في الف وخمسمائة منهم

سبعمائة فارس وكان ابو الساج قد احتقرهم لقلة عددهم وشيع الى بغداد يقول با لفتح وانهم في يده ثم اقتتلوا فحملت القرامطة وانهزم عسكر الخليفة واخذ يوسف اسيرًا وقتله ابو طاهر واستولى على الكوفة . فارسل له الخليفة مونسًا الخادم فصادف ما صادفه يوسف من الانهزام . وغزا القرامطة غالب البلاد الفراتية ورجعوا الى هجر بالغنائم قال ابو الفرج وفي سنة ٣١٥ ازال مونس الخادم شعره خوفًا من المقتدر فاجتمع اليهِ الجنود وقالوا له لاتخف نحن نحارب عنك الى ان ينبت لك لحية . ووجه له المقتدر رقعة بخط يده يحلف له ان ما بلغهُ كان باطلاً فقصد مونس دار المقتدر مع عدد من القواد ودخل اليهِ وقبل يديهِ وحلف له المقتدر على طيب طويته نحوهُ «قلت ربما كان ذلك عن انهزامهِ من ابي طاهر» . وفيها حارب عبد الرحمن الناصر الاموي صاحب الاندلس طليطله وبعد حصار طويل فتحها وخرب كثيرًا منها . وفيها دخلت القرامطة الرحبة ونهبوا وسبوا . ثم ساروا الى الرقة فنهبوا ربضها ثم الى سنجار فطلب اهلها الامان فامنوهم . ثم نهبوا الجبال وغيرها من البلاد وعادوا الى هجر . وفيها عزل المقتدر علي بن عيسى عن الوزارة وولاها ابا علي بن مقلة

و(في سنة ٣١٦) ظهر امر مرداويج بن زيار من الديلم وكان احد قواد اسفار بن شيرويه الذي فتح جرجان (سنة ٣١٥) فنهض على سيدهِ وكان قد استمال اكثر العساكر اليهِ وقتله واخذ يفتح البلاد فملك قزوين ثم الري وهمذان وكنكور والدينور وبروجرد وقم وقاشان واصفهان وجرباذقان وعمل له سريرًا من ذهب يجلس عليهِ ثم استولى على طبرستان

و(في سنة ٣١٧) خلع المقتدر وبويع اخوهُ محمد بن المعتضد ولقب با لقاهر وذلك لان المقتدر كان قد جعل نفسهُ مبغضًا من الجند والقواد لاستيلا النساء والخدام على الامور واخذهم الاموال والضياع وزاد ذلك وحشة مونس الخادم مع المقتدر . فاجتمع الجند الى مونس وقصدوا دار الخلافة واخرجوا المقتدر ووالدتهُ وخالتهُ وخواص جواريهِ واولاده وحملوهم الى دار مونس واحضروا محمدًا وبايعوهُ واشهدوا على المقتدر بالخلع القاضي ابا عمرو ونهبوا دار الخلافة واخرجوا من تربة قد بنتها ام المقتدر ستمائة الف دينار

وبعد خلع المقتدر بيومين في ١٧ محرم بكر الناس الى دار الخلافة حتى امتلات الرحاب وكان يوم موكب ولم يحضر مونس وحضرت الرجال المصافية بالسلاح يطالبون بحق البيعة وعلت اصواتهم فارسل القاهر باروك يطيب خواطرهم فقتلوهُ وهجموا على القاهر فهرب وتفرق الناس وخلت دار الخلافة فذهب الرجالة الى دار مونس الخادم وطلبوا المقتدر فسلمهم مطلوبهم فحملوا المقتدر على اعناقهم واخذوهُ الى دار الخلافة ثم امر المقتدر فاتى بالقاهر فامنهُ وقبلهُ وعذره واعتقلوهُ عند والدة المقتدر فاحسنت اليهِ ووسعت عليهِ واستقر المقتدر في الخلافة

وفيها قصد ابو طاهر مكة يوم التروية وكان الحجاج قد وصلوا اليها فنهب اموالهم وقتلهم حتى في المسجد الحرام · ودخل الكعبة وقلع الحجر الاسود من الركن ونقله الى هجر وقتل ابن محارب امير مكة واصحابه وقلع باب البيت واصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط ومات · وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا وقسم كسوة البيت على اصحابه

وفيها وقع خلاف بين الحنابلة وغيرهم في بغداد على معنى الاية « عسى ان يبعثك ربك مقامًا محمودًا » فقال الحنابلة معنى ذلك ان الله تع يقعد الرسول معه على العرش · وقال الاخرون انما هي الشفاعة فاقتتلوا ودخل في ذلك الجند والعامة وكان شر عظيم

وفيها اخرجت الرجالة المصافية من بغداد لاستطالتهم على الناس وتمردهم من حين اعادوا المقتدر ونقاتلوا مع الجند وهربوا الى واسط فاستولوا عليها فقصدهم مونس الخادم وفرقهم

الصوائف

سار مونس (سنة ٢٩٦) من بغداد الى الفرات ودخل الروم من جهة ملطيه ومعه السلمي فظفر وغنم واسر و بعث المقتدر ابا القاسم بن سيما لغزو الصائفة (سنة ٢٩٨) وغزا في التي بعدها رستم امير الثغور ودخل في ناحية طرسوس ومعه دميانه وحاصر حصن مليح الارمني ففتحه واحرقه · وتوفي (سنة ٣٠٠) اسكندروس بن لاون ملك الروم وخلفه ابنه قسطنطين ابن اثنتي عشرة سنة وسار (سنة ٣٠٢) علي بن عيسي الرزبر في الف فارس لغزو الصائفة مددًا لبسر الخادم عامل طرسوس ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف فدخلوا شاتية في كلب البرد وشدته وغنموا وسبوا · وغزا بسر الخادم (سنة ٣٠٢) بلاد الروم ففتح وغنم وسبي واسر مئة وخمسين ونحو الفي راس · وفي التي بعدها انحازت الروم على ثغور الخزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا اهله لاشتغال عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مونس كما مر

وفيها خرج الروم الى ناحية طرسوس والفرات فقاتلوا وقتلوا نحو ست مئة فارس وقدم مليح الارمني الى مرعش فعاث في نواحيها ولم يكن للمسلمين فيها صائفة و(في سنة ٣٠٤) سار مونس بالصائفة ومرّ بالموصل فقلد سبكًا المفلحي باريدى وقردى من اعمال الفرات · وقلد عثمان العبودي مدينة سنجار ووصونًا البكتمري باقي بلاد ربيعة وسار الى ملطية فدخل منها وكتب الى ابي القاسم علي بن احمد بن بسطام ان يدخل من طرسوس في اهلها ففتح مونس حصونًا كثيرة وغنم وسبى ورجع الى بغداد فاكرمه المقتدر وخلع عليه و(سنة ٣٠٥) غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وغزا ثمالي الخادم في الاسطول فغنم · وغزا ثمالي في السنة التي بعدها بحرًا وجنا الصفواني وفتح وظفر وعاد · وغزا بشر الافشين بلاد الروم ففتح عدة حصون وغنم وسبي · وغزا ثمالي (سنة ٣٠٧) بحرًا فلقي مراكب المهدي صاحب

افريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم واسر خادمًا له . وغزا محمد بن نصر الحاجب (سنة ٣١٠) قاليقلا فاصاب من الروم وسار اهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وغزا مونس (سنة ٣١١) بلاد الروم فغنم وفتح حصونًا وغزا ثمالي بحرًا فغنم الف راس من السبي وثمانية الاف من الظهر ومئة الف من الغنم وشيئًا كثيرًا من الذهب والفضة وجاء (سنة ٣١٢) رسول ملك الروم بالهدايا ومعهُ ابو عمر بن عبد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفدا فاجيبا الى ذلك، ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فاثخنوا ورجعوا

وخرجت الروم (سنة ٣١٤) الى ملطية ونواحيها مع الدمستق ومليح الارمني صاحب الدروب وحاصروا ملطية فهرب اهلها الى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا . وغزا اهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا ودخلت سرية من طرسوس الى بلاد الروم (سنة ٣١٥) فاوقع بهم الروم وقتلوا اربعمائة رجل صبرًا وجاء الدمستق الى مدينة دبيل وبها نصر السبكي فحاصرها وشدد حصارها حتى نقب سورها ودخل الروم اليها فدفعهم المسلمون وغنموا منهم اموالاً جزيلة ومن الغنم مائة الف راس فاكلوها . وخرج الدمستق (سنة ٣١٦) في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحًا وجعل الصليب في جامعها ورحل الى بدليس ففعل كذلك وهرب اهل اردن الى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا . وفيها ظهر اهل ملطية على سبعمائة من الروم والارمن ودخلوا بلدهم خفيةً وكان قد استقدمهم مليح الارمني ليكونوا له عونًا اذا حاصروها فقتلهم اهل ملطية عن اخرهم . وبعث اهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وآمد يستمدون المقتدر في العساكر والا يعطوا الاتاوة للروم فلم يمدهم فصالحوا الروم وملكوا البلاد . وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم . وغزا ثمالي (سنة ٣٢٠) بلاد الروم من طرسوس ولقي الروم وهزمهم واسر ثلاثة الاف وقتل نحو ثلاثمائة وغنم من الفضة والذهب شيئًا كثيرًا وعاد بالصائفة في سنتهِ في حشد كثير. وبلغ عمورية فهرب عنها اهلها ودخلها المسلمون وغنموا واحرقوا وتوغلوا في البلاد يقتلون ويكتسحون ويخربون وعادوا سالمين وبلغت قيمة السبي مائة وستة وثلاثين الف دينار وفيها راسل ابن الريداني وغيره من الارمن في نواحي ارمينية والحوا على الروم في قصد بلاد الاسلام فساروا وخربوا نواحي خلاط وقتلوا واسروا فسار اليهم مفلح غلام يوسف بن ابي الساج من اذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة فاثخن في بلاد الروم حتى قيل ان عدد القتلى بلغ مائة الف وخرب بلاد ابن الريداني ومن وافقهُ ونهب وقتل . ثم جاءت الروم الى سميساط فحصروها وامدها سعيد بن حمدان وكان المقتدر ولاهُ الموصل وديار ربيعة على ان يسترد ملطية من الروم فلما جاء رسول اهل سميساط اليهم اجفل الروم عنها فسار الى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الارمني صاحب الثغور الرومية فلما احسوا باقبال سعيد هربوا

وتركوها خشية ان يثب بهم اهلها وملكها سعيد واستخلف عليها وعاد الى الموصل (انتهى ملخصاً عن ابن خلدون)

و(في سنة ٣١٩) ارسل المقتدر عسكرًا لقتال مرداويج فالتقوا بنواحي همذان وانهزمت عساكر المقتدر واخذ مرداويج بلاد الجبل جميعًا ووصلت عساكره بالنهب الى نواحي حلوان ثم ارسل فاخذ اصفهان . وفيها حصلت الوحشة بين المقتدر ومونس الخادم في ذي الحجة فترك مونس بغداد (سنة ٣٢٠) مغاضبًا واستولى المقتدر على اقطاع مونس وماله واملاكه واملاك اصحابه وكتب الى ابناء حمدان امراء الموصل بصده وكان مونس ارسل خادمه بشرًا برسالة الى المقتدر فسالة الحسين وزير المقتدر عن الرسالة فقال لا ابلغها الا الى المقتدر فشتمه الوزير وشتم مرسله وصادره بثلاثمائة الف دينار . فلما بلغ مونسًا ماجرى بخادمه وهو بجد بي سار نحو الموصل ومعه جمع من القواد فاجتمع بنو حمدان لصده بثلاثين الفًا . وكان مونس في ثمانمائة فارس فاقتتلوا وانهزم بنو حمدان واستولى مونس على الموصل وعلى اموالهم وتوجه اليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لانه كان محبوبًا منهم واقام بالموصل تسعة اشهر ثم انحدر الى بغداد ونزل بباب الشماسية وكان في نية المقتدر عدم القتال والذهاب الى واسط فاقنعه اصحابه بالمقاومة والركوب بشخصه الى القتال قائلين ان القوم متى راوهُ عادوا اليه فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقرّاء والمصاحف منشورة وعليه البردة والناس حوله ووقف على رابية عالية ببعد عن الموقعة فارسل اليه قواده يبغون تقدمه ففعل ثم انهزم اصحابه فاراد الرجوع فادركه بعض المغاربة وشهروا عليه السيوف فقال ويلكم انا الخليفة قالوا عرفناك يا نذل وضربه احدهم بالسيف فقتله ورفعوا راسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه واخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه الى ان مر به رجل من الاكرة فغطاه اولاً ثم حفر له قبرًا وواراه وحمل راسه الى مونس فبكى ولطم وجهه وراسه وانفذ من منع نهب دار الخلافة وهكذا انتهى امر المقتدر وعمره ثماني وثلاثون سنة وخلافته اربع وعشرون سنة وكان جميلاً ضخمًا ثقيل الجثة

في خلافة القاهر بن المعتضد (سنة ٣٢٠-٩٣٢ الى سنة ٣٢٢-٩٣٤) وهو التاسع عشر

وكان راى مونس الخادم عند ما قتل المقتدر ان يبايعوا ولدهُ ابا العباس لانه كان ذا تربية حسنة وعقل وكرم ودين ووفاء اما اسحق النوبختي فقال كفانا ما قدمضى من خليفة له ام وخالة وخدم يسوسون الامور فاختاروا لكم رجلاً كاملاً يسوس اموره وامورنا واخيرًا اتفقوا على ابي المنصور محمد بن المعتضد وكان ذلك لتعس النوبختي كما سياتي . فاتوا بابي المنصور وبايعوهُ في شوال ولقب القاهر بالله وكان الامر ضد ارادة مونس باطنًا لانه كان يعرف منه ما لا يعرفه الاخرون حتى انه

لم يركن اليه الى ان استحلفه لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق واستحجب القاهر بن بليق المذكور

ثم امر القاهر باستنباش اولاد المقتدر وحرمه وامر بامه وهي مريضة بالاستسقاء فسالها عن مالها فاقرت بالمتاع والثياب وانكرت المال والجواهر فضربت اشد الضرب وعلقت برجلها فحلفت انها ما تملك شيئاً. ثم صادر جميع مقربي المقتدر وامر ببيع كل املاكه وفك وقوفها وسلك سلوك ظالم مكروه وتوفيت ام المقتدر (سنة ٣٢١) ودفنت في تربتها في الرصافة. وفيها وقعت الوحشة بين مونس الخادم والخليفة وكان بليق امير دار الخلافة فضيق على القاهر ومنع دخول اصحابه اليه حتى النساء الا من كان يعرفها واقام وكيلاً على ذلك احمد بن زيرك واخيرًا لم يعد القاهر قادرًا على الاحتمال فنزع الى التدبير والحيل وارسل الى الساجية وهم اصحاب يوسف بن ابي الساج واستمالهم للقبض على بليق ومونس والوزير ابن مقلة ولما بلغ ذلك ابن مقلة اخبر مونسًا وبليقًا وابنه واتفق رايهم جميعًا الا مونس بخلع القاهر وقد اخبر القاهر بذلك طريف السبكري اذ استقدمه اليه بزي امراة وهم في الاجتماع وكان راي مونس عدم خلعه او اقله محاسنته الى ان يتملكوه ويكون لهم الفرصة على نوال اربهم. اما علي بن بليق فاعترض وقال ولماذا هذا التطويل ونحن اصحاب الحجابة وهو في يدنا كالعصفور في القفص قال هذا ولم يكن يعلم ما اعد له القاهر من الكمين ثم توجه ابن بليق ومعه جماعة وطلب الدخول على القاهر لامر يخص القرامطة فلما دخل الدار قابضًا قبض عليه فبلغ الخبر اباهُ وكان منقطعًا عن دار الخلافة لمرض حصل له فحضر ليخلص ابنه فصادف ما صادفه ذاك وقبض على ابن زريك ايضًا. ثم ارسل القاهر يستدعي مونسًا فامتنع فامنه وقال انه يريد ان يبلغه ما حصل له ويستشيره كوالد وانه لا يحب ان يفعل شيئًا الا برايه فانخدع مونس ومضى فقبض عليه. اما ابن مقلة فاختفى وعزله القاهر واستوزر ابا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وجد بطلب احمد بن المكتفي الذي كان مرادهم ان يستخلفوه عليه فظفر به وبني عليه حائطًا فمات

ولما علم الجند قبض القاهر على مونس ثاروا وشغبوا وطلبوا اطلاقه فامر القاهر فذبح اولاً ابن بليق وجعل راسه في طبق واخذ الراس الى ابيه فاخذ ابوهُ يبكي ويترشف الراس ثم امر به القاهر فقتل وجعل راسه مع راس ولده في الطبق واخذا الى مونس فلما نظر ذلك مونس تشاهد ولعن قاتلها فقتله ايضًا واطلعت الرؤوس الثلاثة وطوفت بها بغداد ونودي هذا جزاء من يخون الامام ثم جعلت في خزانة الرؤوس على جاري عادتهم ثم عزل القاهر ابا جعفر وولى الوزارة الخصيبي ثم قبض على شريكه في العمل طريف السبكري وكان من اكبر القواد. وفي السنة المذكورة كانت بداية دولة بني بويه وهم ثلاثة اخوة. عماد الدولة علي. وركن الدولة الحسن. ومعزّ الدولة احمد. اولاد ابي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الاصغر ابن شيركنده بن شيرزيل

الاكبر ابن شيران شاه بن شيرفنه بن بستان شاه بن شيرفيروز بن شير وز يلك بن سبسذا بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك من ملوك الفرس . قال ابو الفرج قالوا ان ابا شجاع بويه كان متوسط الحال ورأى في منامهِ كانهُ يبول فخرج منهُ نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تطول السماء ثم تشعبت الى ثلاث تولدت عنها عدة شعب صغرى فاضاءت الدنيا بتلك النيران فمضى بويه الى رجل يقول عن نفسهِ انهُ منجم ومعزم ومعبر الاحلام . فقال ذلك الرجل هذا منام عظيم لا افسره الا بخلعة وفرس فقال بويه انا لا املك الا ما عليَّ من الثياب قال المنجم فعشرة دنانير قال بويه لا املك دينارين فكيف عشرة ثم اعطاهُ شيئًا فقال المنجم اعلم انهُ يكون لك ثلاثة اولاد يملكون الارض ويعلو ذكرهم في الافاق ويولد لهم من الملوك بقدر ما رايت في تلك الشعب فقال بويه اما تخجل من ان تسخر برجل فقير نظيري ونظير اولادي فقال المنجم اذكروا لي هذا اذا قصدتكم وانتم ملوك فاغتاظ بويه وامر اولادهُ فصفعوا المنجم قال ثم خرج بنو بويه من الديلم وساروا الى مرداويج بطبرستان فقبلهم احسن قبول وخلع عليهم « قال ابو الفدى » وكان المذكورون في خدمه ماكان بن كاكي الديلمي ولما ملك من الديلم اسفار بن شيرويه ومرداويج ملك ماكان بن كاكي الديلمي طبرستان وكانوا من جملة عسكره متقدمين عندهُ . فلما استولى مرداويج على ماكان بيد ماكان بن كاكي من طبرستان صار ماكان عن طبرستان واستولى على الدامغان ثم انهزم وعاد الى نيسابور ومعهُ ابنا بويه ولما راوا ضعفهُ وعجزه عن مقاتلة مرداويج قالوا نحن معنا جماعة وانت مضيف والاصلح ان نفارقك لتخف المونة عنك فاذا صلح امرك عدنا اليك فاذن لهم ولحقوا بمرداويج وتبعهم جماعة من قواد ماكان . فاحسن اليهم مرداويج وقلد عماد الدولة الكرج فقوي وكثر جمعهُ ثم اطلق مرداويج لجماعة من قواده مالاً على كرج فلما وصلوا لقبض المال احسن اليهم عماد الدولة واستمالهم فمالوا اليهِ حتى اوجبوا طاعتهُ وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش من ابن بويه

ثم قصد عماد الدين اصفهان وبها ابن ياقوت فاقتتلوا وانهزم ابن ياقوت واستولى ابن بويه على اصفهان وكان مع عماد تسع مائة رجل ومع ابن ياقوت عشرة الاف فعظم اسم عماد الدولة بهذا الفعل وقويت هيبتهُ وراسلهُ مرداويج يلاطفهُ ليحضر اليهِ وذاك يعتذر واقام عماد الدولة شهرين باصفهان وجبى الاموال وقام الى ارجان وكان قد انهزم اليها ابن ياقوت واسمهُ ابو بكر ثم انهزم منها بدون قتال فاستولى ابن بويه عليها (سنه ٣٢٠) ثم سار الى النوبندجان واستولى عليها (سنة ٣٢١) ثم ارسل اخاهُ ركن الدولة الى كازرون وغيرها من اعمال فارس فاستخرج منها الاموال . و(في سنة ٣٢٣) استولى عماد الدولة على شيراز . وفيها قتل القاهر اسحق بن اسمعيل النوبختي وهو الذي اشار باستخلافهِ . وفيها خلع القاهر في جمادى الاولى لما ظهر منهُ من الغدر بطريف السبكري

وحثه في يمين الامان للذين قتلهم وكان ابن مقلة مستترًا من القاهر يجتمع بالقواد ويغريهم به ويريهم كيف انه غدر بمونس وبليق وولده وعدم الاعتماد على كلامه وتوصل الى ان رشا منجم سيما زعيم الساجية بمائتي دينار وهكذا معبر احلامه لكي يبغضا اليه القاهر واخيرًا بلغ مرادهُ فاتفق مع الساجية والحجرية على خلع القاهر فبلغ الامر الوزير فارسل الحاجب سلامًا والطبيب عيسى ليخبرا القاهر بالامر فوجداهُ نائمًا من شدة السكر ولم يقدرا على الوصول اليهِ فادركتهُ الجنود وسدوا عليه جميع المهارب فانتبه وهو مخمور فاراد الفرار ولات حين فرار فان الابواب كانت مشحونة فهرب الى سطح حمام فاخذوه وسجنوه مكان طريف السبكي واطلقوا طريفًا وسملوا عيني القاهر وكانت خلافتهُ عامًا وستة اشهر تقريبًا ثم عاش خاملاً الى ان مات (سنة ٣٣٨)

في خلافة الراضي بالله وهو العشرون (من سنة ٣٢٢ ـ ٩٣٤ الى ٣٢٩ ـ ٩٤٠)

ولما قبضوا على القاهر علموا منهُ مكان ابي العباس احمد بن المقتدر فاخرجوه واجلسوه على سرير الخلافة وبايعوه ولقبوه الراضي بالله وبايعهُ القواد والناس واستوزر ابن مقلة اخذًا براي سيما القائد وحاولوا ان يخلع القاهر نفسهُ فامتنع وهو في الحبس اعمى

وتوفي المهدي عبيد الله العلوي الفاطمي بالمهدية واخفى ولده القائم ابو القاسم موتهُ سنة وكان عمره ثلاثًا وستين سنة وولايتهُ اربعًا وعشرين ثم اظهر ولده موتهُ فبايعهُ الناس

وفيها قتل محمد بن علي الشلمغاني نسبة الى شلمغان قرية بنواحي واسط وكان يذهب الى الحلول والتناسخ وتبعهُ في ذلك عدد من اهل العلم والشهرة مثل الحسين بن القاسم وابو جعفر وابو علي بن بسطام وابرهيم بن ابي عون واحمد العبدوسي وكان الشلمغاني مستترًا مع اصحابه فظهر وقبض عليه ابن مقله فانكر مذهبهُ اولاً وكان اصحابهُ يعتقدون بهِ الالهية وهو ينكر انهُ يدعي ذلك واخيرًا بعد استنطاقات متكررة قضى الفقهاء باباحة دمهِ فصلب وصلب معهُ ابن ابي عون واحرقا بالنار . ومن مذهبه ان الله تعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتملهُ ذلك الشي وانهُ خلق الضد ليستدل بهِ على المضدود فحل في ادم وفي ابليسهِ وفي نوح وابليسهِ وصالح وابليسهِ عاقر الناقة وابرهيم وابليسهِ نمرود وهرون وابليسهِ فرعون وسليمان وعيسى وعلي بن ابي طالب وابالستهم وقال ان الدليل على الحق افضل من الحق وان الضد اقرب الى الشي من شبههِ ومن مذهبهِ ان من احتاج الناس اليهِ فهو اله وقد طعن هو واصحابهُ بموسى ومحمد قائلين انهما خائنان لان هرون وعليًا ارسلا موسى ومحمدًا فخاناهما وان عليًا امهل محمدًا عدة سني اصحاب الكهف وهي سنة ٣٥٠ فاذا انقضت انتقلت الشريعة وكان يقول بترك الصلوة والصوم وكل التكاليف من العبادات واباحة الفروج وان يجامع المرء من شاء من ذوي

رحمو وانه لا بد للفاضل منهم ان ينكح المفضول لكي يكسبه من فضله وان من امتنع قلب في الدور الثاني امراة

وفيها غزا الدمستق بلاد الاسلام وفتح ملطية بالامان بعد حصار طويل وفعل الروم ما يكره بالمسلمين وصارت اكثر البلاد في ايديهم

و(سنة ٣٢٣) قتل مرداويج الديلمي وكان قد تجبر وعتا وعمل لاصحابه كراسي من فضة ولنفسه تاجًا مرصعًا على صفة تاج كسرى فقتله الاتراك الذين في خدمته لانه كان يحتقرهم ويهينهم حتى انه يومًا امر بوضع سروج خيلهم عليهم لانه اغتاظ من صهيلها واصواتها و بعد قتله خلفه اخوه وشكمير بن زيار

وفيها عظم امر الحنابلة وتمردوا فكانوا يكبسون دور القواد والعامة وحيثما وجدوا خمرًا اراقوها او مغنية ضربوها وكسروا الة الغناء واعترضوا في البيع والشراء وفي مشى الرجال مع الصبيان فازعجوا بغداد وركب صاحب الشرطة ونادى بمنع تجمع الحنابلة وبان لايصلي منهم امام الا اذا جهر بالبسملة فلم يفد ذلك فيهم . فاخرج الراضي حينئذٍ توقيعًا ينهاهم و ينكر عليهم افعالهم واعتقادهم التشبيه ومن جملة قوله « انكم تارةً تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم على هيئته وتذكرون له شعر القطط والكف والاصابع والرجلين والنعلين والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا فلعن الله شيطانًا زين لكم هذه المنكرات ما اغواه واني اقسم بالله جهدًا اليه يلزمني الوفاء بها لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم هذه لاوسعنكم ضربًا وتشديدًا وقتلاً وتبديدًا ولاستعملنَّ السيوف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم »

وفيها تولى الاخشيذ وهو محمد بن طغج بن جف والي مصر من طرف الراضي وكان الاخشيذ تولى الرملة (سنة ٣١٦) من قبل المقتدر فبقي نحو سنتين . ثم ولاه المقتدر دمشق فسار اليها وكانت مصر وقتئذٍ بيد احمد بن كيغلغ فالراضي عزل ابن كيغلغ وولى الاخشيذ وعاد الاخشيذ واليًا في الشام ومصر وتوجه الى مصر (سنة ٣٢٣) وتسلمها

وفيها قتل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان امير الموصل وديار ربيعة عمه ابا العلا بن حمدان وكان السبب ان عبد الله ابا ناصر الدولة المذكور المكنى بابي الهيجاء الذي كان يحكم الموصل كان يدافع عن القاهر لما قاموا عليه وقتل في تلك المدافعة وكان ابو الهيجاء المذكور قد استناب ابنه ناصر الدولة فاستمر بها الى هذه السنة فضمن عمه ابو العلا بن حمدان ما بيده من ديوان الخليفة بمال يحمله وسار ابو العلا الى الموصل فقتله ناصر الدولة فارسل الراضي عليه عسكرًا مع الوزير بن مقلة فهرب ناصر الدولة واقام ابن مقلة مدة في الموصل ثم رجع ثم تسالم ناصر الدولة مع الخليفة وضمن الموصل

بمال يحمله كل سنة

وفيها ارسل القائم العلوي صاحب المغرب عسكرًا في البحر من افريقية وفتح جنوه واوقع باهل سردنيه ورجع العسكر سالمًا غانمًا واستولى عماد الدولة بن بويه على اصفهان وكان هو ووشمكير بن زيار يتنازعان البلاد اي اصفهان وهمدان وقم وقاشان وكرج والري وكنكور وقزوين وغيرها . وشغب الجند ببغداد ونقبوا دار الوزير فهرب هو وابنه الى الجانب الغربي ثم راضوهم فسكنوا

و(في سنة ٣٢٤) قبض الحجرية والمظفر بن ياقوت على بن مقلة براي الخليفة واستوزروا علي بن عيسى فامتنع فولوها اخاه عبد الرحمن ثم قبضوا عليه وولوها ابا جعفر محمد بن قاسم الكرخي

وفيها قطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع البريدي حمل الاهواز واعمالها فضاق الامر على الخليفة وعجز ابو جعفر الوزير فعزلوه واستوزروا سليمان بن الحسن فلم يحسن الامر فالتزم الراضي ان يقلد امارة الجيش لابي بكر محمد بن رائق وجعله امير الامراء وولاه الخراج والمعادن والدواوين في جميع البلاد وامران يخطب له على جميع المنابر وبطلت الوزارة من ذلك الوقت فان الوزير لم يكن ينظر في شي بل رايق وكاتبه وهكذا كل من تولى تلك الرتبة بعده وكانت تحمل اليه الخزائن فينصرف بها كيفما شاء ويطلق للخليفة ما يريد . وهذه هي الخطوة الاولى المهمة التى فصلت بين الولاية والامامة فكانت الولاية في يد امير الامراء والامامة في يد امير المومنين ومن حين ما دخل ابن رايق بطلت قوة الخليفة الزمنية وصار الامر له وتغلبت عمال الاطراف عليها واستوزر (سنة ٣٢٤) ابن رايق محمد الفضل بن جعفر بن الفرات وكان على خراج مصر والشام فقدم بغداد وتولى امر الوزارة لابن رايق والخليفة

واشار ابن رابق على الخليفة (سنة ٣٢٥) بان يرافقه الى قتال ابن البريدي فاجابه وسارا الى واسط وامسك ابن رابق بعض الاجناد الحجرية ثم اجاب البريدي الى ما طلب منه فرجع الراضي وابن رايق الى بغداد . ثم نكث البريدي فارسل ابن رايق مع بجكم او بحكم عسكرًا وقاتلوه فانهزم ابن البريدي الى عماد الدولة ابن بويه وطمعه بالعراق . وفيها عصت جرجنت في صقلية على سالم بن راشد عامل القائم العلوي لانه كان قد اساء التصرف فكتب الى القائم فبعث اليه عسكرًا وحاصروها فالتجا الاهلون الى ملك الروم فاجابهم (ودام الحصار الى سنة ٣٢٩) فرحل بعض اهلها واستامن الباقون فاخذوا كبارهم وجعلوهم في مركب لياخذوهم الى القائم ولما توسطوا اللجة نقبوا المركب بامر قائد جيش القائم فغرقوا جميعًا فيا لها من خيانة لا تليق بالبرابرة)

والان قد بلغنا الى اخر الربع الاول من القرن الرابع فاردنا اخذ خلاصة لكل ما تقدم في فصل مخصوص يستغني بها القاري عن مراجعة كل ذلك لتمام الفائدة المقصودة

فصل

في خلاصة تاريخية لما تقدم ما ذكر او سقط ذكره

لقد وصلنا الان الى اخر الربع الاول من القرن الرابع للهجرة وقد قام على تخت الخلافة الاسلامية اربعون خليفة من عهد ابي بكر الصديق الى الراضي فاذا حسبنا محمدًا وولدهُ ابرهيم الامام من بني العباس كانوا اثنين واربعين وذلك اكثر من نصف الخلفاء العربيين لان جميعهم يبلغون سبعة وسبعين في المشرق · وقد لعبت الامة العربية دورًا مجيدًا في ملعب هذا الوجود وتغلبت على ممالك عظيمة واقامت على اثارها سلطنة لم يذكر التاريخ اقدر منها · وقد كانت هذه الامة في الاعصار القديمة خاملة الذكر منقطعة عن بقية الناس والامم في اماكن اذا استثنيت القليل منها كانت قفارًا وحزنًا محترقًا · فكانها كانت ميتة الى ان ظهر الاسلام فسعت فيها الحيوة دفعة واحدة وخرجت من قفارها واراضي انزوائها غامرة وجه البسيطة لا يقاومها شي ناشرة الوية قوتها ودينها ثم علومها وتمدنها حتى اذا بلغت الحدود المفروضة لها من الخالق عز وجل توقفت ثم اخذت بالانحطاط درجة فدرجة تاركة اثارًا عظيمة للتاريخ وغيره الى ان رجعت الى تلك البوادي كان لم يكن شي لامفعولاً هكذا سنة الله في خلقهِ · على ان مع ضعف العرب وانتهاء ملكهم وتداخل الاغراب من اتراك وغيرهم في امورهم فان دينهم لم يضعف وقد قدر على امم ثانية من اولئك المبعدين عنهم ان يحملوا لواء الاسلام بعد قرون عديدة

والان اذ قد اتينا الى توقف القوة المذكورة وابتدائها بالقهقرة فلنراجع باختصارٍ ملخص اعمالها وحوادثها في المدة المذكورة مما سقط ذكره لحد الان اوكان تكراره واجبًا لحفظ اتصال السلسلة التاريخية فنقول

لما نهض بنو العباس على تخت الخلافة الاسلامية ووقع السيف في بني امية فلم ينجُ منهم الا عبد الرحمن الداخل كما سلف واستولى على الاندلس انفردت اسلام اسبانيا عمن سواهم من المسلمين وتجرّدوا لحروب الامم المتاخمة لهم مثل شعوب بلاجيوس ونسله وشارلمان مالك الفرنج وغيرهم واخبارهم في ذلك طويلة تطلب في المطولات التاريخية

ثم من اسلام اسبانيا انتشر روح الشرف والاريحية في اوربا وما يعبرون عنه بين العامة بالاشبهية فان العرب كانوا يمتازون في كل مكان عمن سواهم برقتهم وانسانيتهم وجرائتهم وعفوهم عند المقدرة وعلو سياستهم وحبهم وكرمهم كما تدل عليه التواريخ واودعته اشعارهم الكثيرة

وكان ما وجده العرب من الثروة والغنى في الممالك المفتوحة شرقًا وغربًا وفي الجبايات والخراج المجموع من النصارى واليهود وغيرهم قد جعلهم في اوج الاستبداد والنعمة وبدأ من ثم الاسراف

والبذخ بين صغيرهم وكبيرهم وتميزت دولهم بالكرم والترف ونضارة العيش وارتاحوا للحيوة الرافهة ونعيم الدنيا وكانوا يبذلون الاموال في خواصهم وقصورهم وجوامعهم وحجهم ونحو ذلك · ومن بعد فتح سورية والعجم وموريتانيه وبعض الهند والتركستان والاندلس عادت تجارة العرب ذات اهمية فانهم سعوا في احداث محطات تجارية في ممالكهم وسهل ذلك كلة كونهم من دين واحد ولغة واحدة فما كان بذخ حكومة بغداد كما تقدم الا من الاسباب المساعدة لتقدم المتجر وامتداده ومعاطاة الاسفار بينهم وبين الهند من الجيل التاسع للنصرانية وطفق العرب يقطنون في تلك النواحي ودخل كثير من الهنود في دين الاسلام وامتد العرب ايضًا في الجزائر الهندية كسيلون وسومطره وجاوه وقلباس الى الصين وتقدمت القوافل العربية برًّا الى التترية وشمال سيباريه وتوصلوا من جهة افريقية الى نهر نكر واخذت من الجيل العاشر تتاسس دولهم في غانه ودنكره وتكرور وكوكو وبعدهُ في سنار ودرفور وبرنو وتمبكتو ونحوها وجاءوا من باب المندب على سواحل افريقية الى زنجبار واقاموا موانيء مكدشوه وميلنده وصوفله وكيلو ومزمبيق الى مداكسكر ولا يبعد ان يكون عرب لوزيتانيه هم الذين اكتشفوا اميركا في الجيل الحادي عشر

وكان الخلفاء الاول غير قادرين على افناء تلك الثروات في اول الامر لعدم وجود اسباب يبذلون فيها غنائمهم ولان عوائدهم القديمة كانت بسيطة لا تقتضي ذلك لكن لما كان الكرم خلة طبيعية في العرب لم يلبثوا طويلاً حتى وجدوا طرقًا لتبديد كل ذلك فابتدا الاسراف من لدن عثمان فان ذاك الاميرلم يكن عندهُ بشيء اعطا نصف مليون دينار في مرة واحدة والوليد بن عبد الملك انفق في بناء جامع دمشق ملايين من الدنانير وعلى ما نقلهُ ابن خلدون كان اربعمائة صندوق من المال في كل صندوق الف واربعماية الف دينار وهذا وان كان من المبالغات الظاهرة الموسسة على الاستعظام فانهُ لم ينفق اقل من مليون ونصف مليون دينار في عماره والمنصور بعد ان صرف مبالغ على بناء بغداد وقصورها وعلى حجتهِ الاخيرة ترك نحو ثلثين مليون ليره انكليزية · وقد تقدم كيف ان ابنهُ المهدي صرف نحو ستة ملايين جه في حجة واحدة الى مكة واقام في كل طريقهِ نحو سبعمائة ميل منازل وخانات ونحوها وكان اول من ادخل الثلج الى الحجاز · والمامون قبل ان يحول عن جواده في دمشق انفق اربعة اخماس دخل بعض الولايات نحو مليونين واربعمائة الف دينار (نحو ذلك ليره افرنسية) · وانفق في دخوله على بوران مالا جزيلا · وكان على راس الملكة مائة جوهرة ثمينة · وفيما يذكرهُ ابو الفدا عن اسراف المقتدر ودولته عند قدوم رسل ملك الروم (سنة ٣٠٤هـ ٩١٤) ما يغني عن البرهان قال" قدم رسل ملك الروم الى بغداد · فلما استحضروا عبى لهم العسكر وصفت الدار بالاسلحة وانواع الزينة · وكان من جملة العسكر المصفوف حينئذٍ مائة الف وستون الفًا ما

بين فارس وراجل . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة ووقف الخدام الخصيان كذلك وكانوا سبعة الاف اربعة الاف خادم ابيض وثلاثة الاف اسود . ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذٍ سبعمائة حاجب . والقيت المراكب والزوارق في دجلة باعظم زينة . وزينت دار الخلافة فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين الف ستر منها ديباج مذهبة اثنا عشر الفًا وخمسمائة . وكانت البسط اثنين وعشرين الفًا . وكان هناك مائة سبع ومائة سباع . وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنًا وعلى الاغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة والاغصان تتمايل بحركات مصنوعة والطيور تصفر بحركات مرتبة وشاهد الرسول من العظمة ما يطول شرحه واحضر بين يدي المقتدر اه »

وكان لكل من الخلفاء اعمال وابنية عظيمة بذلوا عليها خزائن من الاموال فان المتوكل انفق في بناء القصر الجعفري في المتوكلية نحو مليون دينار ولم يكن مثله في علوهِ ويعرف بقصر اللؤلؤة وقد اجرى اليهِ الماء من نهر احتفره لهذه الغاية

ولم يكن بنو امية في الاندلس باحكم من العباسيين في بذلهم وعظمتهم فعبد الرحمن الداخل انفق مبالغ في اقامة جامع قرطبه وقصرها قيل مائة الف دينار وقيل مائة وثمانين الفًا وانهُ دفع قيمة الكنيسة التي اقام عليها المسجد ثمانين الفًا وكان الجامع المذكور قائمًا على ستمائة وخمسة وستين عمودًا من المرمر واليصب والرخام الاسود وقد اكملهُ ابنهُ هشام بعدهُ ونصفهُ لم يزل الى الآن وقد اضيف الى الكاتدره وفيما فعلهُ عبد الرحمن الناصر وتركهُ كنزًا جميلاً من البناء وهو قصر الزهراء فخر الابنية العربية ما يفوق كلما ذكر وكان ذلك القصر في الزهراء التي احدثها هذا الامير على بعد ثلاثة اميال من قرطبة وكان في وسط جنان نضرة جميلة وصرف على ذلك من الزمان نحو خمس وعشرين سنة ومن المال نحو ثمانية عشر مليون دينار واستخدم لبنائهِ اعظم مهندسي العصر ونحاتي الروم وبنائيهم . وكان اكثر من الف ومائتي عمود من الرخام الاسپاني والافريقي والايطالي واليوناني تزين تلك المشيدات . وكان الايوان منطقًا بالذهب والحجار الكريمة . وكنت تشاهد على البركة المائية التي في الوسط صور طيور وحيوانات محكمة الصنعة بما لا مزيد عليهِ . وكان يرى في القصر الاشرف فيما بين الجنان بركة من المرمر الثمين محكمة الصنعة مملوة بالزيبق الصافي عوض الماء . وكان يقيم في ذلك القصر من خدم ومماليك وغيرهم ستة الاف وثلاثمائة . وكان عند ما يركب الناصر الى الغزو يركب الى جانبيه اثنا عشر الف فارس بالمناطق والسيوف الذهبية وسنذكر بعض اخباره في الجزء الثاني وقس على ذلك من البذل المفرط الذي عم الدول العربية في كل مكان من ممالكهم وكانت حواشيهم وخدامهم سائرين على اثارهم

وفيما يذكر عن البرامكة وغيرهم ما يدلنا على ذلك

فاضعف على ممر الزمان هذا البذخ والاسراف قوة الخلفاء . وسن لخدامهم ورجالهم سنن الراحة والنعم فعادوا يوثرون الشغل والتجارة والتمتع باتعابهم والسكنى بسلام على الحروب وفتح الممالك . وفترت فيهم الحماسة الاولى ولا سيما في الاندلس فان عدالة حكم الامويين وحمايتهم العلوم والصنائع والتجارة واطلاقهم حرية الاديان اوصلت اسبانيا في تلك الاجيال الى سراة السعادة . وتضررت من ذلك النصرانية لامتزاج الاهالي بالمسلمين حتي عادوا يتزاوجون بين بعضهم وكثير من الاهلين اختاروا القران على الانجيل وصارت قرطبة مقر العلوم والآداب والبلاغة والصناعة والتجارة والزراعة واثرّت خصال العرب جدًا في اطباع الاسبانيين المتنازلين عن اهل قرطاجنة والرومان والوندال والغوط وغيرهم كالجراءة والمغايرات وحب النساء الذي امتاز بهِ سكان القفار العربية . وتنازلت تلك المملكة من عبد الرحمن الداخل الى بنيهِ . وخلفهُ اولاً ولده سليمان ثم تغلب عليهِ اخوه هشام بعد حرب شهيرة في بلق من الاندلس على ان الاسراف المذكور وفتور همة العرب كما تقدم لم يتم في مدة قصيرة فانهُ لم يكن ينقصهم رجال يحبون المخاطرات والفتوحات في كل زمان فان هشام بن عبد الرحمن الداخل جهز عبد الملك احد القواد الشهيرين وبعثهُ بعسكر عديد الى محاربة جيرانه وفتح اربونه وتقدم الى نربونه وحاصرها وفتحها عنوة واسر ما بقي من الاهالي واتى بهم الى سيرقوسة ثم الى قرطبه وشغلهم في بنايات المدينة وتركت نربونه خرابًا ولما عجز العرب عن فتح اسطورية التي كانت انتقضت عليهم في عهد الفونس الملقب بالعفيف وقطعت عنهم المائة جارية التي كانت ترسلهن اليهم نظير خراج سنوي بعد ان خسروا في حروبهم معها نحو سنين الفًا في مروج بلندوليد تجرد منهم قوم غفير للاخذ بالثار فان العرب من طباعهم الانتقام فكانوا يتجاوزون تخوم ملكهم و يشنون الغارات على المدن والثغور فغزوا ترروونسه وقسمًا من ايطاليا وداوموا هذه المهنة مدة قيامهم في اسبانيا وكان اكثرهم من عرب افريقية

وهشام بعد ان حكم نحو سبع سنين توفي كما تقدم وبويع لولده الحكم وهذا بعد ان طرد عميهِ اللذين كانا قد نهضا لمحاربتهِ وساعدها عرب افريقية استبد في الامر وسار على اثار آبائه فحارب جزيرة كورسكة وفتحها ثم لزم السلام كل ايام حياتهِ

وفي عهد المامون وميخائيل بليوس قيصر الروم فتح المسلمون جزيرتي كريت (اقريطش) وصقلية ولم يكتب مورخوهم الا قليلاً عن الاولى لجهلهم قدرها وما كانت عليهِ يومًا وعظمة ملوكها مثل جوبيتر (المشتري) ومينوص فان الاول قد رقوهُ الى درجة اله الالهة . والثاني الى رتبة قاضي قضاة الاخرة . قال ابن خلدون ما معناهُ انهُ بعد ما فتك الحكم بن هشام الاموي باهل الربض

المجاور قصره في قرطبة لانهم ثاروا به (سنة ٢٣٢ــ ٨٤٦) واوقع بهم الوقعة الشهيرة وهدم ديارهم ومساجدهم واجلى الغل منهم الى بر العدوى فنزلوا بفاس وغيرها وغرّب اخرين الى اسكندرية فنزلوا وتفرقوا في جوانبها تلاحى رجل منهم مع جزار من سوقة الاسكندرية فنادوا بالثار واستلحموا كثيرًا من اهل البلد واخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم ابا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بابي الفيض من اهل قرية مطروح من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة فقام برياستهم وكان على مصر يومئذٍ عبد الله بن طاهر فزحف اليهم وحاصرهم بالاسكندرية فاستامنوا له فامنهم وبعثهم الى جزيرة اقريطش فعمروها واميرهم ابو حفص البلوطي وتداولها بنوهُ من بعدهِ مدة مائة واربعين سنة الى ان ملكها اربانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز بن شعيب من اعقابهِ (سنة ٣٠٥ ــ ٩١٧) اه»وهي جزيرة ما بين صقلية وقبرس بمقابلة الاسكندرية

اما مورخو الروم فنقلوا لنا ان جماعة من الاندلس تركوا بلادهم لعدم استحبابهم هواءها وحكمها ودوخوا يطلبون لهم محلاً اقرب لذوقهم ودعوا بقرصان (اي لصوص بحر) فانهُ لم يكن لهم اولاً غير عشرين سفينة وكانوا يستبيحون غزو املاك العباسيين لانهم كانوا من الحزب الابيض والعباسيون من السود . فقصدوا اسكندرية مصر ودخلوها غدرًا وقتلوا الصديق والعدو ونهبوا الجوامع والكنائس وباعوا ستة الاف اسير نصراني ولم يزالوا هناك الى ان بلغهم مجيء المامون بالعساكر فحملوا ما وجدوهُ من ثمين وخفيف ونزحوا قبل وصولهِ

ثم غزوا من النيل الى مضيق كاليبولي كل الاماكن المختصة بالروم والعباسيين ولما راوا حسن كريت بروروهم بها وكثرة خصبها رجعوا اليها باربعين سفينة ودخلوها دون خوف ونهبوها وفي رجوعهم ليعبوا سفنهم بالنهب وينطلقوا وجدوا انها كانت قد احرقت لان ابا كعب رئيسهم احرقها هو نفسهُ كما اقر لهم حتى استجنهُ بعضهم والبعض استخانوهُ ونحو ذلك . ولما كثرت المذاهب فيهِ انتهرهم قائلاً اني جئت بكم الى ارض يفيض منها اللبن والعسل فهذه هي مقركم فانسوا الان قفاركم التي ولدتم فيها واتخذوا لكم مسكنًا ووطنًا . فاجابوهُ واولادنا ونساونا . قال فالعذارى اللواتي اسرتموهن يقمنَ مقام نسائكم ومنهن ترزقون اولادًا فاستصوبوا رايهُ ولبثوا هناك . ومن غاب واجام جبل ادا بنوا لهم غير مراكب وداوموا الغزو غير مبالين بعمارات الروم مدة مائة واربعين سنة واستوطنوا اولاً عند خليج سوره واحاطوا المكان بسور وخندق وبقوا هناك الى ان هداهم الى مكان احسن في الجانب الشرقي راهب كان قد اسلم ودعى ذلك المكان من ثم خندقًا ثم اطلق هذا الاسم على كل الجزيرة ومن هذا جاء لفظ كنديا عند الافرنج ومن المائة المدينة التي كانت في عهد مينوص لم يكن وقتئذٍ سوى نحو ثلاثين كلها خضعت لهم الا قيدونيا فانها قاومتهم وحفظت حريتها ودينها

ثم فتح الافريقيون صقلية وكان يحكمها الامراء الاغلبيون حكام افريقية ومن موانئ تونس و بيزرت وبلرم قلعت اساطيل العرب وغزت مائة وخمسين مدينة من كلابريا وقومبانيا في ملك نابلي ونهبت غيرا ماكن من ايطاليا حتى اطراف رومه العظمى ولو كان الاسلام وقتئذٍ في اتحاد لامكنهم فتح ايطاليا كلها ولكن قوة العباسيين كانت قد ضعفت في المغرب واستبد الاغلبيون والفاطميون في افريقية وكانت صقلية نفسها تحاول الانسلاخ والاستقلال عنهم . هذا ولم يكن عملهم ذلك بقصد الافتتاح والتملك بل على سبيل الغزو والنهب طبق عوائد اجدادهم في البادية

وكانت ايطاليا ترتعد عند استماع ذكر العرب ورومه العظمى ترتجف اذ ترى ان الد اعدائها انما اتوا اليها قبلاً من افريقية ولم يكن خوفها من اعدائها الحدثاء اقل منه من القدماء

ففي (سنة ٢٣٢-٨٤٦) تجاوز عدد غفير من مراكب المسلمين ودخلت نهر طيباريوس و رست عند رومه ونهب المسلمون بعض الكنائس واخذوا مذبحًا من فضة من كنيسة مار بطرس الشهيرة ولم يهدموا ولا احرقوا شيئًا لعدم اتفاقهم وقد كان في امكانهم ذلك لان الرومان تركوا لهم الاماكن خالية وهربوا . ومن هناك اخذوا طريق آنيا ونهبوا فوندى وحاصروا غايتا من اعمال نابلي وداوموا على زيارة المدن المطهرة واهل رومه يرتعدون من ذكرهم واستنجدوا بالفرنسويين ولكن شرذمة صغيرة من العرب هزمت عساكر فرنسا . ولما راى الرومان ما حل بهم من الضرر وتعاسة حالهم ارادوا الرجوع الى سلطة ملوك القسطنطينية انما لعدم الاتفاق واضعف تلك المملكة ايضًا لم يتم ذلك

وفي هذه الاثناء والمصائب محيطة بالرومان من كل جانب توفي البابا وكان متسلطًا وقتئذٍ على الزمنيات فظن في اول الامران بموته ستزداد البلوى غيران الدواعي الحاضرة حينئذٍ جعلتهم ينتخبون من هو اهل لتخليص الملك فاقاموا ليون الرابع الروماني المولد وهو بحسن سياسته وجراءته استخلص رومه وكل النصرانية من رق العرب وكان اول اهتمامه بتطهير ما تبقى من الذخائر والاثار القديمة ووضعها في مكان امين ثم باجراء الصلوات العمومية والتطوافات والاحتفالات الدينية فاحيا بذلك الدين الذي كان قد ضعف في قلوب المومنين وحرك في الاهالي روح الاشبهية والشرف واضرم في قلوبهم نيران المدافعة عن معتقد ابائهم ثم بتحصين اسوار المدينة المهملة من قديم واقام اثنتي عشرة قلعة في الاماكن التي كان تجاوزها ممكنًا وجعل قلعتين على حافتي نهر طيباريوس بينهما سلاسل حديدية لتمنع تقدم العدو وقد تمكن من كل ذلك لمصيبة كانت حلت بالعرب فاخرت رجوعهم وهوانهم لما رفعوا الحصار عن غايتا وركبوا البحر تحركت عليهم امواجه وهاج العاصف بهم فابتلع اكثر تلك السفن واصحابها اما الامير الاغلبي سلطان افريقية فلم يكن قد اكتفى بما سبق فارسل

عمارة اخرى وعسكرًا غفيرًا فقاموا من افريقية الى سردينيا و بعد ما اقاموا مدة في مراسيها نهضوا منها وساروا حتى وصلوا الى مصب نهر رومه وكان على ما ظهر من كثرة عددهم وعِدَدهم ان مرادهم الافتتاح هذه المرة لا الغزو فقط وكان البابا ليون الرابع قد اتم الاتحاد بينهُ وبين نابلي وغايتا واما لغا الخاضعة وقتئذٍ بالاسم لملوك الروم فعند وصول العرب جاءت سفن المدن المذكورة وحلت بفرضة اوسطيه وهي فرضة رومه قديمًا وقد هجرت لرداءة هوائها · وكان على امارة تلك العمائر قيساريوس ابن دوقة نابلي من الابطال المشهورين وكان قد حارب عمارة العرب قبلاً واستظهر عليها فنهض قيساريوس المذكور وذهب بصحبته بعض اعيانو الى رومه ودخلوا على البابا وكان وقتئذٍ في البلاط اللاتراني وبعد المداولة نهض ليون وسار على رؤوس العساكر الرومانية الى اوسطيه المذكورة وغب ان حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس ومنحهم ليون البركة الرسولية وجه خطابهُ الى العلاء قائلاً «اللهمَّ كما انك اعنت وخلصت السليحين بطرس وبولس من امواج البحر خلّص واحفظ الان بقدرتك اذرع هولاء المجاهدين عن اسمك القدوس» و بعد ان استغاث المسلمون بالعزة الالهية وروحانية الرسول اخذوا بمصادمة سفن العدو وكانت سفن النصارى بمعزل عن الريح ومحصنة ضمن المينا فلم تكن سفن المسلمين قادرة علي صدامها بدون التقدم نحوها وكان الوجه اجمالاً للطليان الا انهُ قبل تمام الظفر بيد البشر هبت ريح عاصفة فازعجت البحر وامواجهُ وضربت تلك الامواج المختلطة مراكب المسلمين من جميع الجوانب فاعدمتها الحركة الاختيارية وتكسر كثيرٌ منها كل ذلك وسفن النصارى آمنة في مراسيها · واخيرًا انجلى الامر عن ظفر النصارى وما بقي من تلك السفن الاسلامية وقعت في ايديهم فقبضوا على من فيها من الرجال واوقعوا بهم دون شفقة وابقوا منهم عددًا وافرًا ليقيموا ما كانوا هدموهُ واخربوهُ ثم انطلق البابا مصحوبًا بالعساكر المتحدة واهل رومه الى قبري السليحين بطرس وبولس وقدموا الشكر لله الذي نصرهم على اعدائهم ورفعوا من الكسب ثلاثة عشر قضيبًا من الفضة شبه القناطر وعلقوها علي هيكل ماري بطرس

وكان ليون كل حياتهِ مجتهدًا في تزيين رومه واصلاحها وترميم خراباتها وكنائسها الى غير ذلك ويعد من فضلاء الباباوات نظرًا الى غيرتهِ وكرم خصالهِ · ومن جملة ما زين بهِ كنيسة ماري بطرس تلك الاوعية الذهبية نحو مائتي اوقية المحفورة عليها صورتهُ وصورة قيصر محاطة باكليل من لوءلوء · وبعد ان قبل ليون اناسًا نزحوا من كورسكة التي كانت حينئذٍ في يد العرب وغيرهم من المغرب وقدم لهم المساعدات اللازمة فانزل بعضهم بقرب نهر طيباريوس والبعض وهم الاكثر بقرب ماري بطرس اقام سورًا للكنيسة المذكورة وحصن المكان واطلق من ثم على ماري بطرس والقصر الباباوي الذي بقربهِ وهو الواتيكان اسم مدينة ليون

هذا ما كان في المغرب واما ما كان في المشرق فان طيوفيل بن ميخائيل بليوس ملك الروم واشد امراء اليونان في عصرهِ نهض ضد العرب وركب عليهم بنفسهِ خمس مرار طورًا مدافعًا وتارة مهاجمًا وكان موقرًا من اعدائهِ حتى في وقت الهزيمة واخيرًا دخل الشام وحصر مدينة زبطره المجهولة حيث ولد المعتصم ولاشتغال الاسلام وقتئذٍ بمحاربة بعض الانبيا الكذبة من الفرس لم ينتبهوا اليهِ فامر باحراق المدينة المذكورة وبان يقطعوا بعض اعضاء سكانها ويضعوا لكل منهم علامات بقصد الانتقام . وكان المعتصم في مدة خلافة اخويهِ الامين والمامون متوليًا على الاناضول وارمينية والكرج والشركس ولما كانت هذه في اخر حدود الروم كان قد تعلم ما تحملهُ في الحروب لحفظها الجراة وفن الحرب وكان من ابطال زمانهِ وقد لقب بالمثمن لانهُ انتصر ثمان مرار وقيل لانهُ الثامن من العباسيين ولخلافتهِ ثمان سنين وثمانية اشهر وثمانية ايام وتركهِ ثمانية بنين وثماني بنات وثمانية الاف عبد وثمانية ملايين ذهب وقد سبق ذكر بعض ذلك فعزم المعتصم اخيرًا على اخذ الثار ورفع العار ولا سيما لما اخبر انهُ عند حريق زبطرة سمع صوت امراة من قومهِ تقول آه وامعتصماه فامر بحشد العساكر العراقية والشامية والمصرية وبجمع عسكر جديد من العرب والاتراك قيل ان عدد الفرسان كان ثلثمائة وثلثين الفًا وان جهزة العساكر كلفت عشرة ملايين ذهب وبعد ما اجمع على السفر نهض بالعساكر الى طرسوس ومن هناك انقسمت ثلث قسم ذاهبة الى الروم وكان ولد اخيهِ العباس معهُ في موخرة القوم وهو في الوسط والافشين خيذر بن كاوس في الامام . وكان فكرهُ اخذ ثاره اولاً بمثل ما افتري عليهِ وهو خراب مدينة عمورية حيث ولد ابو طيوفيل وكانت المدينة المذكورة من فريجية مهد العائلة المالكة وبعد القسطنطينية في المقام فحاصرها المعتصم بعساكرهِ . وكان راي وزراء القسطنطينية في اول الامر ترك المدينة والقيام عنها اما طيوفيل فابى الا القتال وبدت الحرب . قال اهل الدقة والتمحيص من المورخين ان لا العرب ولا الروم نالوا وقتئذٍ شرف النصر وان يكن المعتصم هو الظاهر اخيرًا وذلك لان العرب ظفر عليهم ثلثون الفًا من الفرس كانوا في خدمة الروم وظفر بالروم فرسان الاتراك الذين كانوا في خدمة المعتصم ولو لم يحدث مطر تلك الليلة وترتخي الاقواس من الماء لما قدر طيوفيل على النجاة بقليل من عساكرهِ ووقف اليونان بعد انهزامهم على مدينة درولية مسافة ثلثة ايام من عمورية . وكاتب طيوفيل المعتصم يطلب اليهِ ان يترك عمورية ويدفع لهُ ما يريد فلم يقبل وابقى الرسل عنده ليكونوا شهودًا على نصرهِ . وبدا الحصار وبقوا خمسة وخمسين يومًا لا يقدرون على شيء الى ان دل الاسلام رجل يوناني خائن على مكان يمكن الدخول منهُ بسهولة واعطاهم علامة وجود صورة اسد وثور فيهِ فدخلوها اخيرًا واخربوها ونهبوها ومن هناك رجع المعتصم بعساكرهِ الى بغداد . وكان

طيوفيل ينتظر النجدة من الافرنج وفي تلك الحرب قتل من الاسلام ستون الفًا ومن النصارى اربعون الفًا فقتل الاسلام عشرين الف اسير ليفدوا رجلا برجل فانهُ كانت تدعوهم الضرورة احيانًا الى المساواة اما بالاعدام واما بالخلاص

وفي تلك الحروب الامية والملية لم يكن يوثق بالصلح ولا بالحرب فان العفو كان نادرًا في القتال وكانت الاسرى تتحمل اشد الاهانات والضرر والعبودية والعذاب فان بعض الملوك الكاثوليكيين يذكر ميتة عرب اكريد عندما اخذها النصارى بان منهم من سلخوا احياء ومنهم من وضعوا في الزيت المغلي والمعتصم لاجل كيده وهواهُ لاشى المدينة المقدم ذكرها الحاوية مائتي الف نفس وخسر لاجل ذلك رجالاً كثيرة وانفق اموالاً غزيرة وامثال ذلك كثيرة في تواريخهم

وبعد موت المعتصم توقفت حقيقةً قوة الخلفاء العباسيين فان هذا الامير بعد رجوعهِ من حرب طيوفيل ملك الروم وقد شاهد فتور جراءة المسلمين من العرب باختلاطهم مع الفرس واهل الشام ومصر وفقدانهم بسالتهم بانصبابهم على اللذات والعيشة الارتياحية التزم باستخدام الاتراك سكان الشمال فان قوتهم وشجاعتهم طبيعيتان لا كالعرب الذين باسهم صوري يتحرك بالمعاني ولهذا كانت المذاهب الدينية ونحوها من الامور المعنوية توثر في طباعهم فاذا ضعف الفكر بطلت الجراءة وقلت الهمة منهم

فالعرب تقلدوا سيف الاسلام عن اقتناع باطني عقلي بصحة تعاليمهِ وكانوا ينصبون على الموت لا طمعًا بالارباح والمجد العالميين بل بنوال الجزاء الاخير الموعود بهِ لكن بعد ان ذاقوا نعيم الدنيا وارتاحوا للذاتها هيج ذلك العطش للتنعمات الاتية وانقسمت اميالهم ما بينها فلم تعد جراءتهم كافية لمقتضيات الازمنة اما الاتراك وغيرهم من سكان الشمال فان الجراءة فيهم بالطبع لقوة ابدانهم ولان القوى الحيوانية فيهم اشد من سكان الجنوب ففي حروبهم تكون غايتهم الاولى الظفر للاطماع الحالية اذ هي غاية لديهم ومن كانت هذه صفاتهُ يبقى ابدًا شجاعًا بالطبع فاذا امكنك ان تضرم عقلهُ بآمال صورية دينية ايضًا جعلتهُ مضاعف البسالة وهذا ما جعل المعتصم يفضل الاغراب على قومهِ فاستخدم منهم نحو خمسين الفًا وفوض اليهم امر الحراسة بعد تهذيبهم في دين الاسلام وعوائدهم فكانوا قوة جديدة في اول الامر اشربت للملكة الى ان عادت مع الوقت ضعفًا وسببًا لانحطاط العرب باختلاسهم القوة منهم متصرفين بامور الخلفاء كيفما شاءوا ومستبدين بالولايات فاصبحوا ممقوتين من الجميع . وقامت الاختلافات بينهم وبين الرعايا والعساكر الاهلية والتزم من اجل ذلك المعتصم نفسهُ ان ينقل محل سكناه الى سامره على جانب دجلة نحو اثني عشر فرسخًا من بغداد مصحبًا امة الاتراك وبموت المعتصم ماتت شوكة الخلفاء - والواثق بالله والمتوكل كانا مبغضين لاضطهادهما من لم يوافقهما في خلق القران

وقد كان المعتصم اعطاها مثلاً بسلخه حيًا رجلاً اسمهُ احمد لقولهِ بعدم خلق القران · والمتوكل امر ان لا يخرج احد من المسيحيين واليهود بدون وضع الغيار تمييزًا لهم عن المسلمين والغيار زنار من جلد اسود · وكان اذا اذنب احد اهل الذمة يومر بجلده اولاً على كتفيهِ بالغيار المذكور · وهذا الخليفة لما راى نفسهُ مكروهًا من عموم الشعب اتى كل اتكالهِ على الاتراك · وهولاء لما كانوا نظير سيدهم ممقوتين وجدوا ان الافصل لهم كان القاء الفتن والحركات بين القوم وتحالفوا مع المستنصر بن المتوكل على قتل الاخير وقطعوهُ بالسيف سبعة اقسام وهو على الطعام في قصره قيل ان المتوكل كان يتظارف بعض الاوقات مع جلسائهِ باراتهم الموت وتخويفهم فكان يامر بافلات بعض السباع وهم على الطعام او بوضع الحيات تحت السفرا او بكسر اوعية مملوءة من العقارب قدامهم وكان يامرهم بعدم الهرب ولزوم مكانهم وكان اذا لسع احدهم يعطيهِ نوعًا من الترياق محفوظًا عندهُ لهذه الغاية ولما نظر احد حاشيته الاتراك داخلين لقتلهِ · قال اليوم يوم السيوف لا يوم السباع والعقارب · والمنتصر بعد جلوسهِ على تخت الخلافة (سنة ٨٦١) اراد ان يبرىء نفسهُ من قتل ابيهِ امام الجمهور بالسيف والخطابة وامر الوزيران يقنعهم بذلك فاجابهُ وزيرهُ على الفور غير خائف من الموت « ارتكاب الذنب اسهل من التبرئة منهُ » قالوا وهذا الامير راى اباهُ في الحلم يوبخهُ على اغتيالهِ اياه ويبشرهُ بالموت وبقي هادسًا زمانًا من هذا الحلم المرهب واعتراه نوع من المالنخوليا ومات بعد ستة اشهر · وقيل ان سبب موتهِ كان رويتهُ بساطًا مرسومًا عليهِ صورة ذنب ابن كسرى الشبيه بذنبهِ وكيف انهُ قوص عليهِ فلم تكن تتركهُ تلك الروءيا

والخلاصة ان الاتراك كانوا يلعبون بالخلفاء لعب الاعصار بالغبار فكانوا ينزعون الملك ويولونهُ عمن ولمن ارادوا فولوا وخلعوا وقتلوا ثلاثة خلفاء في اربع سنين. واضطر المستعين بالله ان يسلم اليهم انتخاب امير الحرس وامارة الامراء وهي الرتبة الاولى الاجرائية في الخلافة واخيرًا خلع نفسهُ ونفي الى مسكن حسن بن علي في بغداد · والمعتز بعدهُ حبسوهُ ومات عطشًا لانهم لحظوا منهُ الغدر بهم قال ابو الفدى انهم جروهُ من رجليهِ الى خارج القصر ووضعوهُ في الشمس مدة وبعد ان ضربوهُ ضربًا مولمًا منعوهُ عن الاكل يومًا كاملاً وجعلوهُ في سرداب عميق · وافجع من ذلك ما جرى المهتدي فانهُ بعد حرب دموية بينهُ وبينهم وقتله بليكيال رئيسهم دخلوا عليهِ وتفلوا في وجههِ ومسكوهُ ولطموهُ بارجلهم وبالدبابيس وعذبوهُ ليخلع نفسهُ وهو كان يجيبهم نفيًا قائلاً الموت اخرة كل مولود اما الحكام فيقتضي ان يذهبوا الى القبر تاركين الملك بحالهِ واخيرًا طرحوهُ على الارض وداسوهُ بارجلهم ولم يزالوا يعذبونهُ حتى مات

اما في عهد المعتمد فمات موسى رئيس الاتراك وهو مع اخيهِ الموفق بالله اضعفاهم بتفريقهم في

الاماكن المختلفة من المملكة ولكن ذلك لم يجدها سوى راحة وقتية لانهم فيها بعد استبدوا بالولايات والاماكن التي ارسلوا اليها كما سياتي

وبينما الامور كذلك واذا بنبي جديد ظهر الى ساحة الوجود وهو قرمط وادعى انه روحانية الانبياء السابقين وقد تقدم خبره والبعض يقصون خبره هكذا انه (سنة ٢٧٨–٨٩١) كان في نواحي الكوفة رجل شيخ يواظب على الصوم والصلوة والعيشة الفقرية وكان يعتبر كولي ثم اختار من اتباعه اثني عشر رجلاً وارسلهم لينذروا بشريعته ولما شاع امره امر حاكم الكوفة بحبسه فشفقت عليه جارية الحارس وفكرت بنجاته فتركت الى ان نام سيدها وسرقت المفاتيح وحلت الشيخ من اغلاله ورجعت المفاتيح الى مكانها دون ان يعلم احد ففي اليوم الثاني دخل السجان السجن فلم يجد الشيخ والحال ان الابواب كانت مغلقة كما تركها فتعجب من امره ومن الخوف اعلن في البلد ان بعض الملائكة اتوا وحلوه واخرجوهُ من السجن وكان الشيخ لما سمع يوكد ذلك وجذب اليه حزبًا وبقي زمانًا ينذر بمذهبه في جبال الشام لانهُ كان هرب اليها ثم اختفى ولم يعلم مكانهُ فقال تلاميذه انه عرج الى السماء وصحبتهُ ثلاثة ملائكة

وتفرقوا بين عرب البادية يعظون بدين امامهم ويحزبون العامة على العباسيين وعلى اسرافهم وكان رئيسهم ابو سعيد فرض عليهم عوض المفروض من الشرع ان يودوهُ خمس ما ملكوهُ وخمس الغنائم وكان يطلب ممن يدخلون في مذهبهِ يمينًا بالطاعة العمياء لاوامرهِ ويحفظ السر القائم باتحادهم حفظًا لهم من الاضطهاد . ولما تكاثروا نهضوا لحرب الخلفاء وحارب ابو سعيد المذكور عباس قائد جيش الخليفة وانتصر عليهِ واسرهُ واسر الفًا وثمانمائة من عسكرهِ وامر فربط عباس الى شجرة وبينما هو مقيد آيس من الحيوة جاءهُ ابو سعيد وقال له ان وعدتني انك تقول للخليفة ما اقوله لك تخلص حياتك وبعد ان حلفهُ اليمين على ذلك قال له قل للمعتمد « انا من سكان البادية اقنع بالقليل وهكذا اتباعي ولم اتعدَّ له الى الان على قرية ولا على مدينة بل انما حاربت من تعدى عليَّ فقط لاختلافي عنهُ مذهبًا وكنت الظافر فان رجالي معودون على التعب والكد وليس كعساكره يحبون الراحة فاذا قدموا الى هذه القفار امكن هزمهم والتغلب عليهم حالاً فليعتبر اذًا المعتمد قلة المنفعة له من حربنا ويقدم على تركنا فنعيش بسلام » فبلغ عباس كل ذلك للخليفة فتركوا مدة فزاد عددهم ونقووا جدًّا وعادوا يغزون في التسعمائة من المسيح المملكة العباسية من الجانب الواحد الى الشام ومن الجانب الثاني الى البصرة وتملكوا ولاية البحرين في خليج العجم وخضع لهم جملة قبائل من العرب واشتهر ابوسعيد وابنهُ ابو طاهر وكانا يركبان على اكثر من مائة الف محارب كلهم مملوون بنار التعصب لدين امامهم ويغلبان عساكر الخلفاء حيثما التقيا بهم واخذا اخيرًا مدينة الكوفة والبصرة ورقه وبعلبك

جدول خطا وملاحظات الجزء الاول

اذا اشكل عليك لفظة او معنى فانظر الى هذا الجدول فان لم تتم الفائدة فلا ذنب علينا

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٠٤	١٨	بخارى	بخارا
٠١٨	٠٩	البصرة	البصرى
٠١٨	١٥	بالشام	بدمشق
٠١٩	٠٦	بالشام	بدمشق
٠٣٣	٣٧	وعزار	واعزاز
٠٣٥	١٧	(باب البون)	٠٠
٠٣٨	١٠	جامع الحلم	جامع الرحمة
٠٣٩	٠٩	مروزور	(مروالروذ)
٠٤٣	٠٧	وابي المغيرة	والمغيرة
٠٤٤	٢٤	قبصية	قبيصة
٠٤٥	١٥	الحنيفة	الحنفية
٠٤٧	٢٤	دامية	(دمها)
٠٤٨	١١	حسن	حسان
٠٥٤	٢٥	اربعمائة عشر الاصح	اربعة عشر
٠٦٣	٠٣	وباب الباب	وباب الابواب
٠٧٣	٣	عبدالله وعبدالله القاضي	وعبدالمومن
٠٧٤	٠٥	الجولاني	الخولاني
٠٧٨	٠٦	الحرث	الحدث
٠٨٠	٠٣	فيها	منها
٠٨١	٠٩	رابعهم	ثالثهم
٠٨١	٢٥	تدبير	تدمير
٠٨٢	٠١	بشار	بشارا
٠٨٣	٢٤	الحرث	الحدث
٠٨٤	٠٣	الحرث	الحدث
٠٨٤	١١	خامسهم	رابعهم
٠٨٥	١٦	سادسهم	خامسهم
٠٩١	١٥	الحرث	الحدث
٠٩١	١٧	الحرث	الحدث
٠٩٤	١٦	الصلحي	الصليحي
١٠٠	٠٧	البدندون	لعله البردان
١١٤	٢٣	(١٢٤)	(٢٤١)
١١٨	١١	وتبعة	وتبعة
١١٨	٢٤	نظار	ناظرا
١١٩	٠٦	بن	ابن
١٢٣	٢٥	سياط	ميساط
١٢٤	١٧	خانتقو	خانقو
١٢٥	٢٠	السراة	الشراة
١٢١	١٦	بنو	بني
١٢٦	١٨	بمليمة	بسلمية
١٢٦	١٩	وجاز	وجازا
١٢٧	٠٨	خنزير	(حنزير)
١٢٧	٢٤	المسلمين	المسلمون
١٥٤	١٥	مضيف	مضيق
١٥٥	٢٦	سنة ٣٥٠	٣٥٠ سنة
١٥٩	٠٠	الاربعة	الثلاثة
١٦٣	٠٣	الفل	الفل
١٦٧	١٦	غوص	قوص
١٧٠	١٧	الفسطاس	الفسطاط
١٧١	١٦	والاراق	والعراق


الحرب

فهرست

الجزء الاول من تاريخ الوافي

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة